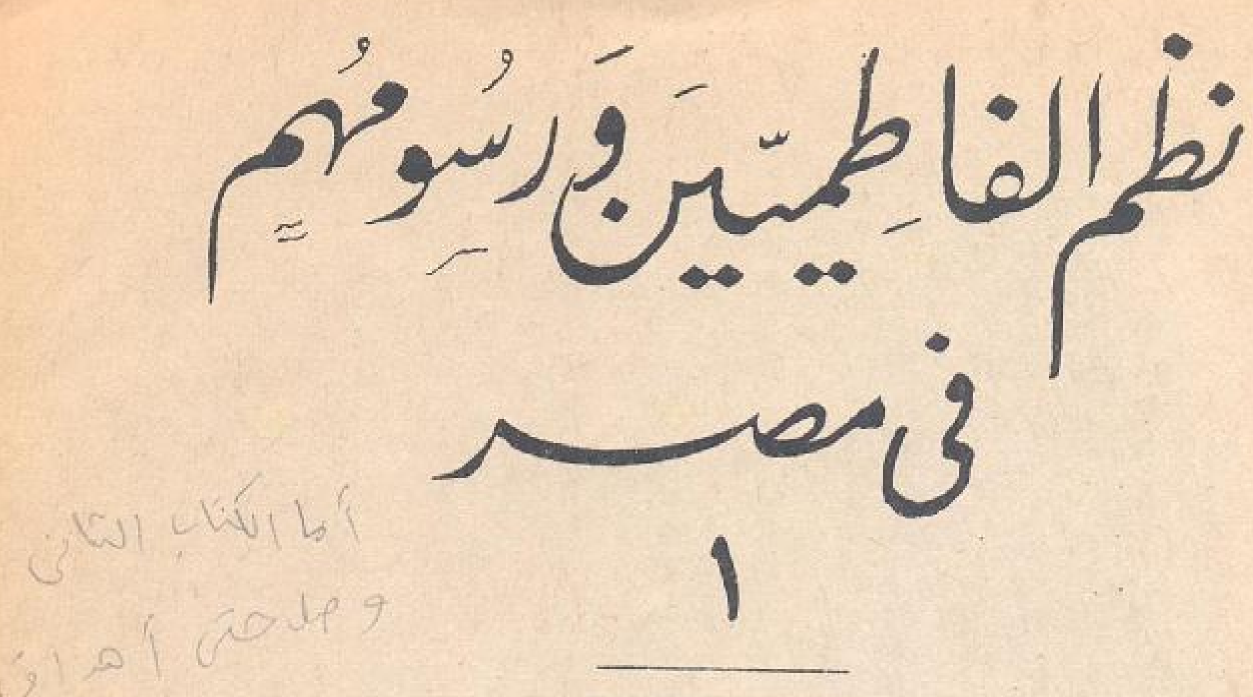
نظم الفاطميين ورسومهم في مصر



الجزء الأول

دكتور عبد المنعم ماجد



INSTITUTIONS ET CÉRÉMONIAL
DES FATIMIDES
EN EGYPTE

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس
وعضو المجالس القومية المتخصصة

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

١٩٨٥

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

افتتاح

فهرس الكتاب

افتتاح :

الكتاب الأول :

الكتاب الثانى :

خاتمة :

جدول المصادر والمرجع :

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان لقيام الدولة الفاطمية فى مصر أهمية خاصة فى التاريخ ؛ فالفاطميون قد حكموا مصر زهاء قرنين من الزمان ،من ٣٥٨ إلى ٥٦٧هـ(٩٦٩—١١٧١م)، وهى فترة تطورت خلالها النظم السياسية والإجتماعية تطوراً خطيراً .

وسنحاول أن نقدّم عرضاً كاملاً — إن أمكن — لنظم الفاطميين ورسومهم ، وهو يحتاج إلى عناية خاصة بجمع الوثائق النادرة ، والمادة التاريخية الغزيرة ، فى حزمة محكمة الربط . وتقدّم إلينا المصادر العربية هذه النظم الإسلامية — عادة — بطريقة مضطربة لا نظام لها وبدون مناهج بحث علمية؛ مما يسبب اضطراباً وسوء فهم : اضطراباً للنظم بعضها مع بعض ، أو لصفة كل منها بالنسبة لكل دولة إسلامية . فعمل عرض واضح دقيق لنظم الفاطميين ورسومهم ، برسم لوحتها المميزة ، هو غرضنا الأساسى من هذا البحث .

ثم إننا استعملنا ألفاظاً اصطلاحية فنية عديدة ظهرت لتدل على النظم السياسية والإجتماعية فى العصر الفاطمى، فهذا العصر يحدد انتهاء الفترة العربية — الفارسية فى مصر . وقد بقيت تلك التعبيرات الجديدة لنظم مصر الوسيطة ، حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية فى عهدى الدولتين : الأيوبية والمملوكية .

ولهذا البحث استخدمنا مادة غزيرة ، وإن كانت محتاجة دائماً إلى غربلة لتخرج منها خلاصة علمية صحيحة . وقد وجدنا المصادر الأصلية لهذه المادة مبعثرة فى مخطوطات مختلفة معاصرة للفاطميين، فى مصر وإنجلترا ، وهى عبارة عن مناجم لم تستغل ، وكنوز بكر لم تنشر بعد . وكذلك استخدمنا معظم المؤلفات الحديثة التى ظهرت فى البلاد الإسلامية من ناحية ، وفى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وروسيا بلغاتها الأصلية من ناحية أخرى ، مما يتعلق بموضوع النظم والرسوم ؟

مقدمة

كانت دولة خلفاء الفاطميين تسمى رسمياً فى السجلات[1]، التى تصدر من ديوان الإنشاء : « الفاطمية »[2] ؛ وهى تسمية صادرة عن اسم فاطمة ، ابنة النبى وزوجة علىّ ، التى ينتسب إليها الفاطميون . فسلطة هـــذه الدولة الروحية والزمنية ترتكز على صلة القرابة بأسرة النبى ، ولذا كان اسم «الفاطميين» ، غالباً على خلفاء هذه الدولة فى مصر ، حتى فى غير الوثائق الرسمية .

ولها أيضاً تسمية رسمية أخرى تغلب عليهم مثل تسمية الفاطمية ، هى : « العلويّة[3] » ، وهى صادرة عن اسم مؤسس أسرتهم علىّ بن أبى طالب ، الجد الشرعى لسلالة خلفائهم فى مصر ، كما أن سلالة خلفاء «العباسيين» صادرة عن اسم العباس ، عم النبى .

وكان يطلق رسمياً على دولتهم واحد من هذه التعبيرات الثلاثة : «دولة»[4] ، أو « إمامة »[5] ، أو « خلافة »[6] ، وهى تبين أسس الدولة السياسية .

وللخلفاء الفاطميين تسميات أخرى غير رسمية أطلقها عليهم أنصارهم ، ولذلك

---

(١) السجلات المستنصرية ، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ ؛ أنظر .
(٢) المصدر نفسه : السجلات : (٣٢) ص ١٠٤ ؛ (٣٤) ص ١٠٩ .
(٣) السجلات : (٢٧) ص ٩٥ ؛ (٤٦) ص ١٥٨ .
(٤) السجلات : (٢٧) ؛ (٣٢) ؛ (٣٤) ؛ (٤٤) ؛ (٤٦) ؛ (٥٣) .
(٥) السجلات : (١٨) ص ٧٣ ؛ (٣٥) ص ١١٠ .
(٦) السجلات : (١٨) ص ٧٢ ؛ (٣٥) ص ١١٠ ؛ (٤٣) ص ١٤٦ .

فلها صفة خاصة مذهبية محضة ، فنحن نعرف أن الفاطميين ينتمون إلى علىّ ؛ فكانوا يعرفون : « بشيعة علىّ » أو « بالشيعة »[١] .

ولكن الشيعة انقسمت على نفسها فى أول عهدها إلى عدة فرق ؛ ولكى يتميز الفاطميون من بين الفرق الأخرى الشيعة تسموا : « بالإسماعيلية[٢] » ، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، الإمام الشرعى السابع ، من سلالة فاطمة وعلىّ ، وهو فى اعتقاد الفاطميين آخر إمام فاطمى ظاهر لهم ، فبعد إسماعيل تتابع الأئمة من سلالته بدون انقطاع ، ولكن كأئمة مستورين ، حتى ظهور دولة الفاطميين فى شمال أفريقيا ، فنسبة إلى هذا الإمام السابع من الأئمة الظاهرين ؛ يسمى الفاطميون — أحياناً — :« السبعية »[٣] .

ويطلق على الفاطميين أيضاً اسم :« العبيدين »[٤]، باسم الخليفة « عبيد الله المهدى » ، أول خليفة فاطمى ؛ وهو الذى أسس الدولة الفاطمية بالمغرب فى ٢٩٦ / ٩٠٩ . وكان نسب هذا الخليفة سبباً فى تكهنات عديدة : فهو فى قول البعض أول امام ظاهر بعد سلسلة الأئمة المستورين الذين كانوا قد اضطروا إلى إخفاء شخصياتهم أو ما يسميه الشيعة « التقية[٥] » أى الاحتياط ، خوفاً من اضطهاد العباسيين ، أعدائهم الألداء . فاسم « العبيديين » أطلق على الفاطميين نظراً للشك الذى يحيط بصحة نسب عبيد الله ؛ ولعله أطلق عليهم أيضاً من قبل

---

(١) النعمان ، شرح ، ورقة ٦٨ ؛ إفتتاح ، ورقة ١ ؛ صبح ، ١٣ص ٢٢٦ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، تحقيق Quatremère ، ١ ص ٣٥٥ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ؛ صبح ، ١٣ ص ٢٣٥ .

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ، القاهرة ١٣١٧ ، ٢ ص ٢٧ — ٢٩ ؛ انظر : le dogme. Trad. Felix Arin, p 291 : Goldziher. Les pays des Alouites, p. 52. : Weuleresse

(٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٠٣ـ١٩٠٤ ، ص ٣١٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ١ ص ٢٠١ .

(٥) النعمان ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيضى ، القاهرة ١٩٥١ ، ١ ص ٧٤ — ٧٥ .

أعدائهم سخرية واحتقاراً رغبة فى القضاء على مزاعم الفاطميين فى الانتساب إلى علىّ وزوجته فاطمة[١].

ومن ناحية أخرى، فإن مؤرخى العرب يسمونهم: «الخلفاء المصريين[٢]»، لأنهم كانوا ملوك مصر؛ كما أن سلالة بطلميوس – مع أنهم يونان فى الأصل – كانوا يسمون: «ملوك مصر».

وأخيراً رغبة فى هدم انتحال الفاطميين لكل شرعية فى النسب إلى بنت الرسول، ورغبة فى محو كل احترام قد ينتج عن الاعتقاد فيه، فإن أعداءهم الألداء — وبخاصة السنيين — لم يترددوا فى تسميتهم: «بالرافضيين»[٣]، أى الذين خرجوا على الدين. كذلك سموهم: «المجوس»[٤]، على اسم أتباع الدين المجوسى، الذين كانوا فى فارس حتى ظهور الإسلام، وبهذه التسمية يرمون إلى هرطقة المجوسية الفارسية التى رفضها الإسلام. وسموهم أيضاً: «الباطنيين[٥]»، لأن أئمة الفاطميين كانو يدعون معرفتهم بالمعانى التى وراء ألفاظ القرآن، أو ما يُعرف بالمعنى الباطن للقرآن. كما نعتوا دولتهم: «باليهودية»[٦]، وذلك لأنهم يقولون بانتساب الفاطميين إلى جد يهودى.

على أننا يجب أن نقرر أن الدولة الفاطمية — سواء أكانت فى المغرب أم فى

---

(١) السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٤.

(٢) ابن خلكان، وفيات، طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ، ١ ص ٥٣٧.

(٣) فى المحضر الذى برز أيام خليفة بغداد القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢/٩٩١ — ١٠٣١)، المعاصر للخليفة فى مصر الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ / ٩٩٦ — ١٠٢٠) فى سنة ٤٠٢ / ١٠١١، يتضمن هذه التسميات العدائية للشيعة، بقصد إثارة الشكوك حول صحة نسبهم. ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٤؛ انظر.

Mamour: Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs, p.1616.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ١ص ٢٠١؛ انظر.

Mamour: Polemics, p. 16: 30 et suiv.

(٥) أبو شامة، الروضتين، ١ ص ٢٠١؛ انظر. كامل حسين، فى أدب مصر الفاطمية، ص ٩.

(٦) أبو شامة، الروضتين، ١ ص ٢٠١؛ انظر.

Mamour: Polemics, p, 16; 101 et suiv.

مصر — مثل غيرها من الدول الإسلامية، ترتكز فى أساس بنائها على الدين. وقد لاحظ ابن خلدون ، المفكر المسلم الكبير ، أنه ليس من السهل أو الممكن فصل الدين عن الدولة[١] ، فالدولة الإسلامية تقوم على أسس تتشابك فيها الدولة بالدين.

وبرغم ذلك؛ فإننا نستطيع أن نقيم حداً مميزاً بوضوح ، بين نظم الدولة السياسية التى ترتكز على أسس دينية ، وبين النظم الدينية الخالصة التى تقوم على أسس العقيدة المذهبية والفلسفة الدينية ذاتها ، وبمعنى آخر ، نستطيع أن نفصل بين نظم الدولة والمذهب .

فنظم الدولة الفاطمية تتشابه مع نظم الدول الأخرى الثيوقراطية (الدينية) الإسلامية ، فى العصور الوسطى ، فالعقيدة الفاطمية مثل العقيدة السنية ، كانت مزيجاً من عناصر دينية وتشريعية . ولما كانت الدولة الفاطمية شيعية أصبحت مذهبية ، تغلبت فيها الصفة الدينية على كل مظاهر الحياة ، وصبغت كل نظمها من الخليفة أو الإمام ، حتى أقل كاتب فيها . فكانت العقيدة الدينية الفاطمية فى مصر ، كما كانت سابقاً فى المغرب ، الأساس الذى تقوم عليه الدولة ، فكل تنظيم سياسى فى الدولة ما هو إلا انعكاس لروح العقيدة الفاطمية نفسها . وحقاً، لم تعرف مصر منذ عهد الفراعين ، دولة دينية شبيهة بالدولة الفاطمية .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان من الممكن الفصل بين النظم السياسية التى لا تخلص من الدين والدين نفسه ، وإن كانت كلمة « دولة[٢] » ، التى تملأ سجلات ديوان الإنشاء الفاطمى، وتكون جزءاً من ألقاب كبار الموظفين[٣]، لم تعن يومئذ المعنى الذى نلصقه بها الآن ؛ ففى العصور الوسطى كانت الدولة ترتكز على أساس دينى وسياسى .

---

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٩٣ .

(٢) السجلات المستنصرية : (٢٧) ؛ (٣٤) ؛ (٥٣) (٦٣) ، الخ .

(٣) نفسه ؛ انظر .

O'Leary : A short history of the Fatimid Khalifate, p. 124;
De Sacy : Duruzes, p. CCIXXXV. :

فغرضنا إذاً من هذا البحث ، هو دراسة النظم السياسية والرسوم الفاطمية فى مصر ، وليست العقيدة الدينية الفاطمية ، ولكى نبرز المعالم المختلفة لنظم الدولة فى وضعها الطبيعى . رتبناها على كتابين .

الكتاب الأول،ويشمل الفصل الأول فيه نظام الإمامة الفاطمية فى مصر، ففى الدولة الفاطمية — كما فى غيرها من الدول الإسلامية — كانت الإمامة أو الخلافة هى أساس كل النظم السياسية الدينية .

ونعرض بعد ذلك فى الفصل الثانى نظام الوزارة ، وهو أيضاً من النظم التى تميز الدولة الفاطمية ؛ فقد كان الوزير يأتى فى المحل الثانى بعد الخليفة ؛ فى التنظيم السياسى فى الدولة الفاطمية .

وفى الفصل الثالث، نتكلم عن الإدارة ، وسندرس منها: ديوان الإنشاء، والنظم المالية ، والإدارة المحلية للولايات . وكانت وظائف الإدارة عامة ، تكون جزءاً من وظائف أرباب الأقلام ؛ حيث أن الدولة الفاطمية ، كغيرها من الدول الإسلامية ، تميز بين مراتب السيف والقلم .

وفى الفصل الرابع، سنقوم بدراسة الوظائف الدينية،وهى أيضاً من وظائف أرباب الأقلام ، وتشمل النظم القضائية ونظام الدعوة ، فالأولى ترتكز على التشريع ، والثانية على المذهب .

وفى الفصل الخامس ، نتعرض للنظم الحربية : جيش وبحرية ؛ وهى تتميز عن مراتب القلم : الإدارية والدينية ، وهذا التمييز لم يهمله أى كاتب فى العصور الوسطى تعرض لدراسة نظم الدول الإسلامية .

أما الكتاب الثانى،فلكى نكمل معارفنا عن النظم السياسية للدولة الفاطمية، فإنه من الضرورى بعد عرض هذه النظم،التعرض لنظام القصر الفاطمى ورسومه. فسنعرض فى الفصل الأول إذاً لنظام القصر الخلافى .

وفى الفصل الثانى،بعد ذلك،سنتكلم عن الرسوم فى هذا القصر .

نقد المصادر والمراجع

وسنوزع المادة التاريخية التى فى متناولنا ، على الموضوعات المختلفة التى سنعالجها فى كل فصل من الكتابين .

الإمامة :

فقد جعل مؤلفو الشيعة مكاناً خاصاً فى كتبهم لموضوع الإمامة أو الخلافة الفاطمية؛ وهى كتب عديدة فى علم الدين ، والفقه ، والأدب ، والفلسفة ، والدعوة . ومن حسن حظنا حقاً ؛ أننا نملك عيون المؤلفات الموثوق بها ، والتى ألفها كبار الكتّاب الفاطميين فى الإمامة . فهذا النظام الجوهرى فى الدولة الفاطمية تناولته ووضحته وثائق أغلبها مخطوطة ، لم تر الضوء على يد البُحاث إلى الآن .

ومعظم مصادر الدرجة الأولى ؛ من تأليف أشهر فقيه من فقهاء العقيدة الفاطمية ، القاضى النعمان بن حيون[1] ، المتوفى ٣٦٣ / ٩٧٤ . فقد كان هذا القاضى ذا صلة شديدة بكل خلفاء الفاطميين فى المغرب ، من الخليفة عبيد الله (٢٩٧ — ٣٢٢ / ٩٠٩ — ٩٣٤) ، إلى الخليفة المعز لدين الله (٣٤١ — ٣٦٥ / ٩٥٢ — ٩٧٥) ، الذى فتح مصر . فجعل هذا الخليفة النعمان كبير قضاته وحجته أى كبير دعاته ؛ وهو كاتب ضليع ، ألف كتباً عديدة فى كل أنواع العلوم[2] : فألف فى الوعظ ، والتاريخ ، والأخبار ، والسيّر ، والعقائد ، والحقائق والتأويل ، والفقه . ويروى ابن خلكان[3] فقرة عن هذا الكاتب مأخوذة

---

(١) ابن خلكان ، وفيات ، ٢ ص ٢١٩ ؛ انظر . كامل حسين ، فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٤٢ — ٥٤ ؛ Fyzee : Kadi an-Nu 'mân J. R. A. S. 1934, p 1—32; :The Ismaʿili law and its founder, Isl. Cult. vol. IX, no 1 Jan. 1935, p. 107 et suiv.

(٢) أنظر Ivanow : A Guide to Ismaili literature, p. 34.

(٣) وفيات ، ٢ ص ٢٤٦ .

من ابن زولاق مؤرخ الفاطميين،فيقول : إن النعمان «من أهل الفضل والعلم». ولا ريب ، فقد ترك النعمان آلاف الأوراق فى العلوم الفاطمية ، وبلغ ماألفه ٤٤ كتاباً ، معظمها لم يصل إلينا ؛ ومع ذلك فقد بقى من تأليفه كتب ذات قيمة عظيمة.

ومما يزيد فى أهمية كتبه ،أنها أُلفت بناء على أمر من الخليفة المعز ، الذى راجعها بنفسه بعناية كبيرة . ومعنى هذا أن الخليفة المعز يُعتبر مشاركاً للنعمان فى تأليف هذه الكتب ؛ فهو الذى شجعه على البحث فى أصول العقيدة الفاطمية، وأخرج إليه كتب أجداده[١] .

فنذكر من بين مؤلفات النعمان التى تلقى النور عل نظام الإمامة الفاطمية أربعة : منها اثنان مازالا خطيين .

الكتاب الأول : دعائم الإسلام[٢] ، تحقيق آصف بن على أصغر فيضى ، القاهرة ١٩٥١ ، وهو نص معاصر مملوء بالشعائر الفاطمية الخاصة بالعقيدة والتشريع ، ويتكون من جزءين[٣] . فالأول يبحث فى حق على وسلالته فى الإمامة ، مع الاستشهاد بالقرآن والحديث ، وحتى المنطق ، وعرض آراء الفرق المخاصمة للفاطميين . وربما كان أخص ما يمتاز به هذا الكتاب ، أننا هنا بعيدين عن الغموض الشيعى . فنستطيع أن نستخلص النقاط المهمة فى نظام الإمامة مثل : (النص) أو تولية الإمام لخلفه حيث أن أصل

---

(١) النعمان ، مجالس ، ٣ورقة ١١٠ ؛ ٢٨٨ .

(٢) العنوان الكامل لهذا المؤلف هو : دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليهم أفضل السلام . أنظر .

Brockelmann:Gesch der Litt. Suppl. Leiden, 1934, I.p. 334—25;
Ivanow : A Creed of the Fatimids, p. 6—10; Guide, p 37 N 64;
Fyzee : The Ismaïli Law of wills. J R.A.S., 1934, p. 20—25

(٣) المخطوطة المصورة بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ب ١٩٦٥٥ ، لاتشتمل إلا على الجزء الاول. أنظر Fyzee:Kadi an-Nu' mân J.R.A.S. Jan, 1934, p 20.

النص يرجع إلى آدم ؛ (والوَلاية) أى سلطة الإمام ؛ وعصمة الإمام وسلطته الروحية . أما الجزء الثانى ، فهو يشتمل بخاصة على المصادر التشريعية للقانون الفاطمى، وسنتكلم عنه عند الكلام على مصادر القانون الشيعى.

الكتاب الثانى : شرح الأخبار[١]، عبارة عن مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٠٦٢ح ، ويشتمل على ١٩٣ ورقة . ويقول ابن النعمان إنه مختصر لكتاب لم يصل إلينا عنوانه : « مناقب بنى هاشم ومثالب بنى أمية » . وهو يتكون من ستة عشر فصلاً وينصب على ذكر تفاصيل وصاية النبى لعلىّ فى خلافة المسلمين ، وسنى من حياة علىّ وفضائله ، ومقتل عثمان . فأهمية هذا الكتاب ـ الذى استخلصنا منه حقائق مفيدة ـ راجعة قبل كل شىء إلى تفاصيله الوافية عن أصل الإمامة الفاطمية ، أو بمعنى آخر ، عن مبدأ الوصاية أى تولية النبى لعلىّ فى خلافة المسلمين من بعده . ويصحب هذا النص ترجمة للنعمان مأخوذة — على ما يظهر — عن كتاب الوفيات لابن خلكان ،حيث أن الناسخ لا يذكر لنا اسمه .

الكتاب الثالث: المجالس والمسايرات[٢]،وهو مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠ ، ويشتمل على ثلاثة أجزاء تتكون بالتوالى من ٣٧١ ؛ ٣٧٣ ؛ ٦١٤ صفحة . ويحدثنا النعمان عن السبب الذى من أجله ألف هذا الكتاب : فقد أراد أن يجمع فى مكان واحد أقوال الأئمة الفاطميين المعاصرين له ، وبخاصة أقوال المعز ، التى كانت تُذكر فى المجالس الفاطمية ، وهى مجالس الدعوة لشرح أصول العقيدة .وهذا النص مكتوب بعناية كبيرة ، حيث يجمع فيه

---

(١) العنوان الكامل : شرح الأخبار فى فضائل النبى المختار وآله المصطفين الأخيار من الأئمة الأطهار عليهم السلام . أنظر .

Brock : Suppl, I, p.325 ; Ivanow : Guide, p. 38 (68).

(٢) العنوان الكامل : المجالس والمسايرات والمواقف والتوقيعات عن الإمام المعز لدين الله وعن آبائه صلوات الله عليهم . أنظر .

Brock : Suppl, I, p. 325 ; Ivanow : Guide, p. 40 (100).

المؤلف أقوال الأئمة دون أدنى تحريف . فيجب ألا ننسى – فى الواقع – أن أقوال الأئمة كألفاظ القرآن فى الجزالة والفخامة والبيان يعجز أن يحكيها البشر. فتمدنا المجالس بمعلومات غزيرة عن نظام الإمامة الفاطمية ، مع حفظها من كل مغالاة أو مبالغة ؛ فالإمامة الفاطمية تتشابه مع غيرها من النظم السياسية ،حيث أن الصفة الروحية للإمام لم تكن خارقة، كما تحاول إبرازها المصادر الأخرى ، التى ألفها السنيون ، أعداء الفواطم . فى هذه المجالس ، كثيراً ما اعترض المعز على الدعاة الذين تغالوا فى الكلام عن صفاته . ثم إن الكتاب يحمل فى ثناياه سلطة الأئمة الدينية والروحية ، والعلم اللدنى الذى يتوارثه إمام عن إمام . وبجانب كل هذا ، نجد فى الكتاب معلومات ليست ذات قيمة كبرى عن دور القاضى وواجباته ، وعن الأسطول الفاطمى وغاراته .

الكتاب الرابع : كتاب الهمة[٢] ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٨ ، وهو جزءان فى كتاب واحد . الأول يحوى مادة غزيرة –على الأخص – عن نظام (الولاية) أو سلطة الإمام على رعاياه ؛ وهو من أسس الإمامة الفاطمية فى مصر . والثانى خاص بالرسوم المتبعة فى حضرة الإمام ، وسنتكلم عنه عند الكلام على رسوم الفاطميين .

وثمت بجانب هذه المؤلفات الأربعة الكبيرة للنعمان ، نملك مصادر أخرى معاصرة وذات قيمة كبرى تفيدنا فى البحث عن نظام الإمامة فى العصر الفاطمى وها هى نظرة سريعة تحليلية .

١ – سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله إلى دعاة اليمن وغيرهم[٢] ، وهى مخطوطة بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن ، برقم ٢٧١٥٥ ،

(١) العنوان الكامل : كتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة . أنظر . Ivanow: Guide, p. 39 (85). هذا الكتاب لم يرد ذكره فى Brock :

(٢) أنظر . Hamdani ; The letters of Mustansir. B. S. O. S., 7, 1933 —1935, p. 306—312

وتشتمل على ١٧٥ ورقة، وقد قمت بنفسي على تحقيقها[١]. فهذه المخطوطة تشتمل على ست وستين سجلاً صادراً عن ديوان الإنشاء الفاطمى ، إلى صليحيي اليمن فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤)، وأوائل حكم الخليفة المستعلى (٤٨٧ — ٤٩٥ / ١٠٩٤ — ١١٠١). فتسمح لنا التفصيلات الواردة فيها ، بالتعرف على ألقاب الخلفاء ، وعلى التقاليد المتبعة فى مراسلاتهم. وفوق ذلك؛ فإن هذه المخطوطة تمدنا بمعلومات ثمينة عن طبيعة (النص) ؛ وتساعدنا على إلقاء نظرة جامعة على تاريخ سلطة الإمام الدينية والروحية . وفى الجملة هذه السجلات ذات فائدة جلى فى الناحية الأدبية ؛ كما هى فى الناحية التاريخية.

٢ — « الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية »[٢] ، تحقيق وتقديم آصف بن على فيضى (أنظر . Isl. Res. Ass. Series No. 7. Bombay, 1938.) ؛ تشتمل على رسالتين صادرتين عن ديوان الإنشاء فى عهد الخليفة الفاطمى العاشر، الآمر بالله (٤٩٥ — ٥٢٤ / ١١٠١-١١٣٠). وهاتان الرسالتان — من كتب الدعوة — ترميان إلى نقض أحقية نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر فى الإمامة ، وتميلان إلى تأييد سلطة الإمام المستعلى ، الابن الأصغر ، ووالد الآمر. فنستطيع أن نستخلص من الرسالتين معلومات ضافية فى غاية الأهمية عن تولية الإمام لخلفه ، وعن السلطة الروحية والدينية للأئمة ؛ ومن ناحية أخرى، فإن الرسالتين تبرزان العلم الإلهى الذى يتوارثه الإمام عن سلفه عن طريق النص ؛ ميزة خاصة بالأئمة.

٣ — « تاج العقائد ومعدن الفوائد»، ألفه سيدنا على بن محمد بن الوليد (ت ٦١٢ / ١٢١٥) ، وترجمه إلى الإنجليزية Ivanow ، تحت عنوان :

(١) تقديم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ .

« A Creed of the Fatimids. Bombay, 1936 » . ويعتبر هذا الكتاب مصدراً من الدرجة الأولى ؛ فقد أُلف خصيصاً لإصلاح الأغلاط التى ارتكبها المؤلفون فى كتاباتهم عن الإمامة ، وعن العقيدة الفاطمية . فهو يمدنا بمعلومات صحيحة عن أسس الإمامة ، وعن وصاية علىّ وحق خلفائه فى الخلافة ، وعن سلطة الإمام الدينية ، وأخيراً عن نظام البيعة .

وبجانب هذه المصادر الرئيسية، لدينا أخرى تأتى فى الدرجة الثانية ، وإن كانت أيضاً ثمينة فى دراستنا لنظام الإمامة .

فنستعين أولاً بكتب الدعوة الفاطمية التى ألفها الدعاة الفاطميون أنفسهم، والتى تظهر أهميتها فى الدراسة الدقيقة لطبيعة الإمام الفاطمى الروحية والدينية .

فنذكر الكتاب المعنون: « بالمجالس المستنصرية »[1]، تحقيق كامل حسين، الذى قد يكون من تأليف كبير دعاة الخليفة المستنصرية «المؤيد فى الدين الشيرازى» (ت ٤٧٠ / ١٠٧٨)[2] .

ثم نذكر كتاب: « السيرة المؤيدية »[3] ، من تحقيق كامل حسين أيضاً ، وهو من كتب السير العظيمة المقدار .

وفوق ذلك نجد معلومات قيمة فى المؤلفات الجليلة التى خلفها لنا ناصر خسرو ، الذى وفد على الخلافة الفاطمية بين ٤٣٧ / ١٠٤٥ و ٤٤٤ / ١٠٥٢ ،

---

(١) أنظر . Ivanow: Guide, p 48 (155)

(٢) المجالس المستنصرية ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة ، ص ١١ .

(٣) أنظر . Ivanow: Guide, p 48 (154) ; Brock: Suppl, I, p 326.
Hamdânî : The history of the Ismaili Da ' wat and its literature. J.R.A.S. 1932, p 26—36.

والتى سنتكلم عنها عند الكلام على مصادر نظام الدعوة، مثل: خوان الإخوان[١]؛ ووجه الدين[٢]؛ وزاد المسافرين[٣]. وهذه الكتب الثلاثة نجدها مضمنة فى كتاب الخشّاب، بعنوان: «Nasiri Husrau. Le Caire, 1946.».

ويجدر بنا أن نفسح هنا فى مصادرنا — لتكملة معلوماتنا عن صفات الإمام الفاطمى — مكاناً لدواوين الشعر؛ فقد تركت العقيدة الفاطمية فى نفوس الشعراء وقلوبهم أثراً كبيراً وعميقاً. فتعرف من الشعر الفاطمى، دواوين خمسة شعراء كبار، وهى:

١ — ديوان تميم بن المعز لدين الله، ط. دار الكتب، القاهرة ١٩٥٧.

٢ — ديوان ابن هانىء (ت ٣٦٢/٩٧٣)، تحقيق زاهد على، بيروت ١٣٥٦ه[٤].

٣ — ديوان ناصر خسرو، وهو نص فارسى، ذكرت أجزاء كثيرة منه فى كتاب الخشّاب الذى ذكرناه عن ناصر خسرو[٥].

٤ — ديوان المؤيد فى الدين، تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩[٦].

٥ — ديوان الشاعر عمارة (ت ٥٦٩/ ١١٧٤)، تحقيق Derenbourg، باريس ١٨٩٩. وقد عاصر عمارة آخر خلفاء الدولة الفاطمية؛ وهو فى ديوانه يتكلم — مثل غيره من شعراء الفاطميين — عن الصفة الروحية للإمام.

ولكى يزداد بحثنا عن الإمامة دقة، لا مناص لنا من أن نقيم وزناً للمصادر الكلامية التى كتبها على الأخص السنيون أعداء الفاطميين؛ فقد أسهب علماء الدين المسلمون عن الإمامة فى كتاباتهم.

(١) Ivanow : Guide, p 93 (594).

(٢) نفسه، ص ٩١ (٥٩١).

(٣) نفسه، ص ٩٢ (٥٩١).

(٤) ابن خلكان: وفيات، ٢ ص ٥ — ٧؛ انظر: Kremer : Ueber den, Schi'itischen Dichter. Ibn Hani' Z D.M.G ,24, 1870, p. 481—494.

(٥) Ivanow : Guide, p. 91. (587).

(٦) نفسه، ص ٤٨ (١٥٦)؛ Brock : Suppl, 1. p. 326.

فنجد الغزالى (ت ٥٠٥/١١١٢) : فى فضائح الباطنية ، تحقيق Goldziher، ينقد مبدأ النص عند الخلفاء الفاطميين فى مصر ، ولكن بأقوال ساخرة . كذلك الماوردى (ت ٤٥٠/١٠٥٨) : فى الأحكام السلطانية، يعطينا فكرة عامة عن نظام الخلافة بمعناها الواسع الخاص بخلافة بغداد السنية . وفى المقدمة، وهى دائرة معارف واسعة، نجد ابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦)، المفكر الكبير، لا يُبدى مع ذلك ، غير ملاحظات عابرة عن الخلافة الفاطمية .

من كل الذى أوردناه من المصادر الأصلية المتعددة والمختلفة ، يتبيّن لنا أهمية نظام الإمامة الفاطمية فى بناء الدولة .

الوزارة :

ليس لدينا عن الوزارة مصدر واحد شامل ، فنحن مضطرون فى تحقيق معلوماتنا عنها ، للرجوع إلى مصادر مختلفة ومتنوعة .

فقبل كل شىء ، لا غنى لنا عن أن نستعين بسجل فى غاية الأهمية خاص بتولية الوزير الجرجرائى فى ٤١٨/١٠٢٧ — أحد الوزراء فى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر (٤١١ — ٤٤٧/١٠٢٠ — ١٠٣٥) — وهو موجود بنصه الكامل فى كتاب ابن القلانسى (ت ٥٥٥/١١٦٠)، المعنون: ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨٠ — ٨٣ . فنجد فيه التسميات المختلفة للوزارة ، وألقاب الوزير وطريقة إختياره ، وسلطاته . وهذا السجل عينه — مع أنه فى غاية الطرافة — لا يختص إلا بوزير التنفيذ ، أحد أنواع الوزراء فى عهد الفاطميين .

ومن حسن الحظ أننا نملك أيضاً حصيلة تاريخية من الدرجة الأولى عن وزير

التفويض فى سجلات الإمام المستنصر إلى صليحيّ اليمن؛ وهى المخطوطة التى تحدثنا عنها . فنستطيع أن نستخلص من هذه السجلات حفلة التولية، وألقاب الوزراء، وسلطاتهم الواسعة، حيث يظهر لنا فيها — على الأخص — اسما وزيرين للتفويض هما : بدر وابنه الأفضل .

وكذلك نجد سجلات تولية الوزير شيركوه، والوزير صلاح الدين فى كتاب القلقشندى، جـ ١٠ ص ٨٠ — ٩٠؛ ٩١ - ٩٨، فنلاحظ فيهما تطور سلطة وزير التفويض السنى، المعيّن من قبل الخلافة الشيعية .

وعلاوة على هذه السجلات، وهى مصادر من الدرجة الأولى، نعتمد على المصادر الأصلية التى تتناول تراجم وزراء الدولة الفاطمية . فنطلع على كتاب ابن الصيرفى (ت٥٤٢/١١٤٧) : الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤ . وهو كتاب قيم، ومما يزيد من أهميته أن ابن الصيرفى كان معاصراً للفاطميين، وعمل بدواوينهم من عهد الخليفة العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦/ ٩٧٥ — ٩٩٦) حتى الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤/ ١١٠١ — ١١٣٠) . فهو يتتبع فى هذا الكتاب، تراجم الوزراء إلى عهد الآمر، ويذكر لنا بدقة تطور رتبة الوزير وألقابه، كما يروى أيضاً طريقة إختياره .

وكتاب آخر يعرض لسيرة الوزراء فى آخر عهد الدولة، ألفه الشاعر عمارة اليمنى (ت٥٦٩/ ١١٧٤)، وعنونه: النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية، تحقيق Derenbourg، باريس ١٨٩٧ . ففى هذا الكتاب يرسم لنا عمارة فى قصائده صورة شائقة لحياة وزراء الفاطميين ونفوذهم، وقد زار عمارة هذا مصر فى آخر حكم الدولة الفاطمية سنة ٥٥٠/١١٥٥ .

كذلك ترك لنا المقريزى فى كتابه: الخطط، طبعة بولاق، ١ ص ٤٣٨ — ٤٤٣،

فقرة قصيرة هامة عن نظام الوزارة الفاطمية ونفوذها وألقابها وزيها .

كما نجد فقرة أخرى أوردها القلقشندى فى كتابه : صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ، ٣ ص ٤٨٩ — ٤٩٠ ، وإن كان هذا المصدر تنقصه التفاصيل الدقيقة التى أوردها المقريزى .

ومن الجلى أن نستعين فى بحثنا عن الوزارة الفاطمية بكتب الأخبار الخاصة بتاريخ الدولة الفاطمية، مثل : ابن ميسر : تاريخ مصر؛ وابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق؛ ويحيى الأنطاكى: تاريخ؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان؛ وابن الأثير: الكامل؛ وابن تغرى بردى: النجوم؛ والسيوطى: تاريخ الخلفاء، وحسن المحاضرة ؛ وأبو الفداء : المختصر ؛ وأخيراً أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين.

ومن ناحية أخرى علينا أيضاً أن نهتم بالكتب الكلامية ، التى تمدنا بمعلومات عن نظام الوزارة ، ، وتهيىء لنا فرصة المقارنة والنقد .

فمن هذه الكتب : كتابا الماوردى : قوانين الوزارة وسياسة الملك ، والأحكام السلطانية ؛ وكتاب ابن خلدون : المقدمة ؛ وكتاب ابن الطقطقى : الفخرى . وهذا الأخير يقدم إلينا تاريخ الخلافة والوزارة منذ نشأتها حتى سقوط الخلافة العباسية .

وجدير بالذكر هنا ، أن نتكلم على مالدينا من نصوص أثرية خاصة بوزراء الفاطميين .

فلدينا ما كتبه Sauvaget عن نقش بدر (ت ٤٨٧/ ١٠٩٤) وزير الخليفة المستنصر : «Inscription de Badr al-Jamâli» ، وهو نص أثرى فى غاية الأهمية . (أنظر . Ext. de la Revue Syrie 192).

وغير هذا النص ، لدينا نصوص أخـــرى لنقوش كثيرة فاطمية جمعها : Wiet و Combe و Sauvaget في موسوعتهم : Le Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. (أنظر Inst. Franc. d'Arch. Le Caire, 1931.)

بقي علينا أن نذكر مقالة هامة من تأليف Goïtein : The origin of the vizierate and its true character (أنظر Isl. Cult. July and October, 1942.)

الإدارة :

عمدتنا في دراسة النظم الإدارية بصفة عامة مصدران أساسيان هما القلقشندي (ت ٨٢١/١٤١٨) : صبح ؛ والمقريزي (ت ٨٤٥/١٤٤٢) : الخطط ؛ فقد اعتمد المؤلفان على مقتطفات من أنفس المصادر التاريخية ، التي عاصرت العهد الفاطمي الزاهر[1]. ومما يزيد من أهمية هذين المصدرين أن كلا من المؤرخين كان

(١) نذكر من المؤلفات التي رجع إليها المؤلفان ، ما كتبه ابن زولاق «الحسن بن ابراهيم» (ت ٣٨٧/٩٩٧) ، ومعظمها قد ضاع لسوء الحظ . فكل ما نعرفه من مؤلفاته ، شذرات غير ذات قيمة ابحثنا ، مأخوذة من كتاب : «فضائل مصر وأخبارها وخواصها» ، موجودة في المكتبة الأهلية بباريس ، برقم ٢٠٦٩ ، أو في مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم ٣٠٩١ تاريخ . بيد أن أهمية مؤلفاته تظهر فيما نقله منه المؤرخون المتأخرون كالمقريزي والكندي ، من حصيلة تاريخية ثمينة . ولنذكر أيضاً المسبحي : «الأمير المختار عز الملك محمد» (ت ٤٢٠/١٠٢٩) ، الذي ينسب إليه ابن خلكان تأليف كتاب : «أخبار مصر» ، في ١٣٫٠٠٠ ورقة . (أنظر . وفيات ، ١ ص ٧٢٦) . وقد اقتطف المقريزي ــ على الأخص ــ كثيراً من فقرات هذا الكتاب . وكذلك مازال لدينا من المسبحي مقالة قصيرة عن حكم الخليفة الظاهر ، نشرها Becker في Beiträge . وعلى العكس ، فإننا نملك كتاب القضاعي : أبي عبدالله (ت ٤٥٤/١٠٦٢) : «عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف» ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٧٧٩ تاريخ . وإن كنا لا نثق في نسبته إليه ، وذلك لأن هذا المخطوط يستعرض حوادثاً محشودة بدون نظام أو ترتيب معقول ، حتى عصر المماليك . وفوق ذلك ، فإن المعلومات الوارد فيه انعدمت لها قيمة ما ينقله المقريزي عن القضاعي نفسه .

من كبار الموظفين فى القرن التاسع الهجرى ، فكان كلاهما وثيق الصلة بالنظام الإدارى ، فنقلا إلينا — بمهارة معجزة — ملاحظات قيمة عن الإدارة الفاطمية ودواوينها .

وموسوعة ثالثة هامة جداً ، لها قيمة تاريخية مساوية لقيمة « صبح » و «الخطط » ، ألفها النويرى (ت ١٣٣٢/٧٣٢) بعنوان: « نهاية الأرب فى فنون الأدب »[1] ، ونشرتها دار الكتب المصرية ، من حـ ١ إلى ١٢ ؛ وقد بقيت الأجزاء الأخرى نسخاً خطية بمكتبة هذه الدار، برقم ٥٤٩ ـ معارف عامة.

الإنشاء :

لدينا مصدر قيم يعرض لديوان الإنشاء فى مصر فى العصر الفاطمى ، من تأليف ابن الصيرفى (ت ١١٤٧/٥٤٢) بعنوان: قانون ديوان الرسائل، تحقيق على بهجت ، وترجمة Massé ، وهو يعد من أقدم الوثائق العربية التى نعرفها عن تاريخ ديوان الإنشاء فى مصر ؛ ومما يزيد أهميته أن المؤلف نفسه عمل كرئيس لهذا الديوان فى عهد الفاطميين .

ثم نذكر القلقشندى الذى اقتبس كثيراً من ابن الصيرفى فى صبح، ١ ص ١٣٠ — ١٣٩ ؛ والمقريزى الذى أورد فى الخطط، ١ ص ٤٠٢ ، معلومات ذات فائدة كبيرة إلا أنها مختصرة ؛ وابن مماتى (ت ١٢٠٩/٦٠٦)، الذى تعرض فى قوانين الدواوين لديوان الإنشاء بصفة عامة .

ونذكر أخيراً الكتاب الألمانى الطريف : Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Ägypten ، وهـــو من تأليف Björkman

---

(١) أنظر . Brock : Suppl. 2, p. 173.

المالية :

نستند فى دراسة النظام المالى إلى كتابى : المقريزى والقلقشندى؛ وهما المصدران الكبيران فى هذا الصدد . فيصف لنا المقريزى فى «الخطط» دواوين المالية المختلفة ، وأنواع الضرائب ، ويضمّن كتابه ثبتاً مفصلاً عن الضريبة المسماة « مكس » . ولكن الجدول الخاص بهذه الضريبة يبدو أكثر وضوحاً فى ترجمة: Bouriant : « Description Topographique et Historique de l'Egypte. p. 298 et suiv » .أما ما أورده القلقشندى فى صبح ٣ ص ٤٩٣ — ٤٩٦ ،فيشمل على الأخص بعض الدقائق الخاصة بالحياة المالية.

ونستند كذلك إلى كتاب أبى صالح : « الكنائس والأديرة » تحقيق وترجمة Evetts .فهذا الكتاب ألف حوالى ٥٦٨/١١٧٢، ويحتوى على جدول فى غاية الأهمية ، عن ضريبة الخراج فى عهد الخليفة المستنصر . كما يوضح لنا أبو يوسف الضريبة الأرضية فى « كتاب الخراج » .

على أننا يجب أن نذكر بعض الكتب الحديثة التى تناولت النظام المالى فى عهد الفاطميين، مثل: مذكرات الأمير طوسون عن: « مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » ؛ وبحث Michel Bernard : « L'organisation de l'Egypte sous les sultans mamelouks » ؛وكتاب Van Berchem : « La propriété territoriale et l'impôt foncier » ؛ ومقالة Becker عن « L'Egypte » فى دائرة المعارف الإسلامية ؛ وأخيراً كتاب راشد البراوى : « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » .

النقد :

عن موضوع النقود ؛ نطلع على كتاب المقريزى : النقود الإسلامية، الذى نشره أنستاس مارى معما كتبه البلاذرى وابن خلدون والقلقشندى عن النقود فى كتابه الثمين : النقود العربية وعلم النميات[1]. وكتاب المقريزى هذا يشتمل على معلومات ضافية عن النقود فى الفترة السابقة على الإسلام ، وفى الدول الإسلامية على الأخص فى مصر حتى عصره .

. وقد ترجم De Sacy هذا الكتاب تحت عنوان : « Les monnaies musulmanes » ، بعد أن حذف منه الجزء الخاص بنقود مصر ويظهر أن أنستاس مارى اعتمد على نسخة من كتاب النقود للمقريزى أكثر تفصيلاً من تلك التى اعتمد عليها De Sacy .

ولنذكر أيضاً خاصاً بالنقود جدول Lavoix : « Catalogue des monnaies musulmanes » ، فى ثلاثة أجزاء، أهمها الجزء الثالث، وهو يشتمل على نقود خلفاء الفاطميين .

كما نذكر كتاب Sauvaire : « Matériaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Métrologie musulmanes » ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : نقود ، موازين ، مقاييس ؛ ويسمح لنا بنظرة مدققة عن تطور العملة .

وكما نذكر مقالة طريفة كتبها Gateau : «Sur un dinar fatimide» فى مجلة Hesperis الصادرة فى ١٩٤٥ ص٦٧ — ٧٢ ، يشرح لنا فيها النص : بلغت حجة الله، المطبوعة فى دينار سك فى سنة ٢٩٧ هـ .

(١) توجد طبعة أخرى لكتاب المقريزى باسم : شذور العقود فى ذكر النقود ، النجف ١٣٥٦هـ .

وأخيراً نذكر مقالتين طريفتين: فالأولى هي « Influence: Massignon de l' Islam au Moyen Age sur la fondation et l' essor des banques juives. » (أنظر. Bull. d'Et. Or. Paris, 1931)؛ والثانية من « The origin of Banking in Mediaeval Islam : A. : Fischel contribution to the economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century » (أنظر. J. R. A. S. 1933)

الولايات :

لم يصلنا عن الولايات إلا البعض القليل من المعلومات : فيورد لنا أبو صالح فى كتابه : « الكنائس » جدولاً عن التقاسيم الإدارية ؛ ويمدنا عمارة فى كتابه : « النكت » بمعلومات مفيدة — بين السطور — عن نظام الولايات وذلك عند اطنابه بالمدح فى الولاة ؛ أما القلقشندى فى صبح ٣ ص ٤٩٧—٤٩٨ ، فيأتى بنبذة شيقة للغاية عن نظام الولايات الفاطمية .

ونذكر كتب الجغرافيين العرب ، مثل : المقدسى (ت٣٨٧/٩٩٧) : أحسن التقاسيم ؛ وابن حوقل (القرن الرابع) : المسالك ؛ والادريسى (ت٥٦٠/١١٦٦) : نزهة المشتاق ؛ وابن جبير (٦١٤/١٢١٧) : رحلة . فهؤلاء قصروا وصفهم على الحالة السياسية ، وعرضوا للتقاسيم الإدارية ، وذكروا شهرة المدن من الناحية الجغرافية والاقتصادية .

وأخيراً نذكر كتاب الأمير طوسون : « جغرافية مصر » ، وهو يكمل معلوماتنا عن هذه التقاسيم ؛ ومقالة Becker : « L'Egypte » (فى دائرة المعارف الإسلامية) ؛ وفيها يشرح الكاتب النابغ بنظرته المدققة التقسيمات الإدارية لهذه البلاد .

النظم الدينية :

يعرض الفصل الرابع للنظم الدينية؛ وسنورد المصادر التى تتعلق بكل موضوع.

التشريع الفاطمى :

فمعظم النصوص الرسمية التى تعالج التشريع الفاطمى غير معروفة؛ فلعل أكثرها قد ضاع أو أنها ما زالت فى مجموعات خطية مجهولة. فقد ألف عدد كبير من رجال الدولة الفاطمية كتباً فى التشريع الجديد، نذكر منهم القاضى الفقيه على بن النعمان (ت ٣٧٤/٩٨٤)، الذى ألف مختصراً فى الشرع سماه: «الاقتصار»[١]؛ والوزير يعقوب بن كلس (ت ٣٨٠/٩٩١)، الذى كتب مختصراً فى الفقه باسم: « الرسالة الوزيرية»[٢]، وهذان المصدران فقدا ولم يصلا إلينا.

ولحسن الحظ أننا نملك أقوم مصدر هام للتشريع الفاطمى نفسه من تأليف النعمان بن حيون (ت ٣٦٣/ ٩٧٤) وعنوانه : « دعائم الإسلام»[٣]. فهذا الكتاب أخذ به كل فقهاء تلك الدولة فى مصر، ولا يزال الإسماعيلية فى الهند[٤] يستعملونه حتى وقتنا الحاضر. فهو يحتوى — كما بيّنا سابقاً — على جزئين فى عقائد الفاطميين وتشريعاتهم، فهو عبارة عن قاموس حقيقى للقانون الشيعى. فالجزء الأول منه بجانب الكلام فى العقائد يبحث فى نظام العبادات، والجزء

---

(١) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٣٤١ س ٣. حققه على بدوى وحبيب زيات، دمشق ١٩٥١.

(٢) ابن الصيرفى، إشارة، نشر عبد الله مخلص (B.I.F.A.O)، ٢٥، ١٩٢٥، ص ٣٢.

(٣) أنظر ماسبق.

(٤) Fyzee : The Ismaili law of wills, Bombay, 1933, p. 5.

الثانى يبحث فى المعاملات . وقد وصف لنا الكاتب العبادات الدينية بتفصيل دقيق ، فيمدنا بمعلومات ضافية عن : « الطهارة » و « الصلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الحج » وأخيراً « الجهاد » . وقد نشر فيضى هذا الكتاب ؛ كما نقل إلينا أيضاً فى كتابه : « The Ismaili law of wills » كتاب الوصايا الوارد فى الجزء الثانى . وفى الواقع إن كتاب دعائم الإسلام هام جداً فى الناحية القانونية ، فهو يشرح أصول الفقه وفروعه .

ولكى يزداد فهمنا للتشريع الفاطمى على وجهه الصحيح ، علينا أن نقارنه بالتشريعات الأخرى ، وبخاصة تشريعات المذاهب الفقهية سنية ، أو شيعية إمامية .

فنطلع على كتاب الماوردى : أحكام سلطانية ؛ وفيه يشرح المؤلف القواعد العامة للقانون المدنى فى الإسلام من الوجهة النظرية الصرفة ؛ وعلى كتاب المحقق (٦٧٦/١٢٧٧) : شرائع الاسلام ، ترجمة Querry ، وهو عبارة عن مجموعة كاملة لشرائع الفرقة الإمامية تبرز فيها الواجبات الدينية ونظام المعاملات .

والحق أنه ليس من السهل أن نذكر هنا أسماء كل فقهاء التشريع ، الذين ألفوا كتباً عديدة عن الشرائع السنية أو الشيعية ، فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

القاضى :

إن بين أيدينا مصادر من الدرجة الأولى تحتوى على أدق المعلومات عن وظيفة القاضى فى كتاب الكندى (ت ٣٥٠/٩٦١) : الولاة والقضاة ، تحقيق

Guest (أنظر. Gibb. Mém. series. 1912)[١]؛ وفى كتاب ابن حجر (ت ٨٥٣/ ١٤٤٩) : رفع الإصر عن قضاة مصر[٢]،وهو مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٠٥ تاريخ . فالأول يتقصى ترجمة القضاة حتى عصره ، وقد أكملها ابن زولاق (ت ٣٨٧/٩٩٧)،ثم ابن حجر من بعده ؛ فنجد فيها صوراً بديعة عن الحياة القضائية الفاطمية، ومادة غزيرة لبحث رتبة القاضى . أما الثانى فهو عبارة عن جدول مرتب ترتيباً أبجدياً بسيَر جميع قضاة مصر ومذاهبهم حتى عصر المؤلف ؛ فنجد فيه معلومات عديدة عن طريقة اختيار القاضى وتوليته وسلطته وألقابه. وفى نهاية المخطوطة،نقل إلينا ابن حجر عن ابن الطوير المصرى (عاش فى أوائل العصر الأيوبى)[٣] من كتابه الذى ضاع : نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين ، خواص وظيفة القاضى الفاطمى .

ومن ناحية أخرى يقدّم إلينا ابن شاهين (ت ٨٢٨/١٤٢٤) ، حفيد ابن حجر ، فى النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار مصر والقاهرة ، وهى مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ،برقم ٢١٥٢،تفاصيل مطابقة تماماً لما كتبه ابن حجر، وثبتاً قيماً بأسماء جميع قضاة مصر.

وبالإضافة إلى ما سبق،لاغنى لنا عن الاطلاع على الفقرات الرائعة الواردة فى كتاب المقريزى : الخطط ، ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ ؛ وفى كتاب القلقشندى : صبح ٣ ص ٤٨٦ — ٤٨٧ ؛ وفى كتاب السيوطى : حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ؛ حيث نجد فيه فصلاً خاصاً بقضاة مصر .

---

(١) أنظر. Guest, The Governors and judges of Egypt,:Bergstrasser Z. D, M.. G 68, 1914, p. 395—417.

(٢) أنظر. Brock : Suppl, 2, p. 67.

(٣) يظهر أن ابن الطوير عاش فى عصر الأيوبيين ، حيث أن كتابه (المقلتين) يتقصى فى الواقع أخبار الفترة الأيوبية . أنظر. Becker : Beiträge, 1, p 29—30.

وعلينا أن نستعين أيضاً بكتب الأخبار التي تتناول تاريخ العصر الفاطمي، والتي أوردنا بعض أسمائها عند الكلام عن الوزارة.

وأخيراً يجب أن نذكر بعض الكتب الحديثة مثل كتاب Gottheil : A distinguished family of fatimids cadis (an—Nu' mân) in the teanth century. » (أنظر .J.A,O.S. vol, XXVII 1906, p.217-298)؛ وكتاب Tyan : Histoire de l'organisation judiciare en pays d'Islam »؛ ومن الكاتب نفسه : Le Notarist et le régime de la preuve par écrit dans la pratique du droit Musulman

صاحب المظالم :

جل اعتمادنا خاصاً بهذا الموظف على بعض الفقرات الواردة في كتاب المقريزي : الخطط ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣؛ ٢ ص ٢٠٧ — ٢٠٨؛ وفي كتاب ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسائل. فقد كان قضاء المظالم يكون جزءاً من عمل ديوان الإنشاء.

ونستخدم لذلك أيضاً بعض الكتب النظرية؛ مثل كتاب الماوردي : أحكام؛ وكتاب ابن خلدون : المقدمة (Prolégomènes).

المحتسب :

كل المعلومات التي تتناول وظيفة مفتش الأسواق (المحتسب) الفاطمي في مصر، موجودة في بعض فقرات كتاب المقريزي : الخطط ١ ص ٤٦٣ — ٤؛

وفى سطور قليلة من كتاب القلقشندى : صبح ٣ ص ٤٨٧ .

أما الكتب التى تمدنا بمعلومات ضافية عن (الحسبة)، أو (تفتيش الأسواق)، فهى الكتب التى ألفت للمحتسب ؛ لتبين له الغش الذى قد يرتكبه التجار ، وأصحاب الحرف؛ فتعرض هذه الكتب على الأخص لطوائفهم المختلفة. ولكن لم يقع فى أيدينا أى كتاب ألف عن المحتسب فى العصر الفاطمى نفسه ، فأهم الكتب التى أُلفت كانت فى عِصر متأخر ، وعلى الأخص فى عصر الأيوبيين . فنجد كتاب الشيزرى (عبد الرحمن) (ت ٥٨٩/ ١١٩٣): نهاية الرتبة فى طلب الحسبة[١] ، تحقيق العرينى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ألف فى عهد صلاح الدين . فقد عمل الشيزرى على كتابة أربعين فصلاً ، وضع فيها نصب عينيه المسائل الخلقية الخاصة بالتجار، وأصحاب الحرف. ومهما يكن من شىء، فإننا نستنبط غير مخطئين أن الحسبة فى العصر الأيوبى بقيت فى كل خصائصها ، مشابهة للحسبة فى العصر الفاطمى ، وعلى ذلك ، فإن كتاب الشيزرى له أهمية كبيرة فى بحثنا عن نظام الحسبة الفاطمية .

وبجانب هذا الكتاب الهام، نملك أدباً غزيراً ، فيما ألف — سواء فى الشرق أم فى الغرب — يبعث نوراً جديداً يجلو معارفنا عن هذا النظام الإسلامى للحسبة . فنستعين بكتاب ابن الاخوة : معالم القربة فى أخبار الحسبة ، تحقيق Reuben Levi (أنظر Gibb. Memorial New Series vol. XII, Cambridge, 1938 ؛ وفيه يعالج المؤلف المسائل الخلقية الخاصة بالتجار وأصحاب الحرف ، فى ستين فصـــلاً ؛ وبكتاب السقطى : آداب الحسبة ، تحقيق Colin و Lévi Provençal ؛ وهو يصف لنا حياة المدن وأصحاب الحرف فى إشبيلية ، فى أوائل القرن الثانى عشر . وفضلاً عن ذلك نستند إلى ما كتبه

(١) أنظر Brock : Suppl II, 832

ابن خلدون : فى المقدمة ؛ والماوردى : فى الأحكام السلطانية ؛ وابن تيمية: فى الحسبة والإسلام ؛ والدمشقى : فى محاسن التجارة .فمن الطبيعى أن يوحى مثل هذا النظام الهام إلى كثير من المؤلفين بالكتابة عنه ؛ بحيث يصعب ايراد جميع أسماء الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع (١) .

ولنذكر بعض البحوث الحديثة من Massignon : « Enquête sur les corporations d'artisans et de commercants au Maroc. » (أنظر . R. M. M. 1924, p. 1-250) ؛ ومن Tyan : « Hist. de l'org. jud. en pays d'Islam, vol. II. » ؛ ومن Elia Qoudsi : « Notice sur les corporations de Damas. » ، تحقيق Carlo Landberg ؛ ومن De Sacy ، الذى يجمع فى مقدمة كتابه :Druzes سجلات الخليفة الحاكم ، التى تختص بالحسبة .

صاحب الشرطة

نجد معلومات عنه فيما كتبه المقريزى فى الخطط ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨ ؛ وابن خلدون فى المقدمة ؛ والماوردى فى الأحكام .

وأخيراً نعتمـــد على بعض الكتب الحديثة مثل : Bernhauer « Mémoires sur les institutions de Police chez les Arabes. » (أنظر. J.A.S. Ve Série XV; XVI, 1860—1861) ؛ و Tyan : « Hist. de l'org. jud. en pays d'Isl. 2, Paris, 1943. »

---

(١) أنظر • حاجى خليفة، كشف الظنون، لندن ١٨٣٥ – ١٨٥٨ ، الجزء الأول .

الدعوة :

من المؤسف حقاً أننا لانملك الجزء الأكبر من كتب الدعوة الفاطمية ، فلعلها مازالت موجودة فى مخطوطات مجهولة لنا ومحفوظة بعناية ؛ وإن كان أكثرها قد بدد طواعية . فمن المحقق أن النضال الدموى غالباً بين الشيعة والسنة — ككل الحروب الدينية — كان لايقف عند أتباع المذهبين فقط ، وإنما يتناول الكتب والوثائق الحاوية للعقائد والنظم . ولذلك عمل الشيعة على نقل بعض كتبهم إلى مكتباتهم البعيدة فى الهند أو فى اليمن ، وهم يحرصون عليها ويسترونها أشد الستر ، فاصبحت مجهولة تماماً لنا . وحتى بعد سقوط الدولة الفاطمية فى مصر ، أخذت الدول اللاحقة التى تولت بعدها — كالأيوبيين وكانوا أكثر تحمساً للسنة من غيرهم — تعمل على محو مظاهر الدعوة الشيعية من مصر وعلى الأخص كتبها . ومع ذلك فإننا نستحوذ على أنفس نصوص الدعوة الفاطمية وفلسفتها ، وهى مؤلفات كتبها الدعاة أنفسهم ، عن الدعوة الدينية المذهب أو مايسمى (بالحقائق) ، وهى الفلسفة التى تكون المعنى (الباطن) أو المؤول ، لما أصطلح على تسميته بالعقيدة (الظاهرة) للشيعة .

وأهم المصادر التى بين أيدينا عن هذه الدعوة وفلسفتها هى : « المجالس المستنصرية » ، تحقيق كامل حسين[1] ، وقد يكون مؤلفها المؤيد فى الدين الشيرازى (ت ٤٧٠/١٠٧٨) ، أكبر دعاة الخليفة المستنصر ، وقد يكون غيره .

ومن تأليف المؤيد أيضاً : الموسوعة التى تضم ثمانمائة مجلس والمعروفة : « بالمجالس المؤيدية » ، وهى مخطوطة بمكتبة كامل حسين الخاصة ، تشتمل على مجالس الدعوة التى ألقاها المؤيد بنفسه فى مناسبات مختلفة ، فهى تعتبر دائرة معارف ضخمة جداً وغير منظمة عن الدين الفاطمى .

---

(١) أنظر ماسبق .

ولنذكر أيضاً الكتب ذات المغزى الفلسفى التى ألفها كبير دعاة الفاطميين الفارسى ناصر خسرو (١)، وهى: خوانى إخوان؛ والديوان؛ ووجه الدين؛ وزاد المسافرين؛ وجميعها مضمّنة فيما كتبه الخشّاب عن سيرة Nâçiri Khusrau

وكذلك لا نغفل الرسائل الطريفة عن الدعوة الفاطمية، الموجودة فى مجموعات خطية بدار الكتب المصرية برقم ٣٥، ٥٤، ١٣٣ — عقائد نحل، وإن عدّها الفاطميون أنفسهم مرفوضة ومبالغاً فيها، وهى موجودة أيضاً فى نسخة خطية أخرى بالمكتبة الأهلية فى باريس، وعليها اعتمد De Sacr فى كتابيه: Druzes و Chrestomatbie . وقد ألف هذه الرسائل على ما يظهر الداعيـــة حمزة بن علىّ، الذى جاء مصر فى ٤٠٥/١٠١٤، فى أيام الحاكم (٣٨٦ — ٤١١/٩٩٦ — ١٠٢٠).

وعلى كل حال هذه الميتافيزيقية الفاطمية لا تكاد تطرق إلا تفاصيل مقتضبة عن التنظيم السياسىّ للدعوة، مع أنها تسهب فى شرح العقيدة الدينية. فالنعمان — حجة الخليفة المعزّ — حاول أن يكتب تاريخ الدعوة فى مصنفه: إفتتاح الدعوة (٢)، وهو مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٨٨ فى ٢٠٧ ورقة. ولكن ماورد فيه ليس به شىء عن تنظيم الدعوة، أو عن منصب الدعاة، وإنما هو كتاب للأخبار.

وعلى العكس فإن كتاب كبير الدعاة المؤيد فى الدين الشيرازى المعروف باسم: السيرة المؤيدية (٤)، يبعث نوراً على «نظم» الدعوة الفاطمية فى مصر. كما أنه لم يكن فى الإمكان بحث نظام الدعوة أيضاً بدون الرجوع إلى كتاب

(١) أنظر. ماسبق.

(٢) أنظر. Brock : Suppl. I, p. 716—17.

(٣) أنظر. Ivanow : Guide, p. 40 (103).: Brock : Suppl. I, p 325.

حقق فى بيروت سنة ١٩٧٠ بعناية وداد القاضى، ولم تستخدم.

(٤) نفسه، ص ٤٨ (١٥٦)؛ نفسه، ١ ص ٣٢٦.

المقريزى : الخطط ١ ص ٣٩٠—٣٩٧؛ وفيه يتحدث عن الداعى ومنصبه وألقابه ومجالسه والأماكن التى يحاضر فيها، وعن الدعوة نفسها. وكذلك نجد فى سجل أحد الدعاة فى القلقشندى: صبح ١٠، ص ٤٣٤ —٤٣٩، معلومات ضافية مفيدة. وأخيراً يعرض الغزالى فى كتابه : فضائح الباطنية ،للدعوة ونظامها،فى عهد الفاطميين .

ولنذكر أيضاً أبحاثاً هامة عن الدعوة الفاطمية من Canard :
« L'impérialisme des Fatimides et leur propagande. »
(أنظر. A. I. E. O. 1942—1947) ؛ ومن Ivanow : « The organi- zation of Fatimid Propaganda» (أنظر. J. B. B R. A. S. 1939) ؛ وأيضاً «Ismailis and Qarmatians» (أنظر. J. B. B. R. A. S. 1940) ؛
ومن كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية. وهذا الأخير يقدم إلينا معلومات قيمة عن مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها، جمعها خاصة من كتب فاطمية أصلية محفوظة فى مكتبته الخاصة .

أما عن الفصل الخامس : جيش وأسطول ، فإن معلوماتنا نادرة ومبعثرة فى مصادر مختلفة.

الجيش :

فيمدنا رحالتان من العصر الفاطمى بمعلومات دقيقة عن الجيش : الأول ناصر خسرو ، وقد زار مصر فى السنين الأولى من حكم المستنصر ، ويصف لنا بدقة فى كتابه « سفر نامه » الجيش الفاطمى أثناء الإحتفال بفتح الخليج؛ والثانى

أسامة بن منقذ، وقد زار مصر فى سنة ٥٣٩/١١٤٤، ويمدنا فى كتابه «الاعتبار»، بتفاصيل ثمينة عن كتائب الجيش الفاطمى.

وعن الأسلحة، جاءنا وصف مفصل فى كتاب المقريزى: الخطط ١ ص ٤١٧—٤١٨. وقد ترجم منه فقرات بعض المستشرقين مثل: Quatremère: «Mém. Hist et Geog. sur L'Eg.»، و Inostrantsev فى كتابه باللغة الروسية: «ركوب خلفاء الفاطميين».

وكذلك كشف لنا Cahen بنشره وترجمته كتاب لمؤلف مجهول عن الأسلحة بعنوان: «Un traite d'armurerie» (أنظر B. E. O.t, xll,. années 1947—8. p. 103—163.)؛ معلومات ثمينة عن الفن الحربى الوسيط عندالمسلمين. وقد يكون من الجائز أن هذه الأسلحة كانت عينها أسلحة الفاطميين، ذلك لأن هذا الكتاب ألف فى عهد صلاح الدين. ومما يؤيد هذا الرأى أن المؤلف يذكر اسم صانع الأسلحة: أبا الحسن الأبرقى الإسكندرانى، وأنه كان يمارس مهنته فى صنع الأسلحة أيام وزارة ضرغام فى أيام الفاطميين.

ويمكننا أن نستعين أيضاً بكتاب Schwarzlose: «Die Waffen der Alten Araber aus Ihren Dichtern dargestellt.»؛ وبكتاب Kremer: «Kultergeschichte des Orients unter den Califen.»؛ ولنذكر مقالة Rehatsek: «Notes on some old arms and instruments of war, chiefly among the Arabs.» (أنظر J. B. B. R. A. S. vol. XIV, 1880.)؛ ومقالة de Reinaud: «De l'art militaire chez les Arabs au Moyen Age.» (أنظر J. A. IV .12, 1848.)

وعن حارات الجيش الفاطمى، وصلنا وصف مسهب فى كتاب: شرح اللمعة

من أخبار المعز"لمؤلف مجهول ، وهو مخطوط بمكتبة جامعةالقاهرة برقم ٤٠٢٢ فى ٢٤ ورقة . ومن المرجح؛ أن يكون هذا المخطوط قد أُلف فى العصر المملوكى، ذلك لأن المؤلف يذكر فيه حوادث هذا العصر .

ولنذكر أيضاً فى هذا الصدد ما كتبه المقريزى فى الخطط ٢ ص ٢—٢٠، خاصاً بالحارات ؛ وهو فى نظرنا المصدر الأصلى لهذا الباب .

و كذلك نجد فى كتاب Saladin : Lane-Poole ، خريطة عن حارات الجيش الفاطمى فى القاهرة ؛ أما Ravaisse فى مقالته Essai (أنظر Mém. de la Miss Arch. Franc. au Caire t. 1. Paris. 1887.) ؛ فإنه يمدنا بشروح وافية عن طبوغرافية القاهرة .

وعن فن الحرب، ليس لدينا غير النذر اليسير مذكوراً فى السجلين (٣٥) و(٤٣) ضمن السجلات المستنصرية إلى دعاة اليمن ؛ وفى بعض ما أورده النعمان فى كتابه « عائم »، عن التماليد الحربية فى الإسلام .

وعلينا أن نستعين أيضا بكتب الأخبار التى تتناول تاريخ العصر الفاطمى، والتى أوردنا أسماءها عند الكلام عن الوزارة ، فهى تفيدنا فى هذا الصدد .

الأسطول :

له مصدران أساسيان المقريزى: الخطط٢ ص ١٨٩ —١٩٧؛ والقلقشندى: صبح ٣ص٥٢٣ —٥٢٤ .

وتستمد معلوماتنا أيضاًمن كتب الرحالين والجغرافيين فى العصور الوسطى مثل : المقدسى : أحسن التقاسيم ؛ وناصرِ خُسرو : سفرنامه ؛ والإدريسى : نزهة المُشتاق ؛ وابن جبير : رحلة .

وكذلك ترد معلومات عظيمة فيما ألفه الكتّاب الحديثون مثل : Amary : Bibliotеca arabo-sicula ؛ وعبادة : سفن الأسطول الإسلامي ؛ ومحمد ياسين الحموى : تاريخ أسطول العرب ، و Kindermann : « Schiff. im arabischen. Untersuchung über Vorkommen und Bedeutung der Teramini. » ؛ Gildemeister : « Ueber arabisches Schiffswesen. » (ترجمة من كتاب مجهول عن مراكب بحر الروم) ؛ والبارون Rosen : Basile le Bulgaroctone. (مستخرج من أخبار يحيى الأنطاكى)، وهو بالروسية .

ولنذكر أيضاً عدة مقالات قيّمة عن البحرية العربية فى مجلة .Isl. Cult أعداد : ١٥ أكتوبر ١٩٤١؛ و ١١ يناير ١٩٤٢ ، و ١٦ أبريل ١٩٤٢؛ وعن الأسطول فى اللغة والأدب والتاريخ فى مجلة « الثريا » ؛ وعن غابات مصر فى مقال Bahgat : « Les Forêts en Egypte » (أنظر Mem. de l'Inst. d'Eg. 1900) ؛ وأخيرا قاموس Dozy : Supp. I ; II. .

القصر الفاطمى :

عن القصر نرجع إلى المقريزى: الخطط ؛ والقلقشندى: صبح ؛ فقد اعتمد الكاتبان على المصادر الأصلية من العصر الفاطمى الزاهر .

وعن خزائن القصر ، اقتبس المقريزى فى الخطط ، ١ ص ٤٠٨—٤٢٥ معلوماته الغزيرة من كتب معاصرة للفاطميين ضاعت آثارها، مثل: « كتاب

وكذلك ترد معلومات عظيمة فيما ألفه الكتّاب الحديثون مثل :
Amary : Biblioteca arabo-sicula ؛ وعبادة : سفن الأسطول الإسلامى ؛
ومحمد ياسين الحموى : تاريخ أسطول العرب ، و Kindermann : Schiff •
Vorkommen und Untersuchung über im arabischen •
Bedeutung der Teramini • ؛ Gildemeister : Ueber arabisches •
Schiffswesen • (ترجمة من كتاب مجهول عن مراكب بحر الروم) ؛
والبارون Rosen : Basile le Bulgaroctone • (مستخرج من أخبار يحيى
الأنطاكى)، وهو بالروسية .

ولنذكر أيضاً عدة مقالات قيّمة عن البحرية العربية فى مجلة Isl. Cult.
أعداد : ١٥ أكتوبر ١٩٤١؛ و ١١ يناير ١٩٤٢ ، و ١٦ أبريل ١٩٤٢؛ وعن
الأسطول فى اللغة والأدب و التاريخ فى مجلة « الثريا » ؛ وعن غابات مصر فى
مقال Bahgat :
Les Forêts en Egypte • (أنظر Mem. de l'Inst. d'Eg. 1900 ؛
وأخيرا قاموس Dozy : Supp. I : II. •

العصر الفاطمى :

عن القصر نرجع إلى المقريزى : الخطط ؛ والقلقشندى : صبح ؛ فقد اعتمد
الكاتبان على المصادر الأصلية من العصر الفاطمى الزاهر .

وعن خزائن القصر ، اقتبس المقريزى فى الخطط ، ١ ص ٤٠٨—٤٢٥
معلوماته الغزيرة من كتب معاصرة للفاطميين ضاعت آثارها، مثل : « كتاب

التحف والزخائر»[١]، الذى لا يُعرف له مؤلف، ومن قائمة خزائن القصر التى بيعت فى عصر الخليفة المستنصر، ومن كتب ابن الطوير التى فُقدت .
وقد ترجم فقرات المقريزى الخاصة بهذه الخزائن Inostrantsev فى كتابه : « ركوب خلفاء الفاطميين »، و Quatremère فى كتابه : Mém. Hist. et. Geog. sur l'Eg ; و Kahle فى مقالته « Die Schätze der Fatimiden » (أنظر Z. D. M. G. 1935; Neue Folge XIV, p. 329 et suiv.)

ومن ناحية أخرى، يمدنا القلقشندى فى صبح ٣ ص ٤٧٥ — ٤٨٠، بشذرات مختصرة، ولكن دون أن يشير إلى المصادر التى استقى منها . وقد ترجم بعض ما أورده القلقشندى فى هذا الصدد الكاتب الألمانى Wusteofeld فى كتابه : Die Geographie

وعن موظفى القصر، أورد القلقشندى فى صبح ٣ ص ٤٨١ — ٤٨٦ — وهو المصدر الأساسى — أسماء وظائفهم وألقابهم، دون شرح أو تفصيل لنوع الوظيفة، كما أورد المقريزى فى الخطط جـ ١، أسماء الموظفين الفاطميين، دون أن يحاول إظهار الفروق بين كل وظيفة .

الرسوم :

عن رسوم القصر، لدينا معلومات كثيرة متنوعة وغير منتظمة؛ فقد أسهب مؤرخو مصر فى وصف الحفلات التى كان يشترك فيها الخلفاء .

وعن الملابس التى كانت تلبس فى هذه الحفلات، ليس لدينا إلا الندر

(١) نحن نجهل مؤلف هذا الكتاب . ولعل هذا الكتاب عبارة عن قائمة للتحف التى بيعت من خزائن الخلفاء، أو مجرد وصف لمحتوياتها . أنظر Inostrantsev : ركوب خلفاء الفاطميين (بالروسية)، ص ٤٦ — ٤٧ .

اليسير فى الخطط ١ ص ٤٠٩ — ٤١٤ ؛ ص ٤٧١ س ٨ وما بعده ؛ ص ٤٧٢ س ٣٠ وما بعده . وينقل المقريزى هنا عن مؤرخ اسمه ابن المأمون ، وهو ابن الوزير المعروف مأمون البطائحى (٥١٥ — ٥١٩ / ١١٢٢ — ١١٢٥) ، وزير الخليفة الآمر . ويظهر أن مركز ابن المأمون[1] مكنه من وصف ملابس الفاطميين بدقة متناهية ، حيث أن المعلومات التى استقاها المقريزى منه ، لا توجد فى أى مصدر آخر . فهو يصف لنا توزيع الملابس فى الأعياد الرسمية ، ويذكر الموظفين الذين تُعطى لهم ، ولكن بدون اسهاب .

وفوق ذلك تطلع على مقالة Les Manifectures d'étoffes : Bahgat en Egypte au Moyen Age. (أنظر. Mém de l'Inst Eg. Avril, 1903)؛ فهى تمدنا بوصف شيق لمناسج الخليفة (طراز)؛ وعلى قاموسى Dozy المعروفين: « Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes » و « Supplément » ، وبهما شرح لمعانى الكلمات الغامضة للملابس العربية .

وأخيراً ، نذكر مقالة « Material for a History of : Serjeant Islamic Textiles up to the Mongol conquest» (أنظر. A R S. Islamica vol. IX - XII. 1942 —1496; XIII—XIV.1948) ، على الأخص الصفحات الخاصة بالنسيج المصرى .

وعن شارات الخلافة ، نجد معلومات من الدرجة الأولى فيما أورده القلقشندى فى وصف الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العظام فى صبح ٣ من ص ٤٧٢ الى ٤٧٥ ، وفيما أورده المقريزى فى كتابة الخطط ، على الأخص الجزء الثانى .

(١) أنظر: Becker: Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam I, p. 23.

وفضلاً على ذلك نعتمد على المقدمة لابن خلدون ؛ وعلى السلوك للمقريزى؛ وهما يساعدان على المقارنة بين شارات الفاطميين وغيرهم فى الدول اللاحقة أو السابقة عليهم .

وعن الأعياد والرسوم الفاطمية، لدينا مادة غزيرة، أخذناها على الأخص من كتاب المقريزى : الخطط ؛ ففيه يمدنا المؤلف بوصف شامل للحفلات ، وينقل على الأخص من ابن الطوير الذى يبدو فى غاية العلم بتفاصيل الأعياد الفاطمية . وقد ترجم Griveau الجزء الذى أورده المقريزى من أعياد الأقباط (أنظر Patrologia Orientalis X p. 316 et suiv .

ويتفق وصف المقريزى هذا مع وصف مؤرخ مصرى آخر، هو ابن تغرى بردى (٨١٣—٨٧٤/١٤١١—١٤٦٩) فى النجوم الزاهرة . فهذا المؤرخ مع أنه قد تكلم عن مواكب الخلفاء الفاطميين ، إلا أنه لم يتكلم لنا عن جلوسهم .

وعلى العكس فاننا نجد وصفاً دقيقاً لمواكب الخلفاء وجلوسهم فى كتاب القلقشندى : صبح ، ٣ ص ٤٩٨ — ٥٢٢ ؛ وهو يتفق فى كل تفاصيله ، فى أحيان كثيرة ، مع ما أورده المؤرخان السابقان .

وفضلاً على هذه المصادر الثلاثة نعتمد على مصادر معاصرة ، ذات قيمة أولى فى البحث التاريخى .

أولا وقبل كل شىء، نعتمد على كتاب ناصر خسرو : سفرنامه ؛ وفيه يصف الرحالة — كشاهد عيان — حفلة فتح الخليج والوليمة (السماط) الرسمية التى تقام فى مناسبة عيد الفطر . ثم نطلع على سجلات المستنصر بالله ، الخليفة الفاطمى : سجلات وتوقيعات ، التى هى بمثابة سجل للحفلات الفاطمية .

أما الكتب الحديثة فلا غنى لنا عنها، وهى ذات قيمة كبيرة ، منها كتاب Schlumberger :«Campagnes du roi Amaury Ier de Jérusalem en Egypte au XII ème siècle» ؛ وفيه وصف للنظام العجيب الذى كان سائداً فى استقبال الخليفة لرسل الملوك ؛ وكتاب Ravaisse: Essai sur l'histoire, et sur la topographie du Caire d'après Maqrîzî (Palais des califes fatimides) ؛ وفيه وصف لطبوغرافية القاهرة تساعدنا على تتبع سير المواكب الخلفية ؛ وكتاب Inostrantsev الروسى : « ركوب خلفاء الفاطميين » ، وهو عبارة عن ترجمة لوصف المقريزى لركوب الخليفة فى أول العام الهجرى مصحوبة بتذييلات وتعليقات قيمة للغاية ؛ وكتاب Constantin VII Porphyrogénète : Le livre des cérémonies ؛ وفيه نص الحفلات البيزنطية حققه وترجمة Albert Vogt ؛ وكتاب Christensen : L'Empire des Sassanides, Le Peuple, l'Etat, La Cour ؛ وهو يساعدنا على تتبع ما كان عند العرب من رسوم وتقاليد ؛ وأخيراً نجد قائمة للأعياد الدينيه الخاصة بالمذهب منقولة عن كتاب للأعياد العلوية جمعها المستشرق Massignon (أنظر. R. M. M. XLIX 57-60, p.221 et la suite.)

الكتاب الأول

جدول بأسماء خلفاء الفاطميين فى مصر

	هجرى		ميلادى
المعز	٣٤١	أبو تميم معد	٩٥٢
العزيز	٣٦٥	أبو منصور ازار	٩٧٥
الحاكم	٣٨٦	أبو على المنصور	٩٩٦
الظاهر	٤١١	أبو الحسن على	١٠٢٠
المستنصر	٤٢٧	أبو تميم معد	١٠٣٥
المستعلى	٤٨٧	أبو القاسم أحمد	١٠٩٤
الآمر	٤٩٥	أبو على المنصور	١١٠١
الحافظ	٥٢٤	أبو ميمون عبد المجيد	١١٣٠
الظافر	٥٤٤	أبوالمنصور إسماعيل	١١٤٩
الفائز	٥٤٩	أبو القاسم عيسى	١١٥٤
العاضد	٥٥٥	أبو محمد عبد الله	١١٦٠

سقوط الخلافة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ / ١١٧١

جدول (١) بأسماء وزراء الفاطميين (٢) في مصر

العزيز

٩٧٨/٣٦٨	أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس .
٩٨٣/٣٧٣	جبر بن القاسم .
٩٨٣/٣٧٣	ابن كلس ، ثاني مرة .
٩٩١/٣٨١	أبو الحسن على بن عمر العداس .
٩٩٣/٣٨٣	أبو الفضل جعفر بن الفرات .
٩٩٣/٣٨٣	عيسى بن نسطورس .

الحاكم

٩٩٦/٣٨٦	الحسن بن عمار .
٩٩٧/٣٨٧	أبو الفتوح برجوان .
١٠٠٠/٣٩٠	أبو العلاء الفهد بن ابراهيم .
١٠٠٠/٣٩٠	الحسين بن جوهر .
١٠٠٣/٣٩٣	أبو الحسن على بن عمار العداس .
١٠٠٨/٣٩٨	صالح بن على الروزباري .
١٠٠٩/٤٠٠	منصور بن عبدون .
١٠١٠/٤٠١	زرعة بن عيسى بن نسطورس .
١٠١٢/٤٠٣	الحسين بن طاهر الوزان .
١٠١٤/٤٠٥	عبد الرحمن بن أبي السيد .
١٠١٤/٤٠٥	الفضل بن جعفر بن الفرات .
١٠١٤/٤٠٥	أبو الحسن على جعفر بن فلاح
١٠١٨/٤٠٩	المسعود بن طاهر الوزان .

(1) Zambaur : Manuel de généalogie et de chronologie pour, l'histoire de L'Islam, p. 94 et 96.

(٢) في عهد العزيز والحاكم، لم يحمل هؤلاء الأشخاص لقب «وزير» ، ماعدا ابن كلس أنظر بعده . ولقد أضفنا بعض الأسماء الناقصة في الجدول ، وضبطنا التواريخ حسب مصادرنا .

الظاهر

٤١١ / ١٠٢١ أبو الحسن عمار بن عمار بن محمد .
٤١٢ / ١٠٢١ أبو الفتوح موسى بن الحسن .
٤١٤ / ١٠٢٣ أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان .
——— أبو محمد الحسن بن صالح الروذبارى .
٤١٨ / ١٠٢٧ أبو القاسم أحمد بن على الجرجرائى .

المستنصر

٤٢٧ / ١٠٣٦ الجرجرائى ، استمر .
٤٣٦ / ١٠٤٥ ابن الأنبارى .
٤٤٠ / ١٠٤٨ — ٩ أبو المنصور (أو نصر) صدقة بن يوسف الفلاحى .
٤٤٠ / ١٠٤٨ — ٩ أبو البركات الحسن (أو الحسين) بن عماد الدولة محمد .
٤٤١ / ١٠٥٠ أبو الفضل سعيد بن مسعود .
٤٤٢ / ١٠٥٠ أبو محمد الحسن (أو الحسين) بن علىّ بن عبد الرحمن اليازورى .
٤٥٠ / ١٠٥٨ أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلى .
٤٥٠ / ١٠٥٨ أبو الفرج محمد بن علىّ بن الحسن المغربى .
٤٥٢ / ١٠٦٠ البابلى ، ثانى مرة ؛ بعد ذلك صرف مستمر للوزراء .
٤٦٧ / ١٠٧٤ أبو النجم بدر الجمالى ، أمير الجيوش .
٤٨٧ / ١٠٩٤ أبو القاسم شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالى .

المستعلى

٤٨٧ / ١٠٩٤ الأفضل ، استمر .

الآمر

٤٩٥ / ١١٠١ الأفضل ؛ استمر .
٥١٥ / ١١٢٢ أبو عبد الله محمد المأمون بن فاتك بن مختار البطائحى .

من ٥١٩ إلى ٥٢٥ بدون وزراء.

الحافظ

٥٢٥ / ١١٣٠ أبو علىّ أحمد بن الأفضل، المعروف بكتيفات .
٥٢٦ / ١١٣١ يانس .
٥٢٦ / ١١٣١ أبو علىّ الحسن (ابن الحافظ).
٥٢٨ / ١١٣٣–٤ أبو ربيم سليان (ابن الحافظ) .
٥٢٩ / ١١٣٥ أبو المظفر بهرام .
٥٣١ / ١١٣٧ رضوان بن ولخشي .

من ٥٣٣ إلى ٥٤٤ بدون وزراء.

الظافر

٥٤٤ / ١١٤٩ أبو الفتوح نجم الدين سليان بن مصال اللكى .
٥٤٤ / ١١٤٩ أبو الحسن علىّ بن سلار الملك العادل سيف الدين .
٥٤٨ / ١١٥٣ العباس بن أبى الفتوح بن تميم ، الأفضل ركن الدين .

الفائز

٥٤٩ / ١١٥٤ الملك الصالح طلائع ، أبو الغارات بن رزيك .

العاضد

٥٥٦ / ١١٦١ أبو شجاع العادل محيى الدين رزيك بن طلائع .
٥٥٨ / ١١٦٣ أبو شجاع شاور بن مجير .
٥٥٨ / ١١٦٣ أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار اللخمى .
٥٦٠ / ١١٦٥ شاور ، ثانى مرة .
٥٦٤ / ١١٦٩ شيركوه .
٥٦٤ / ١١٦٩ صلاح الدين .

الفصل الأول

الإمامة

الوصاية أو تولية علىّ — حق الفاطميين فى الإمامة — النص أو تولية الإمام — الولاية أو الطاعة للامام — السلطة الدينية — السلطة الروحية — السلطة الزمنية — الألقاب .

الإمامة هى أصل جميع نظم الحكم فى الدولة الفاطمية فى مصر[1] ،وكلمة « إمامة » ، التى كان يستعملها الشيعة بعامة والفاطميون بخاصة ، لهامدلول كلمة « خلافة » التى كان يستعملها — غالباً — الأمويون والعباسيون[2] . ولكى نعرف نظام الإمامة، يجب أن نبحث أولاً عن أصلها :أوفيما يعرف«بالوصاية»، أو « تولية النبى لعلىّ »[3] .

وكلمة « الوصاية »، « تولية علىّ » جد كل إمام شيعى ، مشتقة من فعل « أوَصى » لتدل على معنى : وَلَى ؛ وهى مثل القرآن ، موحى بها من الله ؛حتى تكون الإمامة إرثاً فى بيت علىّ ، إلى يوم الدين[4] . ولذا كانت «توليةعلىّ» من الأمور التى يستند إليها الشيعة ، وعلى الأخص الفاطميون ، فى تمسكهم بحقهم فى الإمامة . فأصبحت بالنسبة لهم جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الفاطمية

---

(١) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص٣٩٢ ؛ Ostrorog: Le droit du Califat, p. 76 ؛ الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩، ص ٣ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٤٢ و ٤٠٨

(٣) النعمان ، شرح ، ورقة ١١ ؛ دعائم ، ١ ص ٢٠ و٥٢ .

(٤) النعمان، دعائم، ١ ص٥٤ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية، تحقيق Goldziher ، ص٣٨. ألف المسعودى كتاباً من « الوصية » ، تناول وصايا من لدن آدم الى علىّ ، ط . النجف ، بدون تاريخ.

الأساسية،فيقولون : « لا إله إلا إلله ، محمد رسول الله، علىّ ولىّ الله »[١] .

ويعلق الشيعة أهمية كبرى على ظروف هذه التولية : فقد وُجد محمد وعلىّ ، فى منتصف الطريق ما بين مكّة والمدينة ، بالقرب من مكان يُعرف باسم : «غدير خُمّ » ؛ وهنا أوصى النبى إلى علىّ فى الإمامة من بعده[٢] . ففى أثناء حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة بالقرب من غدير خُمّ ، قام محمد خطيباً فى الحجيج ، فقال لهم :«ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ »، قالوا : « بلى يارسول الله »قال:« فمن كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله » . وتردد الكتب الفاطمية رواية أخرى مؤداها أن محمداً ، فى أثناء غزوة تبوك ، قال لعلىّ : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى »[٣] . فهذه الرواية أيضاً يرددها الشيعة غالباً ؛ فقد كان من عادة الأنبياء أن يختاروا أوصيـــاء من أمرهم[٤]. فكان علىّ وصىّ النبى ، لأنه على حد قولهم ، أحسن الناس بعد الرسول[٥] ، ومن«أفضل» الأئمة،ومن «مادة»النبى ،وأنه«الكمال»ذاته[٦] .

---

(١) للقريزى ؛ الخطط ، ١ ص٤٠٥ ص٢٠ — ٢٠ ؛ انظر . Lavoix : Cat. des, monnaies musul. de la bibl. N, 3, p. 66,67,68,69,86 ; Sauvarie : Mat. Pour servir à l'hist. de La Num, p. 228.

(٢) النعمان ، شرح، ورقة ٣ — ٥. كانت هــذه الوصاية سبباً فى ظهور عيـد ورد فى التقويم الفاطمى (١٨ من ذى الحجة) .

(٣) النعمان، دعائم، ١ ص٢٥.

(٤) نفسه، ١ ص ٥٢ ؛ تاج العقائد (A Creed of the Fatimids)، ص٣٦.

(٥) النعمان ، دعائم، ١ ص ١٢ و ٢٨].

(٦) تاج العقائد ص ٣٧ .

وعلى ذلك تكون الإمامة الفاطمية هي وارثة وصاية علي[١]. ولكن، وإن كانت الروايات والكتب الفاطمية سردت تفاصيل وصاية النبي لعلي، في إمامة المسلمين من بعده، إلا أنها أهملت ذكر التفاصيل الخاصة بتسلسل الأئمة، سلف خلفاء الفاطميين في مصر. فالنعمان الفقية الفاطمي (ت٣٦٣/٩٧٤)، حاول أن يكتب تاريخ الدعوة الفاطمية من بدايتها[٢]؛ فتكلم أولاً عن دعوة ابن حوشب في اليمن في النصف الثاني من القرن الثالث، ثم عن حركة أبي عبد الله الشيعي في المغرب، حتى قيام خلافة عبيد الله المؤسس للخلافة الفاطمية في إفريقية في ٢٩٧/٩٠٩. ويلاحظ أن النعمان لا يذكر شيئاً عن تعاقب الأئمة من

(١) رفض الأمويون الاعتراف بادعاء علي في حقه في الخلافة بعد تحكيم دومة الجندل في سنة ٤٠ / ٦٦٠، وهو التحكيم الذي كان من نتيجته تولية معاوية الخلافة وعزل علي (أنظر. النعمان، شرح، ورقة ٦٨). ولكن فقهاء الفاطميين من جانبهم، قالوا ببطلان التحكيم، لأن علياً وأتباعه (أي الشيعة)، كانوا قد ثاروا عليه (أنظر. نفسه). كما أن جماعة أخرى متعصبة من المسلمين احتجت أيضاً على مبدأ التحكيم، بالنسبة لرئيس الأمة الإسلامية، لأنه في رأيها خطأ يخالف روح الإسلام. هذه الجماعة الثائرة، عرفت باسم فرقة الخوارج (أي الذين خرجوا على معاوية وعلي)؛ أعلنت ألا حكم إلا لله أي لأمة المسلمين، وأخذوا على علي بن أبي طالب تنازله عن حقه في خلافة نالها نتيجة لبيعة شرعية. ففي اعتقادهم يجب أن ينال الخلافة أفضل الناس عن طريق إختيار الأمة، وليس بالوراثة في أسرة معينة، فهم لا يرون أن تكون الخلافة احتكاراً لجنس معين مختار، أو حتى في قبيلة قريش التي جاء منها النبي، فعبد حبشي إذا استوفى شروطها أولى بها من أفضل سيد من سادات قريش (نفسه، ورقة ٨٥ وما بعدها؛ دعائم، ١ ص ٤٩؛ أنظر.
: Le dogme, trad Felix Arin, p 160 et suiv : Goldziher
The Caliphate, p. 184 : Arnold

ومن ناحية أخرى، فإن المرجئة (أي الذين أرجأوا الإختلاف في أي شيء إلى الله حتى يحكم بينهم يوم القيامة)؛ ترفض بقوة إعتبار دولة الأمويين غاصبة للخلافة. فكانت عقيدة المرجئة مخالفة للعقيدة التي تؤيد ادعاءات العلويين في حقهم الوراثي المقدس في حكم الأمة الإسلامية، (أنظر. دعائم، ١ ص ٤٩؛ Le dogme, p. 68: Gold). وحتى الزيدية، أتباع زيد بن علي بن الحسين (ت ١٢٥/٧٠٣)، حفيد علي، وهي من فرقة الشيعة، لا تعتقد بوجوب الإمامة إرثاً في أسرة معينة، وإنما عن طريق الانتخاب. فهي ترى أن الإمامة غير مقيدة بهذه الأسرة أو تلك، وإنما ينالها كل علوي مستوفي الشروط. ومن ناحية أخرى لا تعترف الزيدية بحقوق مقدسة لعلي، ولا تعتبر الخلفاء الذين أتوا بعده مغتصبين؛ ولذا فهي أقرب الفرق الشيعية إلى السنة. أنظر. Le dogme, p.200 - 201. : Glod

(٢) إفتتاح الدعوة، مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٨٨ (نشرت في بيروت).

جعفر الصادق (ت ١٤٨ / ٧٦٥) حتى عبيد الله (٢٩٧ / ٩٠٩ — ٣٢٢ / ٩٣٤)، وهي الفترة التي استتروا[1] فيها خوفاً من اضطهاد العباسيين . ولذا كانت هذه الفترة غير واضحة المعالم في معظم كتب الإسماعيلية ، وأيضاً وعلى الخصوص في الكتب الفاطمية ، وإن بقي مع ذلك اعتقاد الفاطميين الجوهري سليماً : وهو أن الأئمة الذين ظهروا في إفريقية ، ثم في مصر ، من نسل عليّ وفاطمة ، هم الورثة الشرعيون لوصاية عليّ ، وأن حقهم في هذه الوراثة مقدس[2] .

وقد كان الدفاع عن شرعية هذا الحق موضوعاً لجدل ونقاش عنيف بين الشيعة وأعدائهم السنيين . ففي رأي الشيعة أن هذا الحق المقدس في الإمامة باقٍ في سلالة عليّ حتى يوم القيامة ، وهو منصوص عليه ليس فقط في وصاية محمد التاريخية لعلي ، وإنما أيضاً في القرآن ، والحديث ، وحتى بحكم المنطق السليم[3] حقاً ، إن سور القرآن لا تذكر اسم عليّ ، ولا طبعاً أسماء الأئمة الفاطميين ، إلا أن تفسير هذه السور (أي تأويلها) لعب دوراً هاماً في تأييد هذا الحق . فالأئمة كانوا يتوارثون المعنى الصحيح للقرآن ، كما يتوارثون « الوصاية »[4] ، وعلى ذلك ، فهم يستطيعون أن يفسروا القرآن لصالحهم .

---

(١) أنظر Gold. : Le dogme, p. 201.

(٢) إن الاعتقاد في أنهم الأئمة « المكلفون من الله لحكم الأمة الإسلامية » — في رأي Canard — كان بالنسبة للفاطميين أساس حقهم في الخلافة . وهو اعتقاد أقوى من الدين ، الذي أدى إلى الفتوح الأولى ، ومن مطامع الأمويين الشخصية ، ومن استغلال العباسيين الاستياء ضد الأمويين ، ومن الشعوبية الإيرانية وتشيعها ، وحتى من اعتقاد العلويين الآخرين بشرعية حقهم في الإمامة . أنظر Canard :

L'impérialisme des Fatimides. Annales de L'Inst. d'Et. Or. 6, 1942 - 7, p. 158.

هذا ، وأن الاعتقاد في تكليفهم من الله مذكور في الرسالة التي وجهها الخليفة المعزّ إلى زعيم القرامطة: الحسن بن احمد ، كما بين ذلك Goldziher . أنظر . الرسالة في المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، القدس ١٩٠٨ ، ص ١٣٤ — ١٤٣) . فوجود الأئمة الفاطميين قبل خلق العالم لكي يحكموه ، قد يؤول من معنى القرآن نفسه (سورة ٢٤ آية ٣٥) . أنظر . Gold : (مقدمة) Streitschrift

(٣) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٤٨ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ص ٦٧ .

وعن الأحاديث فإنهم رددوا منها عدداً كبيراً لتأييـد حقهم الشرعى فى الخلافة، وإن رفض أعداؤهم السنيون الاعتراف بأغلب هذه الأحاديث[1] ولـكن الشيعة بعامة والفاطميين بخاصة يتهمون أعداءهم السنيين بالسكوت عن الأحاديث التى تبـيّن حقهم فى الإمامة[2].

أما عن وجوب إمامتهم بحكم العقل ، فإن فقهاء الفاطميين قاطبة[3] أجمعوا على التمسك بشرعية تولية علىّ وخلفائه إمامة المسلمين ، ولـكن حملوا بشدة على مبدأ الاختيار الذى يقول به الفقهاء السنيون . فبعض علماء الفاطميين يرون أنه لـكى تعطى البيعة للإمام بإجماع الناس ، فان الأمة نفسها يجب أن تـكون قد أعطيت بيعة مجمعاً عليها ، وإلا فإن هذه البيعة لا تـكون شرعية ، ولا يمكن أن تكون لأحد ، مادام لا يملـكها أحد[4] . ثم إن اختيار الإمام المستوفى الكمال فى الأوصاف والأحوال لمنصب الإمامة ، لا يتمسك به السنيون دائماً لأنهم لا يجدون الإمام المنتخب الذى يستوفى الشروط ، ولذا كانوا يلجأون غالباً إلى التولية عن طريق الوراثة ؛ فالعباسيون أنفسهم ، يشترطون أن يـكون الخليفة من نسـل أسرة العباس[5] . وفـكرة أن الله لم يترك إختيار الإمام للناس ، يرددها ابن خلدون بوضوح بقوله[6] : إن الإمامة ليست من المصالح العامة تفوض إلى نظر الأمة ؛ بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبى إغفالها وتفوضها إلى الناس .

وعلى كل حال، فى رأى فقهاء الفاطميين، كان ميراث الإمامة المقدس يتم

---

(١) الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ١١ وما بعدها ؛ انظر Mez: Die Renaissance، ترجمة أبى ريدة ، ١ ص ١٢١ .

(٢) النعمان ، شرح ، ورقة ٦٨ .

(٣) نفسه ، ورقة ٢٦ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ورقة ٢٨ ؛ أنظر . الهداية الآمرية (Being an epistle of the tenth fatimid calife al—Amir) ، تحقيق فيضى (Fyzee) ، ص ٢٠ .

(٥) الهداية ، ص ٩ ؛ انظر . Arnold : The Caliphate, p. 52.

(٦) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٥٥ .

« بالنص » ، أى « بالدلالة الصريحة » للإمام على من سيخلفه[١] ، فكلمة نص (دِلالة) مشتقة من فعل نصَّ (دلَّ). والنص مبدأ جوهرى يوضح لنا الطريقة ، التى عالجت بها العقيدة الفاطمية تعاقب ائمتها بعد علىّ ، حتى الإمام الحاضر. فحسب رأى فقهاء المذهب الفاطمى ، يكون كل إمام غير ائمة الفاطميين مغتصباً للإمامه ، لأن النصّ مظهر لإرادة الله نفسها ، التى يجب أن تخضع لها كل الآراء المختلفة فى تعيين رئيس الأمة. فهكذا تستمر — حسب إرادة الله — تولية خلفاء محمد التى ظهرت فى وصايته لعلى[٢] وسلالته ، حتى يوم القيامة.

فنص الإمام على خلفه أمر لا يهم أحداً غيره[٣] ، فليس للأمة ، ولا لأى فرد أن يطلب سبب هذه التولية. ومع ذلك ففى إعتقاد علماء الدين الفاطميين ، كان يلزم أن يكون الشخص المنصوص عليه من سلالة على وزوجته فاطمة ، أو كما يقول ناصر خسرو : يشترط أن يكون علوياً من آل إبراهيم أهل البيت[٤].

إذاً خلاف كونه علوياً ، فإن النصّ يتوقف فقط على إرادة الإمام وحده ، وأنه لا يوجد غير هذا الشرط بالنسبة للإمام المنصوص عليه ، على عكس ما عند السنة ، الذين يطلبون شروطاً لازمة فى شخص الخليفة باجماع الأمة[٥].

فلا توجد عندهم — على الإطلاق — شروط تتعلق بعمر الإمام[٦] :

فكثير من الأئمة الفاطميين فى مصر ، تولوا الإمامة صغاراً . فكان عمر الحاكم

---

(١) الهداية ، ص ٧ ؛ النعمان ، دعائم ، ١ ص٥٤ ؛ السجلات المستنصرية (٣٥) ص١١١ ؛ (٤٣) ص١٤٦ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٥٣٧ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص٣٨ و٦٦.

(٢) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٥٢ ؛ السجلات المستنصرية : (٣٥) ص ١١٠ .

(٣) السجلات : (٣٥) ١ص ١١١ ؛ الهداية ، ص ٣٦ .

(٤) أنظر . Nàsiri Khusrau, p257.: Khachab

(٥) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص٣٤٩ ؛ الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص٤ ومابعدها.

(٦) سجل : (٣٧) ص ١٣٧ .

إحدى عشرة سنة ونصفاً[1]؛ والظاهر ست عشرة سنة[2]؛ والمستنصر أقل من ثماني سنوات [3]، والمستعلى أزيد من عشرين سنة [4]؛ والآمر خمساً [5]؛ والظافر سبع عشرة [6]؛ والفائز خمساً [7]؛ والعاضد إحدى عشرة [8]

وفوق ذلك، لا يقوم النص في الإمامة على أساس استخلاف الابن الأكبر، فالإمام يستطيع أن ينص على ابن له، ثم يعزله ويعين غيره بدلاً منه[9]. فنص الإمام على خلفه يتم بناء على إرادته، وإن كانت معارفه الإلهية هي التي توحي إليه بتولية أو عزل من يقع إختياره عليه. ولقد تعاقب الأئمة الفاطميون في مصر من أب إلى ابن حتى الإمام السادس: الآمر. ولكن منذ هذا الإمام، اختل ترتيب التعاقب في الإمامة، لأن الآمر مات قبل ولادة خلفه[10]. وقد حدث الاضطراب مرة أخرى، عند موت الفائز الذي لم يكن له ولد. وفي الحالتين فإن ابني عم هذين الإمامين هما اللذان حازا الإمامة: فتولى عبد المجيد بعد الآمر، والعاضد بعد الفائز.

هذه «الدلالة الصريحة» أو «النص» غير واضحة في الروايات الفاطمية، فلسنا ندري، إن كان النص عبارة عن أمر مكتوب أو وصية، أو أمر شفوي، أو حتى تلميح بسيط من جانب الإمام لخلفه، الذي ينص عليه بهذه الطريقة.

---

(١) ابن تغري بردي، تحقيق Popper، ٢ ص ٦٢.
(٢) نفسه، ٢ ص ١٢٩.
(٣) نفسه، ٢ ص ١٦٨؛ السجلات المستنصرية: (٣٧) ص ١٢٧.
(٤) ابن تغري بردي، ٢ ص ٢٩٨
(٥) نفسه، ٢ ص ٣٢٧.
(٦) نفسه، ٣ ص ٤٦.
(٧) نفسه، ٣ ص ٦٢.
(٨) نفسه، ٣ ص ٨٤
(٩) السجلات المستنصرية: (٣٥) ص ١١١؛ الهداية، ص ٢٠.
(١٠) ابن تغري بردي، ٣ ص ٨٦ — ٨٧؛ السيوطي، خلفاء، ص ٩.

ففى كتاب دعائم الإسلام، يحتفظ لنا النعمان بوصية علىّ إلى الحسن [١]، تصح أن تكون دليلاً على النص، وهى تشتمل على نصائح وأسرار. ومن ناحية أخرى، هذا النص قد يكون أيضاً على مايظهر، أمراً شفوياً [٢] له قيمة الأمر الكتابى؛ فليس لدينا أية وصية مكتوبة من الأئمة الفاطميين فى مصر إلى خلفائهم؛ مما يدعونا إلى الظن بأن النص كان شفوياً فى الغالب. وأخيراً يكفى، أن يُظهر الإمام عطفه على خلفه، أو أن يلمح له تلميحاً بسيطاً لكى يتم عليه النص [٣]. فلدينا من سجلات الإمام المستنصر سجلان على هذا النوع من النص، وهما مكتوبان من قبل المستعلى وأمه، إلى ملكة اليمن السيدة الحرّة، حيث يشرحان فيها تلميح المستنصر بالإمامة إلى المستعلى الابن الأصغر، دون نزار الابن الأكبر. وعلاوة على ذلك، نجد فحوى هذا التلميح من المستنصر إلى المستعلى، فى رسالة أخرى من عهد الآمر، ابن المستعلى [٤].

ولدينا — لحسن الحظ — مثل واضح على النص وظروفه. فقد نصّ المعزّ على خلفه [٥]، وأراد أن يعلن لشيعته الإمام من بعده. فأحضر أحد أولاده، ووجه الكلام إلى شيعته، قائلاً: «هذه عصاى أتوكا عليها»، فأجابوا: «سمعنا وأطعنا»، ثم خرجوا من عنده، وهم يعتقدون أن هذا الابن سيكون الإمام من بعده. فلما كان اليوم التالى، جمع المعزّ من جديد شيعته، وأحضر لهم ولداً آخر من أولاده وقال لهم: «هذه عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى»، فقالوا: «سمعنا وأطعنا»، وخرجوا من عنده هذه المرة أيضاً، وهم يعتقدون أن هذا

---

(١) Fyzee: The Ismaili law of wills, p 35.

(٢) الهداية، ص ١٢.

(٣) السجلات المستنصرية: (٣٥) ص ١١١؛ (٤٣) ص ١٤٦.

(٤) الهداية، ص ١٤؛ ابن ميسر، ص ٦٧.

(٥) كان للمعزّ أربعة أولاد: عقيل (ت ٣٧٤ / ١٠٨١)، وتميم (ت ٣٨٦ / ٩٧٨ أو ٣٧٤/١٠٧١)، والعزيز (خليفة)، وعبد الله. ابن ميسر، ص ٤٨؛ انظر. Zambaur: Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de L'Islam, p 95.

الابن هو خليفة المعزّ . وأخيراً كان اليوم الثالث ، فدعا العزيز (ثانى خليفة فاطمى فى مصر) ، وقال لشيعته: « هذه عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ،ولى فيها مآرب أخرى»، فخرجوا فى هذه المرة ، ولم يشكوا فى أن هذا الأخير ، هو الذى سيكون حقاً الإمام من بعده .

وهذا النصّ — فى الواقع — لم يكن تولية عادية من الإمام لخلفه ؛ بل يمنح أيضاً لهذا الأخير طبيعة روحية ، تنتقل إليه بالوراثة [1] . فكانت نفس الإمام بأسرارها المكنونة وصفاتها الإلهية،تنتقل ساعة موته، بالحلول ،فى الإمام الذى سيخلفه؛ فهذا عند الفاطميين ، كان ميراثاً مميّزاً لإمامتهم .

وقد قيل بأن النبى نقل مباشرة إلى علىّ بعض علومه الإلهية [2]، فكان على علىّ بدوره أن ينقلها إلى ابنه الوريث ، فترتب على ذلك انتقال هذه العلوم بالوراثة من إمام إلى آخر ، على كرّ العصور . فنجد فى وصية علىّ للحسن — الواردة فى كتاب دعائم الإسلام — ذكر لإرث من كتب وأسرار ، جاء فيها على لسان علىّ :« أنت الإمام من بعدى ، وارث علمى » [3] . ويحكى الآمر أن والده المستعلى ، أسر إليه ساعة موته ، ما كان قد ناله عن جده ، فيقول : « وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلىّ من الحكمة بالغامض المصون [4] » .

وفى الحقيقة، لا نعرف بالضبط ما هى هذه العلوم أوهذه الأسرار، وما هى محتويات هذه الكتب،ولكننا نظن — بدون مدارة — أن هذه العلوم الفاطمية

(١) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ٤٥ ؛ ٢ ورقات ٤٢٦ و٥٢٩ ؛ السجلات المستنصرية (٣٥) ص ١١١ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ٣٧ .

(٢) Fyzee ; Ismaili law, p 35.

(٣) نفسه ، ص ٣٥ و ٤٥ .

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٢ ، ٢ ص ١٥ .

تشتمل خاصة على تفسير القرآن (أو ما يُعرف بعلم التأويل) : فكل كتب الدعوة الفاطمية تشير إلى تأويل القرآن . وحسب وصية علىّ للحسن ، تحتوى هذه الكتب أيضاً ، على معارف جغرافية ، وعلى أسماء للملوك ، وحتى على أسماء بعض الدعاة حتى يوم البعث. كذلك يحدثنا المؤرخون[1] ، نقلاً عن الرواة ، بوجود نسخة من القرآن ، فى القاهرة ، جمعها علىّ وعلّق عليها بنفسه . ويقول المعزّ — بصدد علم الأئمة هذا — إنه كان يتضاعف ست مرات ، عند نقله إلى الإمام الجديد[2] ، ومع ذلك ، فإن التاريخ يبين لنا أن بعض الأئمة يهتمون بالعلوم ، وأن الآخرين لا يهتمون بها

كذلك ، نجهل ما كانت عليه حال الشخص النصوص عليه من الناحية الزمنية ، ولكن على حسب مؤرخى العصر ، كان من اللازم أن ينعت خلف الإمام بلقب : «ولىّ عهد المؤمنين»[3] . ويُبرز الفاطميون المعنى الذى تدل عليه كلمة « مؤمن » ، فهذه الكلمة تدل على (الإيمان) ، بينما كلمة « مسلم » لا تدل إلا على (الإسلام) . فالنصّ على «عبد الرحمن»[4] فى الإمامة ، كولى عهد للخليفة الحاكم ، لم يعتبر شرعياً ، لأن عبد الرحمن نُعت بلقب : «ولىّ عهد المسلمين» وليس بلقب : «ولىّ عهد المؤمنين» . إن (الإيمان) هو الذى يهم فى العقيدة الفاطمية[5] .

وإننا لا نعرف أيضاً ، الرسوم المتبعة فى مناسبة النصّ على خلف الإمام ، وإن كان أكبر الظن أن الإمام هو الذى ينال البيعة لولىّ عهده[6] . فالمعزّ عندما

(١) صبح ، ٣ ص ٥٢٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٨ س ٣ — ٤ .

(٢) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ١٧٨ .

(٣) الهداية ، ص ١٣ .

(٤) نفسه ؛ ابن القلانسى ، تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٦٩ .

(٥) النعمان ، دعائم ، ١ ص ١٥ .

(٦) ابن القلانسى ، ص ١٥ .

نص عليه والده، خرج متبوعاً بموكب عظيم [١]؛ كما أن الدولة قامت بتوزيع أموال طائلة وخلع سنية كثيرة على كبار الموظفين؛ كذلك فرق الطعام على الناس [٢]. وقد كان سجل ولاية العهد يقرأ [٣] أمام جميع الناس على إختلافهم بالقصر، وعلى منابر القاهرة والإسكندرية، وحتى فى البلاد المجاورة؛ وكما يكتب اسمه مع اسم الخليفة فى البنود والسكة والطراز، أى الملابس.

وعلى كل حال، أوجد مبدأ النص اضطراباً كبيراً بين الشيعة، فعدد لا يحصى من فرق وطوائف الشيعة نشأ نتيجة للنص، الذى لم يتفق عليه. ويدين الفاطميون أنفسهم بوجودهم، إلى مثل هذا الانشقاق؛ فهم جعلوا النص من جعفر الصادق (ت ١٤٨/٧٦٥) إلى ابنه إسماعيل، بدلاً من ابنه موسى الكاظم. فتسمى الفاطميون باسم الإسماعيلية [٢]؛ كما تسمى أنصار موسى بالإمامية، وذلك بسبب اعتقادهم فى إمامة موسى الكاظم.

وبسبب النص، انقسم الفاطميون أيضاً فى مصر على أنفسهم، إلى قسمين رئيسيين: النزارية أنصار نزار، الابن الأكبر للمستنصر؛ والمستعلية أنصار المستعلى، الابن الأصغر [٤]. فقد قيل بأن الحسن الصباح لما جاء مصر فى سنة ١٠٧٨/٤٧١، طلب من المستنصر أن ينص على خلفه فى الإمامة. وعلى حسب قول الحسن، فإن المستنصر أفهمه بأن نزاراً سيكون ولى عهده. [٦] ولكن بعد موت المستنصر، فإن المستعلى الابن الأصغر، هو الذى تولى الخلافة، ولذلك فان الحسن وأتباعه تمسكوا بإمامة نزار، وأسسوا فرقة منشقة. ومازالت هاتان الطائفتان موجودتين إلى الآن، ويتمثلان فى الهند فى طائفتي: النزارية باسم خوجة، والمستعلية باسم البهرة والداوودية والسليمانية.

(١) النعمان، المجالس، ١ ص ٩.

(٢) المقريزى، الخطط، ١ ص ٣٥٥ س ١٢ — ١٣.

(٣) هذه التفاصيل فى مجموعة الوثائق الفاطمية للشيال (١ ص ٥٨)، اعتماداً على مخطوطة اتعاظ، ورقات ١٦٦ — ١٦٩.

(٤) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٦٢ — ٣؛ صبح، ١٣، ص ٢٣٥.

(٥) صبح، ١٣ ص ٢٣٦؛ الخطط، ١ ص ٣٥٧.

(٦) ابن الأثير، الكامل: تحقيق Torenberg، ٩ ص ٣٠٢.

وعلاوة على النص، أوجد الفاطميون مبدأ آخرهو : « الوَلاية »، بمعنى الطاعة للإمام، وذلك لتأييد قوة النص (١). فالوَلاية في الواقع، فرض جوهرى من فروض الدين والمجتمع ؛ حيث تُعتبر (الدعامة) الأولى ، من بين سبع (دعائم) ؛ على أساسها بُنى الإسلام الفاطمى (٢) ؛ وهى : الوَلاية ، والطهارة ، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج،والجهاد . فالخضوع للإمام ضرورة دينية، مثلما هو ضرورة منطقية ، ولا ريب ، فإن الفرض الدينى ، هو الناحية الأساسية فى العقيدة الفاطمية .

ففى رأى الفاطميين : جميع سور القرآن تدعو إلى الخضوع للإمام ، ولما كان الأئمة يملكون ناصية تفسير القرآن،فإنهم يؤولون جميع السور ؛ على أساس وجوب الطاعة لهم.فيستند الفاطميون على الخصوص إلى هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ،أَطِيعُوا اللَّهَ ،وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ،وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٣) ؛ وليس هناك شك ، فى أن المقصود بأولى الأمر — فى رأيهم — الأئمة الفاطميون (٤).

وتوجد أحاديث تُنسب إلى النبى وإلى الأئمة ، تدعو إلى طاعة الإمام . فمن قول الرسول: « من مات لا يعرف إمام دهره حياً ، مات ميتة جاهلية» (٥). ومن قول علىّ فى وصيته إلى ابنه الحسن: «قرن الله طاعتنا بطاعته وطاعة رسوله» (٦). ويضيف الإمام جعفر فيقول: « بنا يعبد الله، وبنا يُطاع الله، وبنا يُعصى الله،فمن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصى الله » (٧) . فهذه الأحاديث ، وهذه الأقوال المنسوبة للأئمة ، ذُكرت على الأخص لتأييد هذه الطاعة ، التى هى طاعة

(١) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٣ .

(٢) نفسه ؛ شرح، ورقة ٢٩ ، انظر . The Ismaili law of wills, p.1;70—71

(٣) سورة ٤ آية ٥٩ ؛ النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ٣٦٥ ، دعائم ١ ، ص ٢٥ .

(٤) مجالس ، ١ ورقة ٣٦٥ .

(٥) دعائم ، ١ ص ٣١ .

(٦) Ismaili law, p 42:Fyzee

(٧) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٧٢ ؛ انظر . محمد كامل حسين ، كتاب الهمة؛ (المقدمة)، ص ١٩ .

لله ، ذلك لأن الأئمة مظهر للإرادة الإلهية . فهذا الواجب إذاً فرض مطلق على المسلمين [1] ، ومن ذلك ، يستنبط Goldziher [2] : « أن الشيعة مذهب أوتقراطي ، لأن الذى لا يقرّ بهذه الطاعة يُعتبر كافراً » [3] .

ومن ناحية أخرى ، أن وجوب طاعة الإمام — فى رأى الفاطميين — مبدأ مُدركٌ بالعقل ، ذلك لأن الإمام هو أساس الوحدة الإجتماعية والدينية للأمة الإسلامية [4] . ولا ريب ، أن أئمة الفاطميين كانوا يحكمون شعوباً سنية ، إلا أن الولاء لأولى الأمر كان هو أيضاً من الواجبات الدينية عند أهل السنة . فكان البويهيون (منتصف القرن العاشر) ، مع العلم بأنهم شيعة ، يتحكمون فى الدولة العباسية وخلفائها السنيين .

وقد تمسك الفاطميون بطاعة الإمام المطلقة لكى يقووا سلطتهم الزمنية ، وليجعلوها متدسة رهيبة . ولذ يرى علماء الفاطميين أن هذه « الولاية » ليست جزئية ؛ لأنها يجب أن تشمل جميع الأمة الاسلامية [5] ، وقد أطلقوا على المكان الذى توجد فيه هذه الأمة الاسلامية التسمية العامة : « بدار الإسلام » . وعلى ذلك ، فلا يجب أن يُطاع فيها غير سلطة شرعية واحدة : هى سلطة الإمام الفاطمى ؛ فكأن إمكان وجود إمامين أو خليفتين فى وقت واحد ، ليس له مكان فى العقيدة الفاطمية . فيرى ناصر خُسرو : أن حكم هذه الأمة ملك للإمام ؛ وليس لغيره أى حق فيه [6] . ولم يجد هذا الرأى قبولاً من السنة [7] على الأخص حينما

---

(١) تاج العقائد ، ص ٩ .

(٢) أنظر Le dogme, p 152. .

(٣) تاج العقائد ، ص ٤٣ و ٤٩ .

(٤) المشاب : Nasiri khusrau, p. 259-7.

(٥) نفسه ، ص ٢٥٨ ؛ النعمان ، مجالس ، ٢ ورقة ٤٧٨ .

(٦) المشاب : Nasiri khusrau, p. 256. يقول ابن هانئ بهذا الخصوص :

وأنت محمد وارث الأرض كلها   فقد حم مقدور وقد خط مكتوب

ويقول أيضاً :

ألا انما الأرض العريضة أصبحت   ومالبنى العباس فى عرضها فتر . =

اتسعت رقعة الإسلام ، فأصبح من الصعب حكمها بشخص واحد ، وفي هذه الحالة ، فإنهم يسمحون بعقد شرعي مع شخصين ، في وقت واحد [1] .

على أن إقرار الولاية ؛ يتطلب القيام أيضاً بشرائط البيعة ، وكلمة بيعة تعني « العهد على الطاعة » ، وهي مظهر للولاية ، والتزام بها [2] . فيجب على كل فرد من أسرة الإمام ، ومن وجوه دولته الدخول فيها ، لأنها برهان لولاء كل مؤمن ، وحتى كل مسلم [3] . ولا يند من ذلك ، النساء اللائي يجب أن يشتركن في عقد البيعة للإمام [4] . فيقول جعفر — جد الفاطميين — في هذا الصدد ، نقلاً عن الرسول : « من مات لا يعرف إمام دهره ، مات ميتة جاهلية » [5] .

وعلى كل حال ، هذا العهد على الطاعة لم يكن نصاً يقرأ ، وإنما كان يُعبر عنه مجازاً : بتقبيل الأرض بين يدى الخليفة ، أو بتقبيل اليد أو الرجل أو الذيل [6] ؛ وأن يقول الشخص هذه العبارة : « السلام على أمير المؤمنين » [7] . فكان تقبيل الأرض أمام الإمام يرمز إلى الاقرار بالخضوع ، ويدل أيضاً على انتخاب الإمام الجديد ، واعتراف الأمة الإسلامية به . ويؤكد النعمان أن السجود بين

= أنظر . ديوان ، تحقيق زيادة ، بيروت ١٣٨٦ ، ٣ ص ٦٤ ، ٦٦ ؛ ١١ ص ١٨٨ ؛ Annales, p. 159:Canard ؛ وكذلك في أول خطبة للجمعة في الفسطاط في ٣٥٨/٩٦٩ ، بدأ الخطيب بالصلاة على المعز فقال : « واجمع الأمة على طاعته . . . وورثه مشارق الأرض ومغاربها . . . فإنك تقول وقولك الحق : ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . المقريزى ، اتعاظ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ؛ انظر . Annales, p 159: Canard ؛ حسن ابراهيم ، الفاطميون في مصر ، ص ١٢٠ — ١٢١ ؛ Quatremère : Vie du, calife Mu'izz. J. A, 1836,3, p. 55.

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٤٧ — ٨ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٣٧٦ .

(٣) تاج العقائد ، ص ٤٣ .

(٤) نفسه .

(٥) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٣٤ .

(٦) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٧٧ . تقبيل الأرض ليس معناه السجود ، فهو مس الشفاه للأرض ، دون الجبهة .

(٧) ابن ميسر ، ص ٦١ .

يدى الأئمة ، لا يدل على العبادة ، وإنما على الخضوع [١] .

ولسنا نجد معلومات وافية عن الرسوم المتبعة فى مبايعة الخلفاء الفاطميين ، فى مصر . ومهما يكن ، فإنا نعتقد بأنه لم يك ثمة فرق كبير بين الرسوم الفاطمية، وما كان متبعاً فى مبايعة غيرهم من الخلفاء ، وعلى الأخص العباسيين. ومع ذلك، استطعنا أن نجمع من كتب التاريخ بعض النتف التى تسمح لنا بتصور الرسوم المتبعة فى مثل هذه المناسبة ، والتى تبين حب الفاطميين للأبهة . فكانت الحفلة تقام بطبيعة الحال بالقصر الكبير ، فيعتلى الخليفة سريراً «عرشاً» ، وقد لبس لهذه المناسبة تاجاً، حتى وإن كان لا يزال طفلاً [٢] ؛ وهذا التاج ـ فى الواقع ـ لم يكن غير عمامة مرصعة بالأحجار الكريمة ، يلبسها الخليفة فى جميع الحفلات الفاطمية [٣] . وكان على قاضى القضاة، أو داعى الدعاة؛ أن يقوم بمراسيم البيعة [٤] ؛ فيتقدم رجال الدولة بين يدى الخليفة لتقبيل الأرض كرمز للخضوع، فكان أفراد أسرة الإمام أول يقدّمون خضوعهم [٥] . ولكن حينما يكون الإمام صغيراً جداً، فإن وزير التفويض ؛ وهو الوصىّ عليه ، كان يأخذ له البيعة بنفسه، ثم يحمله ، أمام الجماهير بين ذراعية ؛ كما فعل الوزير عباس مع الخليفة الفائز [٦] .

وقد جرت العادة آنئذ ؛ أن تُصدّر سجلات إلى حكام الخلافة واصفة ومعلنة — فى عبارات مزوقة — خبر تولية الإمام [٧] ، وأن يُدعى له على المنابر فى خطبة صلاة الجمعة ؛ فهكذا كان الشأن عند بيعة الخليفة فى سائر الدول

---

(١) النعمان ، المجالس ، ١ ص ٢٢ — ٢٨ .

(٢) ابن ميسر ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(٣) ابن خلكان ، ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن ميسر ، ص ٦٧ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ ص ٢٩٩ .

(٥) السجلات المستنصرية : (٣٥) ص ١١١ ؛ (٤٣) ص ١٤٧ .

(٦) ابن خلكان ، ١ ص ٤١٩ — ٤٥٠ .

(٧) السجلات المستنصرية : (٣٥) ؛ (٤٣) . مثل تولية الإمام المستعلى .

الإسلامية [1] ؛ وأن ينقش اسمه على قطع النقود ، ويطرز على رايات الجيش وبنوده [2] . وزيادة على ذلك ، كان الفاطميون يتمسكون بشدة بأن يخطب للإمام وآبائه ، فى الحرمين المعظمين — مكة والمدينة — [3] ؛ حيث أنهما قبلة جميع المسلمين . ولذلك ظهرت دائماً منافسة شديدة بين الإمامة الفاطمية والخلافة العباسية؛ فكانت كل منهما تسعى إلى الاستيلاء على الأماكن المقدسة بالحجاز، لتوطيد نفوذها فى « دار الإسلام » [4] .

وكان للإمام المنصوص عليه سلطات واسعة، أهمها : السلطة الدينية ، لأن الإمامة هى القاعدة التى يرتكز عليها الدين كله . وقد عبر ابن خلدون ـ المؤرخ الكبير — عن ذلك ، بأن الإمام ضرورى لتعريف الناس أصول دينهم الذى أنزله الله على الرسول محمد. ففى رأيه :أن الله قد خلق الناس ليستمدوا لآخرتهم، بالقيام بالفروض التى أمرهم بها ، فوجود نبى أو خليفة أمر ضرورى ؛ وبدونه يصير الناس فوضى بدون هداية [5] .

ويؤكد ناصر خسرو ـ مؤدى هذا الرأى ـ بقوله : إنه وإن كان الإمام واجباً وجوده للدنيا وليس للدين ، فإن الدين لا لزوم له بدون إمام ؛ وإذا كان وجوده قوام الدين وليس للدنيا ، فإن الإمامة لا لزوم لها [6] .

ولقد كان الفاطميون يخصون أئمتهم بالمعرفة بكل أصول الدين، لأنهم وحدهم

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ٢ ص ٦٣ .

(٢) السيوطى ، خلفاء ، ص ١٦٦ .

(٣) السجلات المستنصرية : (٥٨) ص ١٩٢ — ١٩٣ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ١ ص ٤١٠ .

(٤) السجلات المستنصرية : (٣) و (٤) و (٧) و (١٢) .

(٥) ابن خلدون ، مقدمة، ١ ص ٣٤٣ ـ ٤ ؛ انظر . Prolegomènes, p.385-6

(٦) الخشاب : Nâciri Khusrau, p. 256.

يستطيعون تفسير المعنى الصحيح للقرآن، فهم يعرفون المعنى الباطن للدين، والمعنى المؤول، بل وتأويل هذا المعنى المؤول [١]. وعلى ذلك يكون الإمام جزءاً لا يتجزأ من العقائد الإسلامية، لأن الدين لا يكون تاماً بدون علم الإمام [٢]. والواقع، إن هذا العلم جعل الإمام الفاطمى فى مرتبة فوق مرتبة غيره من البشر، وخلع عليه صفة العصمة [٣]، التى تأتيه من معارفه العالية. فعلى عكس العقيدة السنية، تخص العقيدة الفاطمية الإمامة بدور هام فى الناحية الدينية.

لذلك كان على الإمام أن يساعد الناس فى سبر غور أصول دينهم؛ وهذا من أول واجباته الهامة. فالخليفة الفاطمى بنفســـه يعيّن الدعاة من قبله، ويكلفهم بنشر العقيدة التى يشرحها لهم، وهو وحده المسئول عن صحتها؛ فيقوم الدعاة بتقديم التفسير أو التأويل للنص القرآنى إلى الإمام، قبل قراءته على المستجيبين أو على الحاضرين فى مجالس الدعوة أو فى المساجد، فإذا نال موافقته وضع عليه علامته [٤]، فيصبح الكلام الذى يُلقى مقدساً غير قابل للتبديل أو للتغيير. وأحياناً أخرى، كان الإمام يرتب فى قصره محاضرات أو مجالس يلقيها بنفسه [٥]. وغير ذلك، فإنه يدعو العلماء إلى تأليف الكتب عن عقائد المذهب الفاطمى [٦]؛ فقد طلب المعز من النعمان الاطلاع على العلوم الخاصة بأهل البيت، والتأكد من صحة النصوص التى تنقل عنهم؛ فكان النعمان فى مؤلفاته عن الأئمة

---

(١) أنظر. Essai sur L'Histoire de l'Islamisme : Dozy، ترجمة من الهولندية Chauvin، ص ٢٦٤.

(٢) النعمان، المجالس، ٢ ورقة ٣٧٣؛ عمارة، ديوان، تحقيق Derendourg، ١ ص ٣٣.

(٣) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٥٥؛ الغزالى، فضائح الباطنية، ص ٨.

(٤) المقريزى، الخطط، ١ ص ٣٩١ ص ٩ — ١٠.

(٥) أنظر. الخشاب، سفر نامه، القاهرة ١٩٤٥؛ (مقدمة) ص ١٥.

(٦) النعمان، المجالس، ١ ورقة ١١٥، ٢٨٨.

دائم الخوف من أن يرتكب غلطات [١] ، وكان المعز يراجع بعناية جميع المؤلفات التى تقدم إليه [٢] . كذلك كان على الإمام أن يقوم بواجب الجهاد ضد الكفار ، وهو فرض صريح فى العقيدة الفاطمية [٣] .

والإمام أيضاً جزء غير منفصل من الشريعة؛ فوجوده لازم لوجود الشرائع نفسها . فكان — بسبب معارفه فى الدين — يعتبر مستودعاً للشرائع الإسلامية ، والمجتهد المطلق [٤] فى الشريعة ، القادر على استنباط الأحكام وتفسيرها ، وغير الإمام لا يملك هذا الحق .

وفى الجملة كان الأئمة الفاطميون يميلون إلى الاحتفاظ بمظهرهم كرؤساء للدين أكثر منهم كملوك ، فهم قبل كل شىء زعماء المذهب الفاطمى ، إحدى فرق الشيعة . فكان الإمام يشترك فى كل الأعياد الدينية والشيعية على الخصوص ، فيخرج فى حفل رسمى للصلاة بالناس وللخطبة فى الجمعة [٥] ؛ فهذا فى رأى ناصر خسرو ، كان من شأنه أن يعلى مرتبة الإمامة .

أما عن الصفة الروحية للأئمة الفاطميين ، فإنها جاءتهم من تولية النبى لعلى وسلالته إمامة المسلمين ، ومن معارف وأسرار نقلها محمد إلى ابن عمه وإلى عقبه . ففى رأى الفاطميين ، كان للأئمة صفات خارقة تجعلهم فوق مرتبة البشر [٦] ، فكانت من صفاتهم العصمة ؛ وهى صفة تنسبها السنة إلى الأنبياء

(١) نفسه ، ١ ورقة ١١٢ .

(٢) نفسه ، ١ ورقة ٢٨٨ .

(٣) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٣٥٩ — ٤٦٦ .

(٤) أنظر . Le Califat, p. 62.: Sanhoury

(٥) السجلات المستنصرية (١٣) و (٣٠) ؛ صبح ، ٣ ص ٥٠٣ — ٥١٦ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٩٦ .

(٦) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ١١٣ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ٨ ، ١٦ ؛ =

وحدهم . ويقرر ابن خلدون فى هذا الصدد ، أن الإمام معصوم من جميع الخطايا : الكبائر والصغائر [١] .

وعلى هذا، فإن شخص الإمام مقدّس، ولدينا أمثلة عديدة عن صفاته الروحية. فألفاظ الإمام — فى رأى النعمان [٢] — تكون ألفاظاً مقدسة ، كألفاظ القرآن ، فى الجزالة والفخامة والبيان ، يعجز عن أن يحكيها البشر . وكانت ملابس الإمام هى الأخرى مقدسة [٣] ، فكان على الولاة وغيرهم أن يقفوا احتراماً، عند استلامهم ملابس الخليفة من المناسج؛ وكان من التبرك للشخص، أن يلبس ثوباً من الملابس، التى كان قد لبسها الخليفة [٤] . أما فى الأعياد، فكان التجار يزينون الطرق التى قديمر منها موكب الإمام ، بأشياء من تجارتهم، لطلب البركة من نظرته [٥] ؛ وكان الناس — عند مروره — يخرون سجداً لتقبيل الأرض ، ويذكرون اسمه عند قيامهم [٦] . وكذلك جرت العادة أن يعطى الإمام بركته للجيش وللأسطول عند ذهابهما للحرب [٧] ، أو عند القدوم منها. ثم إن الإمام كان مثل بابا النصارى، له القدرة

= أنظر .Canard: Annales de l' Inst. d'Et. Or. 6, 1942 - 4, P. 160. من الطريف أن نذكر هنا البرهان على صفاتهم العالية : فقد كان الخليفة المعز أول مخترع للقلم النباع ، وكان يرمز به الى «باطن العلم» ؛ فهو قلم يكتب به بلا استمداد من دواة ، ويكون مداده من داخله ، فإذا قلّب فى اليد ومال الى كل ناحية ، لا يبدو منه شىء من المداد . فكان الكاتب يحمله فى كمه أو حيث شاء ، دون أن يلطخ اليد أو الثياب . ويقول المعز : « فيكون آلة عجيبة ، لم نعلم أنا سبقنا إليها ، دليلا على حكمة بالغة لمن تأملها ، وعرف وجه المعنى منها » . أنظر . النعمان ، المجالس ، ١ ورقات ١٣٧ — ١٥٠ .

(١) المقدمة ، ١ ص٣٥٥ ؛ انظر . Mez : Die Rennaissance ، ترجمة أبى زيدة ، ١ ص ١٢٠ .

(٢) المجالس ، ١ ورقة ١١٢ ؛ ١١٤ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٧٠ س ٨ — ٩ .

(٤) السجلات المستنصرية (٢) ص ٣٣ ؛ (١٤) ص ٦١ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٦ س ١٢ — ١٦ .

(٦) Nâsiri Khusrau: Sefer Nnmeb, trad Schefer, p. 141. 20-22.

(٧) ابن ميسر ، ص ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٠ س ١ ، ٢ ص ٧٩ ١ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٢٣ .

على أن يشفع للمؤمنين خطاياهم (١).

والظاهر أن علماء الدين من الشيعة بالغوا — بصفة عامة — فى سلطة الإمام الروحية، فنسب المتطرفون منهم العقيدة الروحية للإمام إلى أصل خارجى عن الدين، لتوافق العقائد التى ظهرت نتيجة للفلسفة الأفلاطونية الحديثة (٢). فكانوا يؤمنون برجعة الإمام بعد موته؛ ويؤمنون (بالتجسيم)؛ ففى رأيهم، أن الإله حل فى جسم الإمام (٣)، أو هو (الحلول) نفسه، كما تقول الدرزية. فيؤكد حمزة — أحد دعاة الدرزية — فى رسائله عن الحاكم، هذا الرأى، بقوله: إن روح آدم التى هى مادة عليا، انتقلت إلى علىّ بن أبى طالب، ثم انتقلت بعدئذ من على إلى سلف الحاكم. ويزعم هذا الداعية أيضاً، أن روح الله قد حلت فى ذات الحاكم البشرية (٤). كذلك تعدّ بعض دعاة الفاطميين — غير الأمناء فى رواياتهم عن الإمامة الفاطمية — الحدود فى ذكر الصفة الروحية للأئمة الفاطميين (٥)، فنسبوا إلى خلفاء الفاطميين القدرة على معرفة الغيب والأسرار (٦).

وقد احتج خلفاء الفاطميين على هـــذه الادعاءات المبالغ فيها، واعتبروا دعوة هؤلاء الدعاة هرطقة (٧)، وأوحوا إلى بعض المؤلفين المحققين،

---

(١) أنظر. Goldziher: p. 6, (مقدمة) Streitschrift

(٢) أنظر. Massé: L'Islam, p. 150؛ بدوى، التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، ص ١٢.

(٣) ابن هانىء، ديوان، تحقيق زاهد، ص ١٥؛ انظر. Canard: L'imperialisme des Fatimides et leur propsgande. Annales de l'Inst. d' Et, Or, 1942 - 47, p. 191.

(٤) رسائل الدعاة، ورقة ٦١؛ السيوطى، حسن، ٢ ص ٤؛ صبح؛ ١٣ ص ٢٤٨؛ ابن تغرى بردى، تحقيق Popper، ص ٦٩. هذه الرسائل تبدو مزيفة.

(٥) النعمان، دعائم، ١ ص ٥٨؛ مجالس، ١ ورقة ١١٥.

(٦) النعمان، المجالس، ١ ورقة ٧٨؛ دعائم، ١ ص ٥٨؛ كتاب الهمة، ١ ص ٥٣.

(٧) النعمان، المجالس، ١ ورقة ٣٧١.

بتصنيف كتب لتنقية العقائد الفاطمية من مثل هذه الأغلاط[١]؛ فليس ثمة ريب في أن العقيدة المستقاة من الأئمة الفاطميين أنفسهم، تميز بين الأنبياء والأئمة. فهؤلاء لا يأتيهم الوحى الإلهى، ولا يعلمون الغيب وما تخفى الصدور، وأنهم مثل كل البشر[٢]. ونجد استبشاع هذه الادعاءات فى فقرة وردت فى كتاب: «المجالس والمسايرات»، يحمل المعز فيها على جرأة هذا الادعاء؛ فيوجه الكلام إلى النعمان، فيقول[٣]: «إنه انتهى إليك وإلينا، أنا ندفع نبوة محمد وندعى النبوة بعده، وندفع سنته وشريعته، وندعو إلى غيرها، فلعن الله من قال بهذا وانتحله وادعاه، ومن تقوّله علينا، ورمانا به، ونسبه إلينا». ثم يقول أيضاً: «فكيف ندعيها (النبوة) وندعى ما يصلى الله من ادعاه النار، ونقول بقول من أبطل نبوة جدنا محمد (صلع) من الكفار، والله سـائل من قوّلنا من ذلك ما لم نقله، ومؤاخذه بقوله». وأخيراً يقول: «إن المنتسبين إلينا، المتقولين ما لم نقله، أعداء لنا، وأضر من عدونا المناصب لنا، المباين بعدواتنا».

وفى الحقيقة، إن الفاطميين كانوا يميّزون دائماً بين مقام النبوة ومقام الإمامة[٤]، ويذودون عن الدين الإسلامى. ويمكننا أن نقارن السلطة الروحية للإمام — فى العقيدة الفاطمية — بالسلطة الروحية للبابا فى العقيدة الكاثوليكية.

وقد كان للإمامة الفاطمية زمام السلطة الزمنية، كما كان لها أيضاً زمام السلطة الروحية والدينية؛ فقد أقيم منصب الإمامة؛ لتخلف النبى فى حراسة الدين وسياسة الدنيا. ويعبر الإمام الرازى عن هذه الفكرة، بقوله: إن الإمامة أقيم منصب الإمامة لتخلف النبي فى حراسة الدين وسياسة الدنيا

---

(١) تاج العقائد، ص ١٨.

(٢) النعمان، دعائم، ١ ص ٥٨.

(٣) النعمان، المجالس، ١ ورقة ٣٥٨ — ٣٧١.

(٤) النعمان، كتاب الهمة، ١ ص ٣٩ س ١٣ — ١٤، ص ٤٥ س ٧.

هى حكم الدين والدنيا[١].

ولما كانت الإمامة الفاطمية وريثة النبوة ، فقد أسبغت عليها صفة القدسية.

فالإمامة هى ظل الله فى الأرض ، وهى صورة لفكرة قديمة مؤداها : أن الدولة والدين توأمان. فكان الإمام الفاطمى يشبه ملوك مصر القدامى ؛ أو ملوك الفرس. وكان طبيعياً ، أن تتجمع كل السلطة فى يده ، وأن تأخذ مظهر الحق الإلهى المقدس . فكانت سلطة الخليفة واسعة[٢] ، مثلما كان موجوداً فى معظم دول العصور الوسطى ؛ فهو يقوم بدور هام فى كل الأمور ، ويُبدى رأيه فى كل المسائل ، ويهيمن بنفوذه على كل دقائق الأمور التى تتعلق بالسياسة ، ويستقبل رُسل الملوك ، ويدير دقة الأمور الحربية . كذلك كان موظفو الدولة مسئولين أمامه ، فهو يفوض سلطته إلى عدد كبير من الموظفين : وزراء ، وولاة ، وقواد ، وقضاة ، ودعاة ، وغيرهم من أرباب الوظائف ؛ فكانت سلطة هؤلاء مستمدة من سلطته ، التى لا يمنحها إلا للذين حازوا ثقته ، وبرهنوا على إخلاصهم الشديد لعقيدة الدولة.

ولكن لم يمنع ذلك ، بعض كبار أرباب الوظائف ، من التحكم بنفوذهم فى سلطة الإمام المقدسة ؛ فقد وجد وزراء سيف تدخلوا بنفوذهم فى تولية الأئمة ؛ بحيث أصبح هؤلاء ألعوبة بين أيديهم . على أن ازدياد ضعف الإمام ، أدى إلى زيادة نفوذ الوزراء ، ومن ثم فإن سلطة الإمام الزمنية قضى عليها نهائياً[٣].

وكان للفاطميين ، الذين يقومون بهذه السلطات : الدينية والروحية والزمنية ، ألقاب عديدة تدل عليها .

فكان من أهم ألقابهم لقب : «إمام» ، الذى اشتقت منه كلمة إمامة ، التى تميز

---

(١) أنظر : Laoust: Le Califat dans la doctrine de Rachid Rida, p. 15.

(٢) أنظر : Fagnan: Les Statuts gouvernementaux au règle de droit public et adminstratif (al-Mâwardi) , p. 2.

(٣) أنظر . بعده .

مرتبة الخليفه الفاطمى فى مصر. وهو أيضاً من أقدم ألقابهم ؛ فقد ظهر قبل قيام دولتهم فى إفريقية (تونس)، وكان يلقّب به علىّ، وبقى طوال العصور الوسطى. وكان لقب « إمام » من أفضل التسميات عند زعماء الفاطميين[1]؛ فكان ينقش دائماً على قطع النقود[2]، ويذكر فى المراسلات الرسمية[3]، وكلمة « إمام » تدل على عدة معانٍ فى القرآن[4]، منها : « متقدّم »، و « هاد »، و « زعيم » و « وقدوة »؛ وإن كان المعنى الغالب : « الإمام الذى يُقتدى به فى الصلاة »[5]. فمن هذه المعانى يستمد خلفاء علىّ سلطتهم الدينية والزمنية ؛ فكان هذا اللقب عند الفاطميين غير منفصل عن أئمتهم، بسبب طبيعة أشخاصهم الخاصة، فى حين أن لقب « إمام » عند السنيين يدل على الخليفة الذى بايعته الأمة[6].

وعلى العكس، تجافى الفاطميون عن لقب « خليفة »[7]، الذى استعمله السنيون بكثرة، فلا نجده منقوشاً على قطع النقود أو فى المراسلات الرسمية. ومع ذلك، فهذا اللقب يدل على زعيم الأمة الإسلامية، منذ موت النبى. وأصل كلمة « خليفة » فى فعل « خَلَفَ »، وهى فى معناها الفقهى، تدل على المجىء بعد آخر، باستخلافه فى الزمن. ويرى بعض الفقهاء[7]، أن لقب « خليفة » يدل على معنى « النيابة »، وأن هذه الكلمة تدل على الشخص

---

(١) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٤٠٩.

(٢) Lavoix : Cat. des monn. musul. de la bibl. N; 3, p. 66, : Sauvaire: 67,68,97 Mat. pour servir à t'hist de la Num, p. 228,.

(٣) السجلات المستنصرية، أنظر.

(٤) سورة ٢١ آية ٧٣ ؛ سورة ٢٥ آية ٧٤ ؛ سورة ٤٦ آية ١٢.

(٥) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٤٤.

(٦) أنظر. Sanhoury : Le Califat, p. 75.

(٧) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٤٤ — ٥ ؛ انظر. Ostrorog : Le droit du, Califat, p. 142 - 3.

(٨) Van den Berg : Principes du droit muqulman, p. 202. ترجمه من الهواندية De Terant.

الذى يقوم مقام النبى كنائب عنه فى أمته . وهذا اللقب « خليفة » ، لم يكن محبباً لدى الشيعة ، مع أنهم استعملوه ؛ فقد كانوا يُفضلون عليه لقب « إمام » ، لأنه يدل على سلطتهم الدينية التى جاءتهم مباشرة من الله ، ولا يعنى فقط فكرة المجىء بعد النبى . وعلى العكس ، تمسك السنيون بلقب خليفة وفضلوه على لقب إمام لدلالته على أئمة الشيعة .

وعلاوة على لقب إمام ، كان للفاطميين لقب آخر ، فى غاية الأهمية ، هو لقب: « أمير المؤمنين »[1] ، وهو الذى أضافه عُبيد الله ، عند تأسيسه الخلافة الفاطمية ، فى إفريقية (٢٩٧/٩٠٩)[2] . فكان هذا اللقب ذا أهمية خاصة فى الاعتقاد الشيعى ، لأنه يبين صفتهم الروحية التى ورثوها من أسلافهم ، ويشرح كُنه عقائدهم الباطنية . فكلمة « مؤمن » مشتقة عن كلمة « إيمان »[3] ، الذى له مقام كبير فى العقيدة الفاطمية . وهذه الأهمية عند الفاطميين ، ولا ريب ، لها سند فى القرآن[4] فى قوله تعالى: ﴿ قالت الأعرابُ آمنا ، قُل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يَدْخلُ الإيمان فى قلوبكم ﴾ . فكان الإيمان يصحبه الإسلام ، أما الإسلام فقد لا يصحبه الإيمان[5] ، والإسلام — فى رأيهم — ظاهر ، بينما الإيمان من صنع الله فى القلب ، فهو (باطن) ، يشمل فكرة الإقرار ، التى هى اعتراف بالوحى ، الذى هو اعتراف بالله وبالنبى وبالأئمة الفاطميين[6] ،

---

(١) السجلات المستنصرية . أنظر . كان عمر بن الخطاب ، أحد الصحابة ، أول من اتخذ هذا اللقب . أنظر . ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٨ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥ س ٣٤ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٣) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٣ — ٥ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٥ ؛ قرآن ، سورة ٤٩ آية ١٤ .

(٥) النعمان ، دعائم ، ١ ص ١٥ — ١٦ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٥ ؛ المجالس ، ٢ ورقة ٢٧٩ ؛ أنظر ، كاشف الغطاء ، أصل الشيعة ، ص ٩٦ .

ولهذا اتخذ لقب « أمير المؤمنين » أهمية خاصة . أما عن كلمة «أمير» ، فإن الفاطميين والخلفاء السنيين لم يختلفوا فى معناها. ولعل استعمالهم لقب«أمير» بدل « ملك » ، مع أن كلاً منهما يدل على صاحب السلطة العليا ، قد يفسره هذا التعبير اللاتيني المعروف : « Primus inter Pares » ، أى « الأول بين أقرانه » [1] ،وخصوصاً أن كلمة أمير كانت تطلق عادة على قواد الجيش .

كذلك كان أئمة الفاطميين ، على الرغم من سلطانهم الروحي والديني الواسع ،يظهرون التواضع والخضوع لله، فكانوا يسبقون اسمهم فى المراسلات الرسمية ، بعبارة : « من عبد الله ووليه » [2] .

أما عن « اللقب » فقد كان عند الأئمة الفاطميين مثلما كان عند جميع ملوك المسلمين الآخرين ، يشتمل دائماً على كلمة « الله » [3] . وقد اتخذ الفاطميون اللقب لأول مرة فى عهد عبيد الله ، جد فاطمي مصر ، فتلقب « بالمهدى » ، وسار خلفاؤه على سنته فى اتخاذ اللقب، حتى آخر ملوكهم ، « العاضد لدين الله » . وقد قيل بأن اللقب عند خلفاء الفاطميين فى مصر ، كان موجوداً قبل « المعز لدين الله » [4] ، حتى إذا تولى واحد منهم لقبوه ببعض تلك الألقاب . كذلك كان اللقب عند الفاطميين وسيلة لتأييد نفوذ إمامتهم؛ فقد اتخذ « الحافظ لدين الله » ، ألقاباً فخمة لم يسبق إليها ؛ بعد موت ابن عمه « الآمر بأحكام الله » ، الذى لم يترك ولداً ذكراً ؛ نذكر منها : « مولانا وسيدنا ، إمام العصر والزمان » [5] .

(١) أنظر . The Legacy of Islam, p. 298 .

(٢) السجلات المستنصرية ، أنظر .

(٣) Van Berchem : Titres califiens, j. A. 1907, p. 259.

كان المنصور بالله ، أول خليفة عباسى ، اتخذ مثل هذا اللقب .

(٤) ابن إياس ، بدائع ، القاهرة ١٨٦٦ — ١٢٩٧ ، ١ ص ٦٧ .

(٥) السيوطى ، حسن ، ٢ ص ١٦ ؛ انظر Wiet. L'Egypte, 4, p. 271. sqq.

وكان للخلفاء الفاطميين أيضاً ، تسمية عامة لا تدل على لقب ، ولكن على نعت، ويقصد بها « السلطة » أو « النفوذ »؛ هى كلمة « سلطان »[١]. فكانت هذه التسمية لا تظهر فى المراسلات الرسمية ، ولا تنقش على العملة، وإن كرذها الرحالون والمؤرخون. ولقد أطلق لقب «سلطان» أيضاً على الوزراء والأمراء فى الدولة الفاطمية ، ولكنه لم يصبح لقباً ملكياً فى الدولة الإسلامية ، إلا بمجىء السلاجقة، وذلك حينما نقشه طغرل بك على العملة .

وكان يوجد أيضاً ، ألفاظاً أخرى ، تبدو أنها كثيرة الاستعمال فى رسوم القصر ، وفى طريقة مخاطبة الإمام ، مثل : لفظة « مولانا »[٢] ، ولفظة «سيدنا» . وعلى الرغم من أن الحاكم بأمر الله تشدد فى المنع عن مخاطبته بهذه الألفاظ[٣]، فإن الصفة الرسمية بقيت لهاتين اللفظتين طول العصر الفاطمى .

وكذلك جرت العادة أن تذكر فى المكاتبات، عبارة مميزة للفاطميين، عند ذكر أسماء الأئمة ، تحت هذه الصيغة : « صلى الله عليه وسلم[٤] » . وأصل هذه العبارة فى الدعاء لإبراهيم وآله فى الصلاة ، وهى تدل على اعتقاد الفاطميين فى طبيعة أئمتهم الإلهية .

ونجد بالاضافة إلى هذه الألقاب والصفات ، كلمات ذات صبغة مذهبية

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٤٥ ؛ Sefer Nameh, ; Nàçiri Khusrau ; trad. Schefer, p. 156—9 ؛ انظر . Kramers: "Art Sultan" ، فى دائرة المعارف الإسلامية ، بالفرنسية .

(٢) النعمان ، شرح ، ورقة ٢ .

(٣) يحيى الأنطاكى ، ٥١٤ .

(٤) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ٣٧٧ ؛ دعائم ، ١ ص ٤٨ .

بحتة ، تُطلق على الأئمة الفاطميين ، مثل : « الحضرة »[١] أو « الحضرة الشريفة »[٢]،أو « الباب[٣]» (أى الباب الذى عن طريقه تصل الشفاعة للمؤمنين من الله)، أو « إمام الزمان » ، أو « صاحب الزمان »[٤] ، أو فقط كلمة « عترة »[٥] (بمعنى أقرباء النبى) ، أو « مقام »[٦].

كذلك كان يُضاف إلى اسم كل شىء يتعلق بالإمام ،صفة تدل على تقديسه، مثل : « التاج الشريف »[٧] و « المائدة الشريفة[٨]»، وهذه العبارات تميز الفاطميين .

إلى ذلك كلمات ذات صبغة مذهبية بحتة تطلق على الأئمة الفاطميين مثل الحضرة ، أو الحضرة الشريفة ، وغيرها
كذلك كان يضاف إلى اسم كل شىء يتعلق بالإمام صفة تدل على تقديسه مثل التاج الشريف والمائدة الشريفة

---

(١) السجلات المستنصرية (٥) ص ٤٣ ، (٥٧) ص ١٨٩ ؛ (٥٨) ص ١٩١ و١٩٢؛ أنظر Clermont Ganneau: Rec. d'Arch, Or, 4, Paris 1901,p.284-7.

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، تحقيق Popper ، ٢ ص ١٤ .

(٣) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ٥ ؛ عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٤٢ .

(٤) النعمان ، شرح ، ورقة ٢ .

(٥) السجلات المستنصرية : (٣) ص ٣٨ ، (٤) ص ٣٩ .

(٦) الهداية ، ص ١٤ ؛ ٢٨ ؛ ٣٤ .

(٧) السجلات المستنصرية : (٤٣) ص ١٥١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٨ س٥.

(٨) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٧٥ س ٥ .

الفصل الثانى

الوزارة

التسميات المختلفة — ألقاب الوزراء — تولية الوزراء —
علاماتهم — اختيارهم .

الوزارة نظام متعارف عليه فى الدول الإسلامية فى العصور الوسطى ،وهى من أصل ساسانى [(١)]، وتعتبر أرفع المناصب وأسماها ، وتسمى عند الفاطميين « رتبة » [(٢)] ؛ كلمة تطلق على الوظائف العامة التى كانت الوزارة واحدة منها .وهذه الرتبة فى الدولة الفاطمية — كما فى غيرها من الدول الإسلامية — تنقسم إلى نوعين : وزارة القلم ووزارة السيف [(٣)]. ولكن الوزارة الفاطمية ، بتسمياتها المختلفة فى ذلك العصر ، كانت من مميزات هذه الدولة ؛ فالفاطميون هم الذين أجروا نظامها وقرروا قواعدها . فكانت الوزارة فى أوائل عهد الدولة الفاطمية فى مصر ، يعبر عنها بألفاظ خاصة ؛ فقد أوجد الفاطميون ما يُعرف برتبة : «الوساطة » [(٤)]، وكان الذى يتولاها يسمى : « بالوسيط» ، لأنه كان يتوسط بين الخليفة ورعيته [(٥)] . ويحدثنا المقريزى [(٦)] خاصاً « بالوساطة » ،

---

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٥ ؛ انظر Christensen: L'Empire des Sassanides, p. 115 ; L'Iran sous les Sassanides, p. 30-32 ; Goitein: The origin of the vizierate and its true character, Isl. Cult. July 1942, vol. XI. nos. 3, p. 255-263.

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٣٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٤٤٠ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٩ ؛ ٢ ص ١٤٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٤٤٠ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٩ ؛ ٢ ص ١٤٩ .

(٤) نفسه ؛ نفسه ؛ ابن ميسر ، ص ٥٤ ؛ ابن الصيرفى ، الإشارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، (أنظر B. I. F. A. O. ، ٢٥ ، ١٩٢٥ ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ .

(٥) ابن القلانسى ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨١ س ٢٣ — ٢٤ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٣٩ . يصعب علينا البحث عن أصل هذه التعبيرات ==

أنها كانت تصحب غالباً بما يعنى : «السفارة»، لتدل على رتبة من يقوم بتنفيذ رغبات الخليفة . وربما يرجع سبب استعمال مثل هذين اللفظين، إلى رغبة الخليفة فى تحقيق أغراض سياسية؛ فقد كان الخليفة الكبير . يفضل فى أول عهد الدولة فى مصر ، الإبقاء على كل سلطته والاستئثار بكل سيطرته ، فكان يعتمد فى تصريف الأمور على « وسيط » وليس على « وزير » .

ولنفس الأسباب؛ كان الخلفاء الفاطميون يكلون أحياناً أمور دولتهم إلى موظفين فى خدمتهم أو إلى « كتّاب» عاديين ؛ دون أن يكون لهم لقب «وسيط» أو حتى لقب « وزير » ، وإنما كانوا يلقبونهم بألقاب منها « موقّع »[١] أو «مدبّر»[٢] ، يكون لهم حق تصريف الأمور بعد الرجوع فيها إلى الخليفة .

أما تسمية الوزير « وزيراً » فإنها لم تظهر إلا فى أيام العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ / ٩٧٥—٩٩٦)[٣] ، ثانى خلفاء الفاطميين فى مصر ، على الرغم من أنها

= الاصطلاحية . ومع ذلك ، فإنه من الطريف أن نذكر أن لفظة « وساطة » كانت تستعمل أيضاً عند بويهى العراق — المعاصرين للفاطميين — لتدل على مرتبة وزير الملك البويهى (أنظر . ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، تحقيق Caetani ، ٢ ص ١٠ ٤ س ٣) . وهذا التقارب بين نظامى الوزارة فى الدولتين ، يظهر مرة أخرى ، فى عهد عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ / ٩٧٧ — ٩٨٢) ، الذى أسند الوزارة إلى وزير نصرانى ، كما كان يفعل الفاطميون ، وسيأتى ذكر ذلك فى حينه . وعلى عكس الفاطميين ، كان للبويهيين فى بعض الأوقات وزيران فى وقت واحد ، أحدهما فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية البويهية ، والثانى فى القسم الغربى ، منها (ابن الأثير ، Annales ، ٩ ص ٦٧ س ١—٢ ؛ انظر . Goitein : The origin of, the vizierate, Isl. Cult, XVI, 4, Oct 1942, p. 386 . وكذلك ، يصعب علينا معرفة أصل العبارتين : « وزارة التنفيذ » و « وزارة التفويض » ، اللتين كانتا تستخدمان للدلالة على نوعى الوزارة فى الدول الإسلامية فى ذلك العصر . هذان التعبيران ذكرهما الماوردى فى مؤلفه ، دون تعليق على أصلهما (أنظر . Fagnan : Les Statuts Gouvernementaux ; وأدب الوزير ، طبعة القاهرة) . وسنقف فى الصفحات التالية على تطور هذه العبارات فى الوزارة الفاطمية .

(١) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥ — ٢٦ .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١١٦ . فى رمضان ٣٦٨ (إبريل ٩٧٩) ، لقب أبو الفرج يعقوب بن يوسف ، المعروف بابن كلس ، الذى كان فى خدمة العزيز =

كانت معروفة فى عهدى الطولونيين والإخشيديين ، قبل مجى الفاطميين [1] ، وإن كان هذا اللقب لم يثبت إلا فى عهد الظاهر ، رابع خليفة فاطمى فى مصر ، (٤١١ — ٤٢٧ / ١٠٢٠ — ١٠٣٥) .

وقد وصل إلينا المعنى المقصود من هذه الكلمة (وزارة) ، فى سجل تولية الجرجرائى [2] ، الذى قام بوزارة الظاهر ، فى سنة ١٠٢٧/٤١٨ . فيبدو أن أصلها مشتق من كلمة (أزْر) أى ظهر وقوه ، تعنى أن الخليفة يعتمد فى تصريف الأمور على الوزير ، كما أن الجسم يجد قوته ونشاطه فى الظهر . ولهذا المعنى سند فى القرآن [3] : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارونَ أخى ، أشدُدبه (أزرى) واشرِكْه فى أمرى ﴾ ، وقد وردت هذه الآية نفسها فى سجل تولية الجرجرائى [4] .

وعلاوة على ذلك ، تبدو كلمة وزير ، فى كتب مؤرخى العرب ، مشتقة من

= بالوزير الأجل . أنظر . تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ ص ٤٥ — ٤٦ ؛ Ency de l'Isl, 2, p.422—423.: Becker. ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص٦ — ١٠ ؛

(١) يؤكد السيوطى أن مصر كانت ولاية بلا وزارة إلى أيام الطولونيين (٢٥٤ — ٨٦٨/٢٩٢ — ٩٠٥) ، ويذكر اسم أبى بكر محمد بن رستم المدرائى ، الذى وزر الأمير الطولونى ، خمارويه . (أنظر حسن المحاضرة ، ٢ص ١١٥ — ١١٦ ؛ Les Tulubides,: Zaki p. 194) . ويذكر أيضاً ، فى أيام الإخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨ / ٩٣٤ — ٩٦٨) ، وهم تولوا حكم مصر بعد الطولونيين ، أبا الفضل جعفر بن الفرات ، الذى وزر للإخشيد ، واستمر فى الوزارة حتى وصاية كافور . . ولكن لما وصل الجيش الفاطمى ، رفض جوهر أن يلقب ابن الفرات بلقب الوزير ، فقال : « ما كان وزير خليفة » . وإن كان بعد مضى عدة سنوات من حكمهم ، منح الفاطميون هذا اللقب (وزير) لابن كاس ، الذى كان أول من تلقب به . أنظر السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١١٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٣٩ ؛ اتعاظ ، طبعة القدس ١٩٠٨ ، ص ٧٠ ؛ انظر . حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام ، ٣ ص ٤٤٢ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٨٠ — ٨٣ ؛ انظر . حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام ، ٣ ص ٤٤٥ — ٤٤٦ . كان الجرجرائى من جرجرايا قرية فى العراق ، خدم فى دواوين الفاطميين فى عهد الحاكم بأمر الله ، الذى أمر بقطع يديه لعقابه على عدم أمانته ، وذلك لاطلاعه على رسائل هذا الخليفة دون إذن . وقد وزر الجرجرائى — بعد الحاكم — للظاهر والمستنصر وتوفى فى ١٠٤٥/٤٣٦ . أنظر . ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٥ — ٣٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥٥ ؛ ٢ ص ٢٩٨ .

(٣) سورة ٢٠ آية ٢٩ — ٣٢ .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٨١ .

كلمة (المؤازرة)أى المعاونة،حيث أن الوزير يعاون الخليفة فى أمره ؛فى نفس السجل [١] يقول الخليفة : « فسماك بالوزير ، لمؤازرتك له على حمل الأعباء » وكذلك كانت رتبة الوزارة — فى هذا السجل — جامعة أيضاً لرتبة (الوساطة)، التى تضاف إليها رتبة السفارة [٢] ، كما ذكرنا آنفاً .

ومن جميع هذه المعانى تتكون : « وزارة التنفيذ » ، أى الرتبة التى تشتمل على جميع أمور المملكة،وتؤهل متوليها — وكان غالباً من أرباب الأقلام — للمكان الثانى مباشرة بعد الإمام . فكان لهذا الأخير الإشراف على جميع تصرفات الوزير [٣] ، الذى لم يكن له أى سلطة على أرباب المناصب الكبار من قبل الخليفة ؛ ولذلك فهو وزير ذو سلطة محدودة .

ولكن بعد سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤ ، وهى السنة التى قام فيها بدر الجمالى [٤] بوزارة مصر ،أخذت الوزارة معنى آخر غير الذى سبق .فى بعض السجلات [٥] الصادرة عن ديوان إنشاء الدولة الفاطمية فى ذلك العصر ، يظهر بدر كمنقذ للخلافة الفاطمية ، وحتى كوالد للخليفة المستنصر يلجأ إليه فى تصريف جميع الأمور . معنى هذا ، أن الوزارة تحولت إلى سلطة استبدادية ، وكان بدر « وزير سيف » [٦] ، وبه بدأ استبداد وزراء السيوف . فقبل بدر — فى عصر الخليفة

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) Fagnan : Les Statuts Governmentaux (al-Mâwardi), p.43.

(٤) كان بدر مملوكاً أرمنياً للأمير السورى ، جمال الدولة بن عمّار ؛ ومن ذلك جاء تلقيبه «بالجمالى» . وقبل دخول الوزارة ، عين حاكماً على دمشق مرتين ، ثم والياً على عكّة . وقد استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦/١٠٧٣ ، لإخضاع القواد العصاة؛فأعاد بدر النظام ، وولى الوزارة. أنظر . الإشارة، ص ٥٥ — ٥٦ ؛ ابن ميسر ،ص ص ٢٢ — ٣٠؛المقريزى، الخطط، ١ص ٣٨٠وبعدها ؛ العينى،عقد الجمان، ٢٠ ورقة ٨٠١ ؛ انظر .
Van Berchem : Corpus, Inscription arabe, l'Egypte, II, 32, Becker : Ency. de l'Isl, I, p. 571—572. : 33, 36, 39, 516—518 Wustenfeld : Gesch. der Fat. Chalifen, p. 204 et suiv.

(٥) السجلات المستنصرية : (٣٥) ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٦) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٥٦ .

الحاكم — تولى « الوساطة » بعض أرباب السيوف [1]، ولكن السلطة العليا على الأمور بقيت دائماً فى يد الخليفة ، الذى كان له حق التدخل فى شئون الدولة وتصريفها حسب إرادته .

ولكن منذ بدر ، تحولت وزارة السيف إلى وزارة تفويض [2]، فكان الخليفة يفوض إلى وزيره جميع أمور الدولة لتصريفها ، ولم يعد له أى سلطة على هذه الأمور ؛ بل تطاول الوزير على سلطة الخليفة الدينية . فكان وزراء التفويض الفاطميين ، أشبه بامراء القصر فى عهد الدولة الميروفنجية ، يتدخلون فى تولية الإمام وولىّ عهده [3]؛ بحيث غدا هؤلاء لعباً بين أيديهم .

وقد عظم أمر وزراء السيوف وقويت شوكتهم، نتيجة لضعف نفوذ وزراء القلم [4]؛ فكان هؤلاء فى الفترة الأخيرة دائمى الصرف والإعادة ،ولا يتولون الوزارة إلا لمدة بضعة أيام . ففى خلال أربع سنوات ، تولى الوزارة أكثر من عشرين وزير قلم [5]، مما يدل على فشل هذا النوع من الوزراء ، الذين كانوا أضعف من أن يقرّوا النظام فى الدولة .

(١) نعرف من بين أرباب السيوف الذين تولوا الوساطة : برجوان فى ٣٨٧ — ٣٩٠/٩٩٧ — ١٠٠٠ (أنظر . يحيى الأنطاكى ، ص ٤٥٣ و ٤٦٢ ؛ الإشارة ، ص ٢٧ — ٢٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٨٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٩) ؛ والحسين بن جوهر فى ٣٩٠ — ٣٩٨/١٠٠٠ — ١٠٠٨ (أنظر . يحيى الأنطاكى ، ص ٤٦٢ و ٤٨٨ ؛ الإشارة ، ص ٢٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٨٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٩) ؛ وصالح بن على صالح الروذبارى فى ٣٩٨ — ٤٠٠ / ١٠٠٨ (أنظر . يحيى الأنطاكى ، ص ٤٨٨ و ٤٩٢ — ٤٩٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٨٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٩) .

(٢) السجلات المستنصرية : (٣٤) ص ١٠٨ ؛ (٥٩) ص ١٩٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٣٩ .

(٣) نفسه : (٣٥) ؛ (٤٣) .

(٤) ابن ميسر ، ص ٣١ — ٣٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥٦ س ٢٠ ؛ صبح ٣ ص ٤٨٩ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥٦ س ١٨ — ٢٠ .

ولما كان الخليفة الفاطمى عاجزاً عن قمع الثورات التى ازدادت شدة بسبب ضعف وزرائه ، فإنه التجأ إلى بدر ، والى عكـة ، لينقذ عرش خلافته ، بإعادة القواد إلى الطاعة ؛ فأجاب بدر دعوة الخليفة ، ولقاء ذلك ، فوض إليه الخليفة جميع سلطاته [١] ، فأصبح رئيس الدولة الفعلى . فقد ورد فى سجل تولية بدر: «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ماوراء سريره [٢] » . فكانت سلطة بدر تمتد إلى كل شىء: فكل الأمور فى المملكة، مردودة إليه (فوض إليه أمور الملك) [٣] ، وهو أيضاً صاحب الحل والعقد فى سائر الأمور [٤] ، وله أن يولى كبار موظفى الدولة ؛ فهو وزير ذو سلطة مطلقة.

وقد كان لهذا الوزير ، صاحب السلطة المطلقة ، ألقاب تدل على سلطته الواسعة، وهى الألقاب التى تميز رتبة الوزير الفاطمى فى مصر. وقبل أن نذكر ألقاب هذا الوزير ، سنشير إلى ألقاب الوزارة الفاطمية منذ بدايتها ؛ وقد حدث لها تطور ملموس فى عهد الفاطميين ، فى خصائصها التى تدل عليها .

فكان وزير التنفيذ يتلقب : «بالوزير» [٥] ، تصحبه — كما ورد فى سجل تولية الجرجرانى — لفظة : « الأجل » [٦] .

ولكن منذ بدر ، أصبح لوزراء التفويض ألقاب جديدة، تستعمل للدلالة

---

(١) السجلات المستنصرية : (٣٤) ؛ (٥٩) .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٠ س ١٠ — ١١ .

(٣) السجلات المستنصرية : (٣٤) ص ١٠٨ .

(٤) نفسه ؛ الماوردى ، أدب الوزير ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ١٠ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، القاهرة ١٩٢٦ ، ٦ ص ٩٨ .

(٥) ابن القلانسى ، ص ٨١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٦٢ س ١٠ .

(٦) ابن القلانسى ، ص ٨١ .

على سلطتهم الواسعة، التى جاءتهم عن طريق التفويض. فقد كان وزراء التفويض يجمعون فى أيديهم جميع السلطات : المدنية والحربية والقضائية وحتى الدينية ؛ فكانت جميع الأمور بدون استثناء مستمدة من نفوذهم ؛ وهاهى الألقاب التى تدل على اختصاصاتهم الواسعة ، فى جميع أمور الدولة .

كان أهم ما يختص به وزير التفويض لقب : «أمير الجيوش»[1] ، وهو لقب قديم ، كان يُطلق سابقاً على قائد الجيش الفاطمى فى الشام[2] . ولكن وإن تلقب شيركوه — وزير تفويض العاضد آخر خلفاء الفاطميين — « بسلطان الجيوش »[3] ؛ فذلك بسبب سيطرته على جيوش الخليفة الفاطمى ، وجيوش نور الدين أمير حلب ودمشق .

ثم إن وزير التفويض كان يتلقب بلقب : « كافل قضاة المسلمين » ، وبلقب : « هادى دعاة المؤمنين »[4] ؛ فكان هذان اللقبان يمنحان لوزير التفويض السلطة القضائية ، والسلطة الدينية ، والقيام بمنصبى قاضى القضاة وداعى الدعاة. ولكن عملياً ، كانت العادة أن يستخلف الوزير فى المنصبين نواباً عنه؛ فكان هؤلاء النواب يستمدون نفوذهم من سلطته مباشرة . أما إذا كان وزير التفويض نصرانياً ، كما حدث مرة واحدة فى ٥٢٩ / ١١٣٥ ، حينما اعتلى بهرام الأرمنى

---

(١) السجلات المستنصرية : (١٤) ص ٦٦ ؛ (١٦) ص ٧٩ ؛ (١٩) ص ٩٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٧٤ ص ١٢ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ص ١٣٥ .

(٣) أبو الفداء : (أنظر . Rec. des Hist, des Crois, I, p. 41 ؛ صبح ، ١٠ص ٦ و ٨٠ . كان أبو الحارث أسد الدين شيركوه ، فى أول الامر ، قائداً لنور الدين أمير حلب ودمشق ؛ وقد استدعاه الخليفة العاضد ، حينما حاصر الفرنج القاهرة . ولكن بعد انسحابهم ، عمل شيركوه فى خدمة الخليفة الفاطمى ، ورفض الاستماع الى نداءات نور الدين الحارة. وقد مات شيركوه بعد أن قام فى الوزارة أكثر من شهرين، [توفى] فى ٢٢ جمادى الآخر سنة ٥٦٤ / ٢٣ مارس ١١٦٩) . أنظر. عمارة، ديوان، ترجمة Derenbourg ، ٢ ص ٣٩٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥٨ ، ٢ ص ٢٣٣ و ٣٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق، Popper ، ٣ص ١٠٠ ؛ انظر. Wiet : Ency. de L'isl. 4, p. 396-7.

(٤) السجلات المستنصرية : (١٤) ؛ (١٦) ؛ (١٩) ؛ ابن ميسر ، ص ٢٦ .

وزارة الحافظ ، فإنه بطبيعة الحال لا يجمع المنصبين فى سلطته العامة ؛ فكان الخليفة الحافظ إذاً ، يعين من قبله من يشغل المنصبين [١] ؛ فيولى بنفسه قاضى القضاة وداعى الدعاة . ولقد أثار فقهاء ذلك الوقت معارضة شديدة فى تولية بهرام ، لأنه كان على وزير التفويض — فى بعض المناسبات — أن يصعد المنبر مع الخليفة ، وأن ينظر فى سائر المناصب الدينية . وكذلك إذا كان وزير التفويض غير فاطمى ، كان الخليفة هو الذى يتكفل بتوليتهما [٢] ، ولا سيما فى العهد الأخير من الدولة ؛ فقد تدخل نور الدين بجيشه فى شئون مصر السياسية ، فكان وزراء الخليفة الفاطمى إذ ذاك من السنة . ومع ذلك ، فقد كان ينص على لقبى : « كافل قضاة المسلمين » و « هادى دعاة المؤمنين » ، فى سجل تولية هؤلاء الوزراء من غير الشيعة [٣] . ومن المحقق ، أن الجمع بين المنصبين والوزارة لم يتحقق إلا فى القليل النادر ، فهما إذا كانا قد ذكرا فى سجلات تولية وزراء التنفيذ ، فلكونهما إضافيين إلى رتبة الوزير ، وليس لذاتهما [٤] ؛ حيث كان المنصبان من اختصاص الخليفة .

أما لقب : « وزير » — الذى كان يُطلق على وزير التنفيذ — فقد تركوه ، وإن بقيت لفظة : « الأجل » ، التى كانت تصحبه ، لتكون نعتاً للقب الجديد : « سيد » ؛ فكان يقال : « السيد ، الأجل » بدلاً من « الوزير ، الأجل » .

هذه الألقاب جميعا ، كانت لوزير التفويض ، منذ بدر حتى نهاية الدولة الفاطمية ؛ فكان يُقال له : « السيد ، الأجل ، أمير الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين » [٥] .

ولكن حدث لهذه الألقاب إضافات جديدة خلال هذه الفترة ، ففى وزارة

---

(١) ابن ميسر ، ص ٧٩ ؛ ابن حجر ، رفع الإصر ، ورقة ٨٦ — ٨٧ .

(٢) صبح ، ١٠ ص ٤٢٤ — ٤٣٤ ، ٤٣٤ — ٤٣٩ .

(٣) نفسه ، ١٠ ص ٦ ، ٨ .

(٤) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٤٠ و ٤١ ؛ ابن ميسر ، ص ٥ ، ٨ .

(٥) السجلات المستنصرية : (١٥) ؛ (١٩) ؛ (٢٠) ؛ (٢٧) ؛ (٣٧) ؛ (٤٦) ؛ (٥٣) ؛ (٦٣) ؛ (٦٤) .

أبى القاسم شاهنشاه (٤٨٧ — ٥١٤ / ١٠٩٤ — ١١٢١)، ابن الوزير بدر، أضيف لقب الأفضل؛ فكان يُقال له: السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، كافل قضاة المسلمين، هادى دعاة المؤمنين»[١]، وصار يتلقّب بهذا اللقب وزراء التفويض من بعده.

وللوزير رضوان بن ولخشى للحافظ، فى سنة ١١٣٧/٥٣١، حدثت زيادة جديدة فى ألقاب الوزير. فلم تكن الألقاب القديمة، ولا خصائصها التى تدل عليها، تكفى للدلالة على نفوذه الواسع، ولذلك أضاف إلى بقية الألقاب، لقب: «ملك»[٢]؛ فكان يقال له: «السيد، الأجل، الملك، الأفضل». ومنذ ذلك الحين صار الوزراء من بعده يتلقّبون به، فتلقّب الوزير طلائع بن رزيك (١١٥٤/٥٤٩)، «بالملك المنصور»[٣]، وتلقّب ابنه رزيك (٥٥٦ / ١١٦١)، «بالملك

---

(١) نفسه : ٣٥ ، ٤٣ ، ٥٩ ؛ العينى ، العقد ، ٢٠ ورقة ٨٠١ . تولى أبو القاسم شاهنشاه ، الملقب بالأفضل ، الوزارة للخليفة المستنصر ، فى أثناء حياة أبيه بدر . فلما مات هذا الخليفة فى ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، أجلس الأفضل على عرش مصر المستعلى ، وهو الابن الثانى للمستنصر ، لكى تسهل سيطرته على الدولة. وعند وفاة المستعلى ، فى ١١٠١/٤٩٥ ، لم يضعف نفوذ الأفضل إطلاقا ؛ فأجلس فى الخلافة ، المنصور بن المستعلى ، وكان لايزال طفلاً له من العمر خمس سنين ، ولقبه : بالآمر ؛ فاستمر الأفضل ، قرابة عشرين عاماً ، يحكم وحده فى مصر. ولكن تحت تحريض الخليفة الشاب ، قتل الأفضل فى رمضان ٥١٥ /ديسمبر ١١٢١. أنظر نفسه؛ ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٥٧ — ٦٢ ، ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ ص ٢٩٧ـ٣٧٧؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٢٣ ؛ الذهبى ، تاريخ الإسلام ؛ ورقة ١٥٤ — ١٥٨ ؛ انظر . Wustenfeld : Gesch. der Fat. Chalifen, p. 270 et suiv. ; Hurat : Ency. de l'Isl, I, p. 148–9.

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٠ س ١٦ — ١٧ ؛ أبو الفدا ، Annales ، ٣ ص ٤٦٨ . كان رضوان بن ولخشى وزير الحافظ ، ثامن خليفة فاطمى فى مصر ، قد استحوذ على كل السلطة فى الدولة ، وأراد عزل الخليفة ، مما أدى إلى قتله فى ٥٤٢ | ١١٤٧ . أنظر ، الخطط ، ١ ص ٣٥٧ س ٢٠ — ٢٧ ؛ ابن ميسر ، ص ٧٩ — ٨٧ .

(٣) تولى طلائع بن رزيك ، بعد قتل الظافر ، وزارة الخليفة الصغير الفائز ، فى ٥٤٩ / ١١٥٤ . وقد استمر طلائع فى منصب الوزارة ، حتى بعد موت الفائز فى ٥٥٥ / ١١٦٠ ، وتولية ابن عمه الصغير ، العاضد ، آخر الفاطميين. ولكن تضييقه على نساء القصر ، أثار الدسائس ضده ، وعلى الأخص حقد عمة الخليفة ، مما أدى إلى قتله فى ١٩ رمضان ٥٥٦/سبتمبر ١١٦١ . أنظر . عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٣٣ وبعدها ؛ ابن ميسر ، ص ٩٤ وبعدها ؛ ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ٦٦ — ٦٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٩٣ — ٤ ؛ انظر . Walker : Ency de l'Isl, 4, p. 667

العادل »[١] ؛ وتلقب شيركوه (٥٦٤ / ١١٦٩) ، « بالملك المنصور »[٢] ؛ وتلقب آخرهم صلاح الدين (٥٦٤ / ١١٦٩) ، « بالملك الناصر »[٣] . وقد انتقل لقب « ملك » ، الذى اتخذه الوزراء الفاطميون ، إلى ملوك الدولة الأيوبية ، ومن هؤلاء إلى خلفائهم المماليك ، الذين صاروا يتسمون به أيضاً . وفى رأى السيوطى ، أن هؤلاء الوزراء — الملوك ، يشبهون فى سيطرتهم على خلفاء الفاطميين ، البويهيين مع خلفاء العباسيين[٤] .

وفضلاً عن ذلك ، نجد بعض المؤرخين ينعتونهم بلقب : « سلطان »[٥] ، على الرغم من أن هذه التسمية لم تكن من ألقابهم . فنجد عمارة[٦] ، فى قصائده ، يصف الوزير طلائع بن رزيك ، بالسلطان ، وإن كان أكبر الظن أن هذه التسمية صادرة عن خيال الشاعر . بجانب هذه الألقاب ذات المدلولات الواقعية ، نجد ألقاباً أخرى رنانة ، أغدقها الخلفاء على وزراء القلم والسيف ، لا تنطبق على معانى حقيقية ، وإن دلت مع ذلك على التشريف[٧] . فكان ابن عمار ، الذى قام بالوساطة فى ٣٨٦/٩٩٦ ،

---

(١) خلف رزيك أباه طلائع ، ولكن قتله شاور ، الذى استولى على الوزارة فى ٥٥٨ / ١١٦٣ أنظر . عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٥٣ وبعدها ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥٨ .

(٢) أنظر . ماقبله .

(٣) جاء صلاح الدين ، وزير الخليفة العاضد . إلى مصر فى صحبة عمه شيركوه ، قائد نور الدين . وعلى أثر وفاة شيركوه ، اتخذه الخليفة الفاطمى وزيراً ، فى ٢٥ جماد الآخرة ٥٦٤ = ٢٦ مارس ١١٦٩ ؛ فاظهر صلاح الدين عداءه لهذا الخليفة . أنظر . المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٣٣ وبعدها ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ١ ص ١٦٠ — ١٧٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٢٣ ؛ انظر .

Saladin. : Lane-Poole. : Ency. de l'Isl. t 4, p. 87 — 92. : Sobernheim and the Fall of the kingdom of Jerusalem. Note sur les croisades J. A., xix, p. 383 et Suiv.: Van Berchem:

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٧ .

(٥) ابن ميسر ، ص ٩٢ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ١ ص ١٣٠ .

(٦) عمارة ، النكت ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٤٤ و ١٢١ ، ترجمة ، ٢ ص ٩٤ .

(٧) ابن ميسر ، ص ٥٣ .

أول وزير تلقّب بألقاب تشريفية؛ فقد لقّبه الحاكم بلقب: « أمين الدولة »[1]؛ ويقيننا أن هذا اللقب لم يكن له فى ذلك الوقت أى مدلول سياسى . ومنذ ذلك الوقت، ووزراء الفاطميين يتهافتون على ألقاب الشرف؛ فتلقّب الوزير اليازورى (٤٢٢ — ٤٥٠ / ١٠٥٠ — ١٠٥٨) ، بألقاب كثيرة منها[2] : « الناصر للدين ، غياث المسلمين، الوزير الأجل ، الأوحد المكين ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، داعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين» . فكان للوزير أن يخاطب بكل هذه الالقاب، وأن يوقع بها على الكتب النافذة عنه[3] .

وقد كانت الوزارة الفاطمية وزارة فردية، لأن مصر — فى الواقع — لم تعرف تعدد الوزراء فى ذلك العصر أو فى عصر المماليك، كما كان الحال فى الأندلس[4] . ولكن كان أحياناً يعيّن الابن نائباً عن أبيه فى الوزارة ، وذلك فى آخر عهد الدولة الفاطمية ، مثل تعيين الكامل بن شاور . فكان يُقام فى مناسبة تعيين الوزير ، احتفال كبير فى القصر ، يحاط بأبهة وترف ؛ يحضره الخليفة أحياناً[5] ، إذا كان الوزير من وزراء السيف ؛ كما كان يدعى إليه كبار أرباب المناصب فى الدولة ورجال السيف ، وحتى ضيوف الخليفة[6] . فكان الخليفة — إذا حضر الاحتفال — يأخذ بيده « سجل » التولية الصادر عن ديوان الإنشاء ، وهو موضوع فى لفافة مذهبة ، ويقبله أمام الحاضرين ، ليمنحه البركة[7]؛ ثم يسلمه إلى صاحب ديوان الإنشاء ليقرأه .

---

(١) نفسه؛ ابن مسكويه ، تحقيق Caetani ، ليدن ١٩١٣ ، ٣ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٤٠ — ٤١ .

(٣) نفسه ؛ ابن القلانسى ، ص ٨١ .

(٤) ابن خلدون ، مقدمه ، ص ٩ .

(٥) السجلات المستنصرية : (٣٤) ، ص ١٠٧ — ١٠٨ ؛ (٥٩) ص ١٩٦ .

(٦) نفسه .

(٧) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤١ .

فى العصر الأيوبى[١]، وكان يتقلّد بالسيف أيضاً[٢].

ولكن من عهد بدر، أصبح زىّ وزير التفويض يتفق وسلطاته الجديدة. فكان يُخلع عليه بالإضافة إلى زىّ وزير التنفيذ، رداء صلب (الطيلسان المقوّر)[٣]، وهو من زىّ قاضى القضاة[٤]. وكذلك، أصبحت طريقة لف العمامة تتفق مع المنصب الجديد، فُسمح له بترك (ذؤابة) عمامته مرخاة على ظهره، إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف. وجعل له أيضاً العقد الجوهر عوضاً عن الطوق، الذى كان يلبسه الوزراء من قبل[٥].

وكذلك، كان يُحمل إلى الوزير فى حفلة تعيينه، دواة محلاة بالذهب[٦]، وهى من علامات الوزارة، كما هى أيضاً من علامات الخليفة وبعض أرباب المناصب، ترمز إلى سلطة الوزير الإدارية. وكان لها حاجب برسمها يحملها فى الأعياد الرسمية، وفى مجالس الوزراء.

ومنصب الوزير يُحاط برسوم عديدة، لمكانته الخطيرة فى الدولة. فكان الوزير يستلم كل شهر راتباً يبلغ خمسة آلاف دينار — وهو أكبر راتب فى الدولة[٧] —

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٤٠ س ٢.

(٢) نفسه، ١ ص ٤٤٠ س ٣٤؛ انظر. الإشارة، ص ٥٩.

(٣) لفظة «طيلسان» معناها طرحه (أنظر. Dozy :.Vêt, p. 279). ولعلها تحريف الكلمة الفارسية «طاش» أو «طلبشان»، أو أصلها من الكلمة العبرية (طالث)، أى خلعة (أنظر. Reuben Levy :.Notes on Costume from Arabic Sources, J.R A.S. Avril, 1935 p. 334 note 5): أما لفظة «المقور» فمعناها صلب (أنظر. Dozy :.Suppl, 2, p 418.

(٤) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٤٠ س ١٣؛ انظر. Tyan :.Hist. de l'Org. Jud., en Pays. d'Islam, 1, p. 305.

(٥) الخطط، ١ ص ٤٤٠ س ١٢. كان التشريف بالعقد والطوق، غير معروف عند العرب، وإن عرف فى العصر العباسى أيام المعتصم (الطبرى، Annaler، ٣، ١٢٣٣، و٢٠٤٠) وأيضاً فى الغرب. أنظر. ابن عذارى، البيان، القاهرة، ١ ص ١٢٣؛ Canard، Cûlî، ترجمة ص ٥٨ وملاحظة ٦.

(٦) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٤٠ س ٥، ص ٤٤١ س ٩.

(٧) صبح، ٣ ص ٥٢٥؛ المقريزى، الخطط ١، ص ٤٠١ س ٢٤ — ٢٥.

ومقررات عينية وكسوات، فى أوقات معلومة[١]. كذلك كان يُصرف لأفراد أسرته، رواتب نقدية وعينية وكسوات[٢]. وكان للوزير حاشية من الخدم والحرس والحجاب، يحيطون به فى المواكب العامة[٣]. وقد كان من رسوم مواكبه أيضاً، التى تصحبه فى جميع تنقلاته، الطبل والبوق والبنود[٤]. كذلك كان له مكانة الشرف بين الحاضرين : فى حفلات القصر الرسمية، فهو وحده له حق الجلوس على (مخدة)[٥]، توضع بجوار الخليفة ؛ أما بقية أرباب الوظائف وأعيان الدولة، فإنهم يبقون وقوفاً فى أماكنهم المقررة .

أما فيما يتعلق بمجالس الوزير، فإنها كانت تعقد فى قصر بنى خصيصاً للوزارة، يُعرف باسم : « دار الوزارة الكبرى » ؛ وهو يقع فى شمال القاهرة، بجوار « باب النصر »[٦]، ويشمل عدة قاعات منها : « قاعة البحر »[٧]، « وقاعة السر »[٨]، « وقاعة البستان »[٩]، وأخرى غيرها . فكان مجلس الوزير فى طريقة عقده لا يقل بذخاً وعظمة عن مجالس الخليفة نفسه .

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤١٣ س ٤ و ٥ .

(٢) نفسه، ص ٤١٣ س ٨ ، ٤٤٢ — ٣ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٢٥ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٥٠٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٢ .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ١ ص ١٥٧ .

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٣٨٦ س ٢٠ — ٢١ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٠٠ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٣٨ — ٤٣٩ ؛ صبح ، ٣ ص ٥١٥ — ٥١٦ ؛ انظر . Ravaisse: 63, Essai III,2, p. 50. لقد كانت هذه الدار يقال لها : « الدار الأفضلية » نسبة إلى الوزير الأفضل، الذى بناها . وما زال وزراء الدولة الفاطمية من أرباب السيوف من عهد الأفضل ، يسكنون بدار الوزارة هذه ، إلى أن زالت الدولة . وفى الحق ، إن أول دار بنيت للوزارة ، أنشاها الوزير يعقوب بن كلس ، فى عهد الخليفة العزيز ؛ فكانت مكاناً لوزراء التنفيذ ، إلى أن جاء بدر . ولكن فيما بعد ، عرفت هذه الدار ، بدار الديباج ، لأنه صار يعمل فيها الحرير (الديباج) . أنظر . الخطط ، ١ ص ٤٦٤ ، ٢ ص ٣٢ ؛ Ravaisse: Essai ,III 2,p. 50.

(٧) عمارة ، النكت، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٦٣ س ١٣ .

(٨) نفسه ، ١ ص ٦٦ س ٩ .

(٩) نفسه ، ١ ص ٧٤ و ٨٧ .

بقى علينا الآن ، أن نتحدث عن طريقة إختيار الوزراء فى العصر الفاطمى ، فقد اشترطت الكفاية والقدرة ، فيمن يضطلع بأعباء المنصب ، وأثبت الخلفاء حذاقة فائقة فى إختيار وزرائهم .

فكان الخلفاء الفاطميون يختارون وزراءهم من بين المهرة فى تدبير الأموال، وذلك لأهمية الموارد المالية فى الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى . فنجد من بين الوزراء الفاطميين، عدداً كبيراً من أهل الذمة: نصارى ويهود، لممارسة هؤلاء أمر المال بمهارة ، فى ذلك الوقت[1] . ولما كان الفاطميون يعطفون على رعاياهم من أهل الذمة ، فإن بعض وزرائهم من غير المسلمين ، كانوا يبقون على عقيدتهم النصرانية حتى بعد توليتهم الوزارة ، بل لم يتقيد الخلفاء بالمبدأ العام[2] الذى كان يستجيز إختيار وزير التنفيذ من بين أهل الذمة : نصارى ويهود ، ولا يستجيز ذلك فى وزير التفويض ؛ فقد عين الخليفة الحافظ بهرام الأرمنى النصرانى . وزيراً للتفويض فى (٥٢٩ — ٥٣١ / ١١٣٤ — ١١٣٧) .

كذلك كان لموظفى الدولة ، على إختلاف درجاتهم وتفاوت طبقاتهم ، الحق فى الوصول إلى هذه الرتبة ، إذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب. فقد أسندت الوزارة إلى الجرجرائى ، لأنه كان عارفاً بدقائق دولاب أعمال

(١) منهم: عيسى بن نسطورس (٣٨٣ — ٣٨٧ / ٩٩٣ — ٩٩٧) فى عهد العزيز ؛ ثانى خليفة فاطمى فى مصر . أنظر. يحيى الأنطاكى ، ص ٤٤٢ ؛ الإشارة ، ص ٢٥ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ٢ ص ١١٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٨٤ س ٣٣ . وفهد بن إبراهيم (٣٩٠ — ٣٩٣ / ١٠٠٠ — ١٠٠٣) . أنظر. يحيى الأنطاكى ، ص ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٤٦٤ ؛ الإشارة ، ص ٢٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٨٥ س ٢٣ — ٢٤ ، ص ٢٨٦ س ١ — ٢ . والمنصور ابن عبدون (٤٠٠ — ٤٠١ / ١٠٠٩ — ١٠١٠) . أنظر. يحيى الأنطاكى ، ص ٤٩٣ و ٤٩٩ ؛ المقريزى ؛ الخطط ، ٢ ، ص ٢٨٧ س ١٤ و ٢٠ و ٢٥ . وزرعة بن نسطورس (٤٠١ — ٤٠٣ / ١٠١٠ — ١٠١٢) . أنظر . يحيى الأنطاكى ، ص ٤٩٩ و ٥٠٧ ؛ الإشارة ، ص ٢٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٨٧ س ٢٢ و ٢٣ و ٣٤ — ٣٥ . هؤلاء الوزراء الثلاثة الأخيرون تولوا جميعهم فى عهد الحاكم ، ثالث خليفة فاطمى ، وكان هناك أيضاً وزراء غيروا عقيدتهم مثل ابن كلس ، الذى كان يهودياً واعتنق الإسلام . أنظر . قبله .

(٢) أنظر . Fagnan : Les Statuts (al- Mâwardî), p.51.

المملكة[١] على الخصوص ؛ كما نجد فى القرن الأول من الحكم الفاطمى وزراء من مختلف الأنواع منهم : الكتّاب والقواد والقضاة والولاة والحجاب.

ولكن فى القرن الثانى ، كان جل الوزراء الفاطميين من بين حكام الولايات الإداريين ، ولعل ذلك راجع إلى ازدياد نفوذ حكام الولايات ، وضعف سلطة الخليفة؛ فمثلاً ، كان بدر والياً على دمشق[٢]؛ ورضوان والياً على الغربية[٣]؛ وابن سلار والياً على الإسكندرية والبحيرة[٤]؛ وطلائع والياً على قوص[٥]؛ وشاور والياً على الصعيد الأعلى[٦]. ويبدو أن ولاية قوص فى ذلك الوقت أصبحت ذات مركز خاص فى الدولة ؛ فكانت أكبر منصب بعد الوزارة[٧].

وقد اشترط أيضاً فيمن يتولى منصب الوزارة الإخلاص لعقيدة الدولة ، لأن الدولة الفاطمية كانت ترتكز فى أساس بنائها على العقائد الشيعية ؛ فلم يكن بد من أن يكون الوزير الذى يحتل المكان الثانى بعد الخليفة ، شيعياً أو على الأقل من أنصار عقيدة الدولة . ولكن لم يخل الأمر من إقصاء بعض الوزراء الفاطميين عن منصبهم ، أو حتى قتلهم ، وذلك لأنهم على غير مذهب الدولة[٨].

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٨١ س ٦ — ٧ .

(٢) وزير الخليفة المستنصر فى (٤٦٧ — ٤٨٧ / ١٠٧٤ — ١٠٩٤) . أنظر . قبله .

(٣) وزير الخليفة الحافظ فى (٥٣١ — ٥٤٢ / ١١٣٧ — ١١٤٧) . أنظر . قبله .

(٤) وزير الخليفة الظافر فى (٥٤٤ — ٥٤٧ / ١١٤٩ — ١١٥٢) . أنظر . ابن ميسر ، ص ٨٩ — ٩٢ ؛ ابن منقذ ، تحقيق Hitti ، ص ٧ — ٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٠ .

(٥) وزير الفائز والعاضد فى (٥٤٩ — ٥٥٦ / ١١٥٤ — ١١٦٠) . أنظر . قبله .

(٦) وزير العاضد فى (٥٥٨ — ٥٦٤ / ١١٦٣ — ١١٦٩) . أنظر . عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٦٧ وبعدها ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥٨ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٣ ص ٦٧ — ٦٩ ؛ Wiet: Ency. de l'Isl, 4,p.351-52.

(٧) أبو الفدا ، Annales ، ٣ ص ٥٨٦ .

(٨) الإشارة ، ص ٤٥ . مثلما حدث لليازورى فى ٤٥٠ / ١٠٥٨ ، فى عهد المستنصر (أنظر . أبو الفدا ، Annales ، ٣ ص ١٧٢ ؛ ابن ميسر ، ص ٨) ؛ وأحمد بن الأفضل ، وزير الخليفة الحافظ ، فى ٥٢٦ / ١١٣١ . (أنظر . المقريزى ، ١ ص ٣٥٧ ؛ ابن ميسر ، ص ٧٥ وبعدها ؛ الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ورقة ٢٨٦ — ٧) .

الفصل الثالث

الإدارة

الأصول — الإدارة المركزية — الإدارة المحلية.

تنقسم وظائف الدولة الفاطمية — كما فى غيرها من الدول الإسلامية الأخرى — إلى وظائف : « الأقلام » ووظائف « السيوف » . فيجمع القسم الأول النظم الإدارية والدينية [1] ، ويشتمل الثانى على النظم الحربية ؛ وإن لم يوجد حد فاصل بين الوظائف الإدارية والدينية ، لأن السواد الأعظم من الموظفين : إداريين ودينيين ، كانوا يمارسون النوعين دون تفرقة . وسنعرض للأنواع الثلاثة بالتوالى : إدارية ودينية وحربية .

الأصول : الموظفون — تعيينهم — طبقاتهم — اختيارهم .

والنظام الإدارى فى مصر فى أيام الفاطميين ، هو الميراث المباشر للنظام الإدارى العباسى ، الذى يمتد بأصوله إلى النظم الإدارية فى القرون السابقة على الفتح العربى فى ٢١ / ٦٤٢ . وقد تأصلت هذه النظم — ذات الطابع السنى —

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٨٦ و ٤٨٩ .

رسوخاً قبل مجىء الفاطميين ، فى عهد الدولتين شبه المستقلتين : الطولونية والإخشيدية ، اللتين أبقتا على النظم الإدارية العباسية .

غير أنه بمجىء الفاطميين، استقلت مصر استقلالاً تاماً؛ فقد كان حكامها — حتى ذلك الوقت — ولاة معينين من قبل الخلافة العباسية ، أما الآن فقد أصبحوا خلفاء منافسين لخلفاء بغداد ، وصارت القاهرة — عاصمتهم — مقر خلافة واسعة ؛ وإن كانت هذه الخلافة شيعية ، ذات عقيدة مخالفة للعقيدة السنية العباسية . فهل يا ترى تغيرت النظم الإدارية فى مصر لتتوافق مع العقيدة الدينية الجديدة؟. فى الواقع إن النظم الإدارية بقيت — كما كانت سابقاً — محتفظة بطابعها السنى الذى تأصل فى البلاد ، فلم تعد تتأثر بمبادىء الدولة الجديدة . هذا وإن النظم الإدارية فى ذاتها ، غير قابلة بطبيعتها لتأثير العقيدة الدينية فيها .

ولكن الفاطميين — ولا ريب — عملوا على زيادة تركيز زمام السلطة الإدارية فى أيديهم ، لاستكفاء مصالح حكومتهم المستقلة استقلالاً تاماً، ومصالح خلافتهم الواسعة ؛ فأصبحت السلطة الإدارية فى القاهرة ، لها الإشراف على كل ما يمس إدارة البلاد فى الخلافة . وهكذا فى أيام الفاطميين ، كان النظام الإدارى شديد المركزية، تدار شئونه من القصر [١] .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٢٦ س ٣٣ . ولكنا نجد أن دواوين الإدارة نقلت ثلاث مرات من القصر إلى دور الوزراء : فى أيام الوزير ابن كلس (٣٦٨ — ٣٨٠ / ٩٧٨ — ٩٩٠) ، وزير العزيز (أنظر . نفسه ، ١ ص ٦ س ٢٠ ، ص ٨٢ س ٤٤) ؛ وفى أيام المسعود بن طاهر الوزان، الذى تولى وساطة الخليفة الحاكم، فى ٤٠٩/ ١٠١٨ (أنظر . ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٣) ؛ وفى أيام الأفضل الذى نقل الدواوين إلى « دار الملك » فى ٥٠١ / ١١٠٧ (أنظر . المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٢٦ و ٤٨٣) ؛ وبرغم ذلك، فقد عادت هذه الدواوين إلى القصر فى كل مرة ، بعد موت الوزير .

وكانت الإدارة فى عهد الفاطميين ، تُدار كما كان سابقاً ، بواسطة الدواوين ، التى كان يُطلق على وظائفها اسم : « الوظائف الديوانية » [١] . وكلمة « دواوين » من أصل فارسى [٢] ، مفردها ديوان ، اتخذتها الإدارة الإسلامية منذ نشأتها لتدل على سجلات الدخل والخرج ، وفيما بعد لتدل على المكان الذى يعمل فيه أرباب الوظائف المالية ، وأخيراً أُطلقت على جميع فروع الإدارة .

وقد كانت شئون الإدارة الرئيسية فى الدولة الفاطمية فى مصر — كما فى غيرها من الدول الإسلامية — على ثلاثة أنواع : ديوان الإنشاء الذى يقوم بتنفيذ أوامر السلطة العليا ؛ ودواوين المالية التى تقوم بجباية الأموال وإنفاقها ؛ والإدارة المحلية التى تحكم الولايات . كذلك كانت هذه الدواوين الرئيسية تنقسم بدورها على نفسها إلى عدة دواوين ، لكل منها عمل معين .

وكانت دواوين مصر المستقلة ، مركز خلافة واسعة ، تحتاج إلى عدد كبير من الموظفين ، الذين يؤخذون على الأخص من بين طبقة تُعرف : « بالكُتّاب » . ففى مصر الفاطمية — كما فى مصر الفرعونية — كانت صناعة القلم ، هى المهنة الأولى فى الدولة ؛ كما أن حذق الكتابة كان يؤهل إلى أكبر وظائف الدولة ، حتى منصب الوزارة . فكان « الكاتب » عماد النظام البيروقراطى المصرى ، يقوم بالدور الرئيسى فى إدارة البلاد .

وقد بقى جوهر طبقة الموظفين فى عهد الفاطميين ، على ما كان عليه قبل مجيئهم مصر ، تتكون فى الأصل من المصريين أهل البلاد ، وبخاصة من أهل الذمة . ولكنا نظن مع ذلك ، أنه بمجىء الفاطميين ، تغير على الأقل نظام شغل الوظائف الكبيرة الإدارية ، فكان لابد أن يكون الموظفون الكبار

(١) صبح ، ٣ ص ٤٨٩ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٩١ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ١٦ .

فى الدولة الجديدة ، من الشيعة المخلصين لعقيدة الدولة . ويحدثنا المقريزى [١] بأن القائد جوهر، عند وصوله مصر ، لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه ؛ فكان المغاربة يشتركون مع المصريين فى إدارة شئون البلاد . ولعل الفاطميين اضطروا ، حينما لم تكن دولتهم قد استقرت بعد فى مصر، أن يظهروا عطفهم على المغاربة، لأن هؤلاء أسهموا بنصيب وافر فى قيام دولتهم فى إفريقية، ولأنهم أيضاً من أتباع الدولة الفاطمية المخلصين؛ فكان اسناد الوظائف الكبيرة إلى المغاربة ، وسيلة — ولاريب — لتقوية سلطانهم فى البلاد . ويقيننا، أن المغاربة لم يبقوا فى كل فروع الإدارة طول مدة حكمهم فى مصر، ولم يلعبوا دوراً يذكر إلا فى أوائل حكم الدولة؛ ذلك لأن البربر كانوا يجهلون دقائق الإدارة المصرية ، وكانت حضارتهم أقل من حضارة المصريين ؛ فلم يكن مجال عملهم فى عهد الفاطميين ، إلا فى الإدارة المحلية بالولايات [٢] ، لأن الإدارة المركزية : مالية أو إنشاء ، تحتاج إلى مهارة كبيرة .

وعلى ذلك ، بقى موظفو الدواوين يختارون من المصريين ، وعلى الأخص من أهل الذمة، الذين كانوا يكونون غالبية كبرى فى الدواوين [٣] ولدينا أمثلة تاريخية مباشرة ، تشير إلى استخدام القبط واليهود بكثرة ، فى مختلف دواوين الدولة ، طيلة حكم الفاطميين فى مصر . فلم يبق أهل الذمة ، كما كانوا سابقاً، فى دواوين مالية مصر وحدها ، وإنما صاروا فى جميع فروع الإدارة ؛ فازداد عددهم على الأخص فى دواوين الإنشاء والمالية [٤]، التى تحتاج إلى تخصص كبير .

---

(١) اتعاظ ، ص ٨٧ ؛ حسن ابراهيم ، المجمل ، ص ١٧٢ .

(٢) يحيى ، ص ٤٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٥٠٩ — ٥١٠ .

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، ٢ ص ١١٦ س ٧؛ انظر Ency. de l'.Isl.: Becker. (art. L'Egypte), II p.8. يظهر واضحاً من كلام ابن الصيرفى فى كتابه: «قانون ديوان=

وقد شجع أهل الذمة على العمل فى الدواوين فى ذلك العصر، ما امتاز به الفاطميون من التسامح الدينى، نحو رعاياهم من غير المسلمين. فنلاحظ فى ذلك العصر، وجود بعض الذميين الكبار، الذين اعتنقوا الإسلام صراحة أو بقوا على ملتهم، فى أعلى مناصب الإدارة، أو حتى فى رتبة الوزير، رئيس كل الإدارة فى البلاد [1]؛ وقد تلقبوا بأعلى الألقاب، واحتازوا الأموال الكثيرة. ولكن يبدو أن الموظفين من أهل الذمة من قبط ويهود، انتهزوا تسامح الفاطميين معهم، فأساءوا استخدام مناصبهم، للتحكم فى المسلمين وإثارتهم؛ فنجد أحد الشعراء [2] يصف وصول الذميين وعلى الأخص اليهود إلى أعلى المناصب، فيقول:

« يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم، والمال عندهم، ... ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر! إنى نصحت لكم ... تهودوا، قد تهود الفلك »

ومع ما فى هذا القول من مبالغة، إلا أنه يعكس لنا صورة استخدام الذميين فى الدواوين بكثرة، واستحواذهم على أعلى مناصب الدولة؛ مما كان له رد فعل عند المتعصبين من المسلمين. وقد أثارت هذه الحالة حفيظة المسلمين على الموظفين من أهل الذمة؛ فكان كلما جاء خليفة متعصب، عمل على الحد من نفوذ موظفى الدواوين من غير المسلمين. فكان الخليفة الحاكم الذى عرف بحزمه، ينتقم من الكتاب النصارى المنحرفين [3]؛ فقد فرض عليهم حمل علامات

= الرسائل، تحقيق على بهجت، القاهرة ١٩٠٥؛ وترجمة Massé (B.I.F.A.O. XI,) ١٩١٤، بعنوان: « Code de la Chancellerie d' Etat »، أن الموظفين القبط كانوا كثرة فى ديوان الإنشاء وغيره من الدواوين.

(١) يحيى، ص ٤٢ و٤٤ و٥٣ و٩٣ و٩٤؛ ابن القلانسى، ص ٣٣؛ انظر: Jacob Mann: The Jews in Egypt and in Palestine, p 16; Kremer: Kulturgeschichte, 1, p. 188; Tritton: The Califs and their non-muslim subjects, p. 28.

(٢) ابن ميسر، ص ٢؛ انظر: Mann: The jews, p. 16.

(٣) يحيى، ص ٥١١؛ انظر: Mez: Die Renaissance، ترجمة أبى ريدة، ص ٩٣.

خاصة، لتميزهم [١] من الموظفين المسلمين ؛ فكان النصارى واليهود يعقدون « الزنانير » فى أوساطهم ، ويلبسون العمائم السود على رءوسهم . وهكذا كان عهد التسامح الفاطمى ، ينقلب فجأة إلى تعصب ممقوت، كلما ظهر خليفة ذو نزعة دينية شديدة ، مما ميز ذلك العصر . ولكن وإن كانت مثل هذه السياسة فى التسامح والتعصب مع أهل الذمة ، قد اتبعها كثير من حكام مصر، سابقين أو لاحقين على الفاطميين ؛ فإن حكام مصر عموماً ـ فاطميين وغير فاطميين ـ أدركوا أنه ليس فى الاستطاعة الاستغناء عن خدمات موظفيهم من غير المسلمين؛ وقد أدى إلى هذه السياسة الواقع العملى فى الإدارة المصرية فى العصور الوسطى؛ حيث كانت الإدارة فى حاجة إلى كفايات خاصة فى أمر المال والقلم، لا يقوم بها إلا أهل الذمة من أهل البلاد . فالخليفة الحاكم يحاول تحويل أرباب الوظائف من النصارى إلى الإسلام ، بدلاً من طردهم ، مما يدعو إلى الظن بأن هذه السياسة ضد أهل الذمة ، كانت ترمى قبل كل شىء إلى تهدئة المسلمين .

ومع ذلك كان مظهر التعصب ضد موظفى الدواوين ـ أحياناً ـ لا يقف عند وجود خليفة متدين، ولكن أيضاً عند وجود وزير قوى، يغير موظفى الدولة حسب هواه . فابن عمار [٢] ، الذى تولى وساطة الحاكم فى ٣٨٦ / ٩٩٦ ، أدخل بربر كتاميين فى دواوين الإدارة، وكفل لهم الوظائف الرئيسية، حتى يتمكن بواسطتهم من السيطرة على البلاد . والوزير النصرانى بهرام ، الذى ولى وزارة الحافظ فى (٥٢٩ / ١١٣٥) [٣] ، حابى النصارى من ملته فى دواوين الدولة، مما أثار ضده

(١) يحيى الأنطاكى، ص ٤٦٨ .

(٢) نفسه ، ص ٤٤٣ .

(٣) ابن ميسر ، ص ٧٨ — ٧٩ ؛ ابن الأثير ١١٤ ، ص ٣١ ؛ أبو الفدا ، Annales ، ٣ ص ٤٦٨ .

المسلمين . وأخيراً ، نجد شيركوه ، الذى ولى وزارة العاضد فى ٥٦٤/١١٦٩ ، يعمد إلى فصل جميع الأقباط من خدمة الحكومة[١] .

وكيفما كان الأمر ؛ فإن موظفى الدواوين يتبعون السلطة التنفيذية ، ويتقلدون سلطتهم مباشرة من قبل الخليفة . ولكن لما ضعفت سلطة الخليفة ، كان لوزير التفويض التصرف المطلق فى الشئون الإدارية ، كما كانت السلطة القضائية والحربية داخلة ضمن اختصاصه ؛ فكان ينوب عن الخليفة ، فى تقليد كبار موظفى الإدارة المركزية والمحلية وظائفهم .

أما جملة الموظفين من درجة أقل ، وهم الذين يملئون الدواوين ، فكان يقوم باختيارهم كبار الموظفين المُقلدين ، وإن كان من حق الوزير ، سواء أكان وزير تنفيذ أم وزير تفويض ، التدخل فى هذا الاختيار ، لعموم نظره فى كل شئون الدولة ؛ فكان بعض الوزراء ، يغيرون الموظفين فى الإدارة ، حسب أهواءهم[٢] ، كما أشرنا من قبل .

وقد كانت كتابة تقاليد الموظفين — الكبار والصغار — تستلزم وجود كاتبين : أحدهما يقوم بإنشاء التقاليد الخاصة بتولية كبار الموظفين[٣] ، والثانى يقوم — بجانب مكاتبته أمراء الدولة وكبرائها — بإنشاء سجلات تولية صغار

(١) ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٣٧٠ ؛ انظر ، أهل الذمة فى الإسلام ، تأليف Tritton ، ترجمة حسن حبشى ، ص ٣١ ،

(٢) يحيى الأنطاكى ، ص ٤٥٣ ؛ ابن ميسر ، ص ٨٢ .

(٣) ابن الصيرفى : Code, p. 96 - 97. ؛ صبح ، ١ ص ١٣٠ ؛ انظر ، Björkman : Beitrage, p.21.

الموظفين[١] . ولكثرة أعمال هذا الأخير ، أضيف إليه مساعد ، يعاونه في عمله[٢] .

وكان الموظفون يتفاوتون في درجاتهم حسب المناصب التي يلونها ، وإن أطلق عادة على كل موظف في الدواوين ، كلمة : « كاتب »؛ ولكن المقريزي[٣]، في خططه ، يذكر عبارة : « الكتاب العوالي » ، مما يدل على وجود نظام طبقي بين موظفي الدولة . ولكننا لا نظن بوجود سلم للترقي في ذلك العصر ، بمعنى أن شخصاً يدخل في الدواوين ، في أول درجة في وظيفة « كاتب » صغير ، فيصعد سلم الترقي تدريجياً ، حتى يصل إلى أعلى منصب في الإدارة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد وصل إلينا ، أن عدداً من الكتاب أصبحوا رؤساء لدواوين المالية والإنشاء ، وأن بعضهم نال رتبة الوزارة نفسها . فهذا الترقي إلى المناصب العليا — في واقع الأمر — راجع إلى الحظ أو إلى رضاء الخليفة أو الوزير .

وقد كان لكبار أرباب الوظائف الديوانية ألقاب شرف يمنحها لهم الخليفة ، نميز منها على الخصوص لقب : « الشيخ » ، الذي كان يُنعت بلفظة : « الأجل » ، فيشير المقريزي[٤] بهذا اللقب إلى رئيس ديوان الإنشاء .

وكانت لهذه الطبقة أيضاً ملابس خاصة[٥] ، تتميز بها عن غيرها من الطبقات ؛ فكان كبار الموظفين في العصر الفاطمي يلبسون على رءوسهم

---

(١) ابن الصيرفي ، Code, p.101 ؛ صبح ، ١ ص ١٣٠ ؛ انظر . Beitrage, p 1. :Bjorkman.

(٢) ابن الصيرفي ، Code, p. 102 ؛ صبح ، ١ ص ١٣٢ ؛ انظر . Beitrage, p. 21. : Bjorkman

(٣) الخطط ، ١ ص ٤٧٥ س ٢٩ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٤٠٢ .

(٥) صبح ، ٣ ، ص ٤٩٠ .

عمائم كبيرة ضخمة ، لا يلبسها إلا أرباب الأقلام ، وكان يُطلق على الذين يلبسونها : « أصحاب العمائم »[١] .

وكذلك كان لكبار الموظفين علامات ، تُمنح لهم عند تعيينهم ؛ وتتفق وطبيعة عملهم[٢] ؛ فكان يقدّم للموظف المعين هدايا عديدة ، من بينها الدواة التى ترمز إلى وظيفته الديوانية . وهذه الدواة كانت أيضاً من علامات الخليفة والوزير وحتى قاضى القضاة، الذى كانت دواته من أخص الدُوِىّ، إذ كان لها كرسى توضع عليه ؛ تمييزاً لرتبته السامية[٣] . وكانت من بين علاماتهم أيضاً «المرتبة» العظيمة بالمخاد والمسند أو بدونهما ؛ حسب درجة الشخص المعين . وكان لهم أيضاً الحاجب والفراشون والأستاذ ، وهم يصحبونهم فى أثناء العمل، أو فى الحفلات الرسمية ، حسب تفاوت المنصب .

فكان « لصاحب ديوان الإنشاء » المرتبة العظيمة بالمخاد والمسند ، والدواة من غير كرسى ، والحاجب؛ وكان أستاذ من عند الخليفة يحمل له الدواة حين مجيئه القصر[٤] . وكان لصاحب « نظر الدواوين » ، وهو رئيس الإدارة المالية ، الجلوس بالمرتبة والمسند ، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ، وتخرج له الدواة من خزانة الخليفة بغير كرسى[٥] . وكان لصاحب « ديوان التحقيق » ، وتلحق وظيفته بوظيفة نظر الدواوين ، المرتبة والحاجب فقط دون الدواة[٦] ، وذلك إما لأن عمله لاحق بعمل صاحب الدواوين[٧] ، وإما لأن الدواة كانت من ضمن

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٩ س ٣٧ ؛ انظر . بعده .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٠ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٤٩٣ .

(٦) نفسه ؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٠١ .

(٧) نفسه .

الخلع ، كما هو مفهوم ضمناً . وأخيراً ، لم يكن « لصاحب ديوان المجلس » ، وهو المشرف على خزانة الخليفة ، سوى الدواة والحاجب[١] .

أما عن اختيار موظفى الإدارة ، فقد أثبت خلفاء الفاطميين أنهم إداريون مهرة ؛ فنحن نعرف أن المعز[٢] أول خليفة فاطمى ، أقام فى دواوين القاهرة أشخاصاً ذوى خبرة . وكان النظام السائد طيلة العصر الفاطمى ، ملء وظائف الإدارة المركزية ، بأشخاص يختارون من بين الأسر ، التى كان أفرادها يعملون من قبل فى خدمة الدولة . ونلاحظ أيضاً باهتمام شديد ، أن الموظفين فى مصر ، فى أثناء العصور الوسطى ، يتنوعون حسب طبقتهم الاجتماعية : فكان الابن يشغل وظيفة أبيه ، ويقوم بنفس العمل الذى كان يقوم به أبوه[٣] . وكذلك كان تكوين أرباب وظائف الدواوين ، يتم بطريقة فذة : فقد كان الكاتب يتمرن فى فروع الإدارة المختلفة ، على كل أنواع العمل الكتابى ، حتى يلم بكل دقائق الإدارة ؛ فابن الصيرفى[٤] ، قبل توليته ديوان الإنشاء ، عمل فى ديوان المكاتبات ، وفى دواوين الجيش ، وحتى فى دواوين المالية ؛ فهذه الطريقة تهيء لأرباب الوظائف ثقافة إدارية عامة ومتشعبة فى نفس الوقت .

وليس لدينا للأسف معلومات وافية عن نظام سير العمل فى الإدارة الفاطمية ، وهو لا ريب ، يشبه فى مجموعه النظام الذى كان سائداً فى مصر قبلهم .

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٩٤ . حسب المقريزى ، كان لصاحب ديوان المجلس ، الجلوس بالمرتبة دون المخاد ، والدواة ، والحاجب . أنظر . الخطط ، ١ ص ٣٩٧ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٣ ؛ انظر .
Chrest. arabe, 1er ed, 2, p. 96. : De Sacy

(٣) أنظر . أبو شامة ، الروضتين ، ١ ص ١٩٢ .

(٤) ابن ميسر ، ص ٨٧ .

ويمكننا على كل حال ، أن نميّز نوعين من النظم الإدارية: الإدارة المركزية: إنشاء ومالية ، والإدارة المحلية .

الإنشاء : الديوان — الموظفون — أعمالهم : إنشاء ، مكاتبات — نظر المظالم .

فكان ديوان الإنشاء من أهم دواوين الإدارة المركزية الفاطمية ، حيث جُعل ترتيبه فى الأهمية مباشرة بعد رتبة الوزير[1] ، وكان يُسمى: «ديوان الإنشاء والمكاتبات»[2] ، وإن أطلق عليه ابن الصيّرفى (ت ٥٤٢/١١٤٧) اسم: «ديوان الرسائل»[3] ؛ وقد غلبت عليه التسمية الأولى ، التى بقيت لتدل على ديوان الإنشاء فى مصر ، حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية .

وهذا الديوان صورة من ديوان الإنشـــاء قبل الفاطميين — فى عهدى الطولونيين والإخشيديين — وهو نفسه ميراث من ديوان الإنشاء الفارسى . ولكن كبر شأن هذا الديوان ، فى ذلك العصر ، لأن مصر الشيعية — مركزاً لخلافة شاسعة الأرجاء تمتد من إفريقية إلى الشام والجزيرة العربية وصقلّية — كانت تقوم بدعاية واسعة لملوكها الجدد ، لم يقف شأنها عند مصر فحسب ، ولكنها امتدت إلى البلاد المعادية ، مما يتطلب من هذا الديوان مجهوداً كبيراً .

وكان تنظيم ديوان الإنشاء من أبرز ما فى العصر الفاطمى ؛ فكان العمل فيه يمتاز بنظامه الديوانى (البيروقراطى) الصرف . ويجعلنا وصف ابن الصيّرفى لموظفى هذا الديوان ، نعتقد أن تنظيمه تم فى عهد الخليفة الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ /

(١) صبح ، ٣ ص ٤٩٠ .

(٢) نفسه ؛ المقريزى ' الخطط ، ١ ص ٤٠٢ .

(٣) ابن الصيرق: Code, p. 65.; Wustenfeld : Die Geographie, p.188

١١٠١ — ١١٣٠) ، فكثير من النظم الفاطمية تكونت نهائياً حوالى ذلك العصر [١].

وقد كان على رأس هذا الديوان ، كاتب يقال له : « رئيس » ، أو « متولى » [٢] ؛ وإن كان يسمى فى الغالب : « بكاتب الدست الشريف [٣] » ، لكتابته على الدست . فكان عمله يتلخص فى إنشاء النقاط الرئيسية فى الرسائل الهامة ، الواردة أو الصادرة من الديوان ، ولذلك كان لا يحجب عن الخليفة متى قصده ، فى أى وقت .

وكان يعاون رئيس الديوان فى عمله اثنان : أحدهما يسمى : « المخرج » [٤] ، وهو الكاتب الذى يكلف بكتابة مستخرجات من الرسائل التى ترد أو تصدر عن الديوان ؛ والثانى : « المتصفح » [٥] ، وهو الذى يتصفح سائر ما يسطر فى الديوان .

أما بقية الكتاب الآخرين فى هذا الديوان ، فهم على نوعين : طبقة من الكتاب الرئيسيين وعددهم خمسة ، وثلاثة من المساعدين .

أما الكتاب الخمسة فكانوا يرتبون بحسب الآتى : كاتب يتصدى « بالمكاتبة إلى الملوك » [٦] ، وهو الذى يكتب إلى الملوك ؛ وكاتب يختص « بالتوقيع على

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٩١ س ١٤ و ٢٢ .

(٢) ابن الصيرفى ، Code, p, 79 . سمى هذا الرئيس فيما بعد « صاحب » أو « مشد » . أنظر . نفسه ، ص ٧٩ — ٨٠ ، وملاحظة (٢) .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٢ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٩٠ .

(٤) ابن الصيرفى ، قانون الرسائل ، تحقيق على بهجت ، ص ٢٥ ؛ أنظر . Björkman ; Beitrage, p. 21.

(٥) ابن الصيرفى ، قانون الرسائل ، تحقيق على بهجت ، ص ٢٥ ؛ صبح ، ١ ص ١٢ ؛ أنظر Beitäge, p. 21.

(٦) أنظر Code, p. 99 .

القصص »(١)، وهو الذي يوقع بختم الخليفة للتنفيذ؛ وكاتب يقوم «بالإنشاءات»(٢)، وهو الذي ينشئ الحوادث الكبار، والتقاليد لكبار الموظفين؛ وكاتب يتصدى « بالمكاتبة إلى أمراء الدولة وكبرائها »(٣)، وإنشاء تقاليد صغار الموظفين؛ وأخيراً كاتب يلحق عمله بالسابق، ليساعده فى أعماله الكثيرة(٤).

ومن بين المساعدين نجد: «الناسخ»(٥)، وإن كنا لا نعرف إن كان « الناسخ » أو « المبيض »(٦)، هما شخص واحد، أو أنهما شخصان متميزان الواحد عن الآخر. والثانى هو « الخازن »(٧)، وهو الذى يضع فى الديوان، الأوراق التى تشمل على مهمات الأمور، بأن يجمع كل نوع إلى مثله فى أضابير أو دوسيهات، حتى يمكن استخراجها بسهولة. وأخيراً، « الحاجب »(٨)، الذى كانت وظيفته القيام على باب ديوان الإنشاء لينظم الدخول أو الخروج إليه ومنه.

هذا الترتيب، الذى قدمه إلينا ابن الصيرفى، لا يدل على أن كل نوع من الإنشاء، كان يشغله كاتب واحد؛ فإن عدداً كبيراً من الكتاب، قد يفردون بنوع واحد من الإنشاء، كما أنه من الجائز، أن يفرد كل صنف منها بعدة كتاب للإنشاء.

وقد كان عمل هذا الديوان يتلخص فى ثلاثة أمور: إنشاء، ومكاتبات، ونظر المظالم.

---

(١) نفسه، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ٩٦.

(٣) نفسه، ص ١٠١.

(٤) نفسه، ص ١٠٢.

(٥) نفسه، ص ١٠٣.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه، ص ١٠٨؛ صبح، ١ ص ١٣٥ — ١٣٦.

(٨) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٠٢؛ صبح، ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧

إنشاء :

إن « الإنشاء »[١] الخاص بمصر والخلافة وحتى الخارج ، أعطى اسمه لهذا الديوان ، وشمل العمل الرئيسى فيه. ويظهر مما سرده ابن الصيرفى تخصص الكتاب المتنوع فى الإنشاء ؛ حيث كان يشترط فيهم ، استيفاء شروط الكتابة ، وذلك بالدقة فى التعبير . فكان ديوان الإنشاء الفاطمى يحتوى على دفتر[٢] فيه أسماء وألقاب جميع موظفى الخلافة ، وجميع ما يختص برؤساء الدول الأجنبية ، كى يخاطب كل مرسل إليه ، بنعت مقرر له وبدعاء معروف به.

ونحن نعرف ، مما أوردناه سابقاً ، الدور الرئيسى للألقاب ، فى حياة أرباب الوظائف ، الذين كانوا يخضعون لنظام طبقى دقيق ؛ فالفاطميون ، هم أول من أوجد الألقاب فى مصر ، بحيث كثر استعمالها فى ذلك العصر ، وإن كانت فى مجموعها ، ميراثاً للألقاب العباسية . وكانت هذه الألقاب ، وسيلة التمييز بين موظفى الدولة ، حسب تفاوت درجاتهم ؛ بل كانت أشد تشبه (الخِلَع) ، رمزاً للتشريف من قبل الخليفة ، وللمكافأة ، وحتى للمظهر ؛ فوزعت بكثرة ، على أتباع الفاطميين الكبار ، رجالاً ونساء[٣].

وكانت هذه الألقاب ـ أحياناً ـ يدل بعضها على منصب حقيق ؛ وإن كانت غالباً لا تشير إلا لمكانة صاحبها عند الخليفة . كذلك تحولت فى بعض الأحيان ، إلى أسماء ، بحيث أن عدداً كبيراً من الأشخاص ، لم يعرفوا إلا بها ، مثل ، الوزير المعروف : « بخطير الملك »[٤].

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٢

(٢) ابن الصيرفى : Code, p. 108-9. ؛ صبح ، ١ ص ١٣٤

(٣) السجلات المستنصرية : ٢ ؛ ٤ ؛ ٢٥ ؛ ٥١ ؛ الخ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٥٥ س ٣٩ . منح هذا اللقب فى ٤٤١/١٠٤٩ الملك كبير

أما عن تكوينها، فكان عادة من جزئين، فنذكر، مثلاً: «عزّ الدولة وسنائها»[١]، و«عميد الدولة وناصحها»[٢]؛ ولعل هذه الصيغة منقولة عن لقب خلفاء الفاطميين المزدوج: «عبد الله ووليّه»[٣]، الذى نجده فى جميع مراسلاتهم.

وقد كانت بعض هذه الألقاب تنسب إلى الدولة، مثل: «أسد الدولة» أو إلى معنى شريف، مثل: «شرف المعالى» أو إلى معنى دينى، مثل: «سيف الإسلام» أو حتى لتدل على تعصب مذهبى، مثل: «عبد المستنصر»[٤]. وكانت للنساء أيضاً ألقاب مناسبة، مثل: «السيّدة الحرّة»[٥]. أما ألقاب أسرة الخليفة، فكان يقال: «الملكة»[٦] لزوجة الخليفة؛ و«أمير»[٧] لإخوته وأولاده.

وكان للشخص لقب أو أكثر؛ فكان لفهد بن إبراهيم لقب مفرد، هو: «الرئيس»[٨]، ولمنصور بن عبدون لقب «الكافى»[٩]، ولزرعة بن نسطورس لقب «الشافى»[١٠]. وفى حالات كثيرة، نجد لقبين معاً، مثل: «سيف

= القضاة أبى محمد اليازورى الذى وزر المستنصر، مع لقب «سيد الوزراء»، ولقد كان لليازورى ألقاب أخرى، بلغت تسعة. أنظر ابن الصيرفى، الإشارة، ص ٤٠ — ٤١.

(١) تلقب الملوك ..ضاد الظاهرى بهذا اللقب فى ٤١٥/١٠٢٤. المقريزى، الخطط، ١ ص ٣٥٤ س ٢١؛ ابن تغرى بردى، تحقيق Popper، ٢ ص ٧٩؛ Casanova : Mém, 4. p. 23؛ انظر Becker. Beitrage, I, p. 66, 78.:

(٢) منح هذا اللقب إلى وزير الخليفة الظاهر، أبى محمد الحسن بن صالح الروذبارى، فى ٤١٨/١٠٢٧. أنظر. ابن الصيرفى، الإشارة، ص ٣٤؛ المقريزى؛ الخطط، ١ ص ٣٥٥ س ١٢.

(٣) السجلات المستنصرية: ١ و٢ و٣ و٤ و١٨ و٢٩ و٣٦ و٤٠ و٤٣. الخ؛ صبح، ١٣ ص ٣٢٥؛ Wiet : M.I.F.A.O. 40, p.9, Note I

(٤) السجلات المستنصرية: ١٤ و٢٧ و٢٨ و٣٧ الخ.

(٥) نفسه: ٣٦ و٤٧ و٤٩ و٥٢ الخ.

(٦) نفسه: ٣٥ و٥١.

(٧) نفسه ٨ و٩ و٣٥.

(٨) يحيى الأنطاكى، ص ٤٥٣.

(٩) نفسه، ص ٤٩٣.

(١٠) نفسه، ص ٤٩٩.

الإسلام وتاج الملك» ، الذى منح الوزير بهرام[١] . ومع ذلك فإن اليازورى ، وزير الخليفة المستنصر ، كان له تسعة ألقاب[٢] .

أطلقت «المكاتبات»[٣] ، هى الأخرى ، اسمها على هـــذا الديوان ، وشملت مكاناً ضخماً من عمل ديوان الإنشاء .

وقد كان لاتساع الخلافة من ناحية ، ووجود إدارة مركزية محكمة تشرف على دقائق الأمور من ناحية أخرى ، سبباً فى وفرة المكاتبات فى هذا الديوان . ولقد أسندت الدولة المراسلات إلى كتّاب ذوى خبرة ، نجد من بينهم من يعرف عدة لغات أجنبية ، كاليونانية والأرمنية[٤] .

وأغلب الظن ، أن إدارة البريد ، كانت تابعة لديوان الإنشاء ، الذى كان من عمله تصريف وورود وإصدار المكاتبات ؛ فيذكر المؤرخون[٥] ، أن الحاكم قلّد الحسين بن جوهر البريد والإنشاء . فكان البريد فى جميع الدول الإسلامية فى العصور الوسطى ، قائماً بشئون الدولة وحدها ، دون الناس . وليس لدينا للأسف عن البريد الفاطمى ، غير معلومات ضئيلة ؛ فكل ما نعرفه أن الذى يهيمن على إدارة البريد يقال له : «صاحب البريد»[٦] .

---

(١) ابن ميسر ، ص ٧٨ .

(٢) انظر . قبله ؛ ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٤٠ — ٤١ ؛ ابن حجر ، رفع ، ورقة ٨٤ و ١٩٦ .

(٣) المقريزى ، الخطط ١ ص ٤٠٣ .

(٤) ابن الصيرفى : Code, p. 112.

(٥) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٤ س ٢٠ — ٢١ ، ص ٢٨٥ س ٢٧ ؛ ابن ميسر ، ص ٥٥ .

(٦) ابن القلانسى ، ص ٦٠ .

أما أمور مخاطبة الخليفة ، فإن عملها يكون فى قصر الخليفة نفسه ، ويشرف عليها موظف كبير يُعرف باسم : « صاحب الرسالة » ، كان يقوم بنقل أوامر الخليفة إلى الوزراء وأرباب الوظائف الكبار[٢] .

ومن ناحية أخرى يعرفنا ابن القلانسى[٣] ، بأن نظام البريد بواسطة الخيل ، كان موجوداً بين مصر والشام .

وفى هذا العصر ، استعمل الفاطميون أيضاً حمام الرسائل فى نقل البريد[٤] ، لامتداد مملكتهم واتساعها ؛ كما كان لبعض الوزراء الفاطميين بريدهم الخاص بواسطة الحمام الزاجل[٥] .

أما إدارة « قلم مخابرات الدولة » ؛ فإنها — على ما يظهر — كانت تحت إشراف ديوان الإنشاء[٦] ، ولا تشتمل إلا على الموظفين المهرة فى جمع المعلومات لخلفائهم ، عن كل ما يحدث فى أركان خلافتهم . وكان رئيسهم يسمى : « بصاحب الخبر »[٧] ، وهو شخصية ذات شكيمة ، تحتل مركزاً سامياً فى الدولة الفاطمية .

---

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٨٥ .

(٣) ذيل ، ص ٦٠ . ومع ذلك يقول القضاعى ، بأن خبر غزو مصر على يد جوهر ، وصل إلى الخليفة المعز بواسطة « النجابين » ، الذين يمتطون النجب . أنظر . تاريخ المعارف ، ورقة ١٧٩ . كذلك يقول المقريزى ، بأن « النجابين » ، حلوا إلى القاهرة لطلب خبر غزو الفرنج لولاية الشرقية ، فى ٥٠٩/١١١٢ ؛ حيث أرسلهم والى الشرقية إلى القاهرة لطلب العون . أنظر . الخطط ، ١ ص ٢١٢ ص ٧ و ٨ . وعلى العكس ، يذكر القلقشندى أن البريد بواسطة الخيل ، كان معروفاً قبل الفاطميين ، عند البويهيين والزنكيين . صبح ، ١٤ ص ٣٧٠ ؛ انظر .La Pose des Chevaux dans l'Empire mamelouks, p.11 : Sauvaget فلعل التحسينات التى أدخلت على نظام البريد ، كانت سبباً فى طمس معالم نشأته .

(٤) صبح ، ١٤ ص ٣٩٠ — ٣٩١ ؛ انظر .Die Renaissance : Mez ، ترجمة أبى ريدة ؛ ٢ ص ٢١٦ .

(٥) صبح ، ١٤ ، ص ٣٩١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٧ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٧) نفسه .

وفى أيام الآمر، كان قلم مخابرات الدولة الفاطمية يشمل جواسيس من الجنسين[١]. ويلوح لنا — من نتف المعلومات التى وصلتنا عن هذه الجاسوسية الحكومية — أنها ازدادت نشاطاً فى عهد المأمون البطائحى (٥١٥—٥١٩/١١٢٢—١١٢٥)[٢]، وزير هذا الخليفة؛ فقد بث الوزير الجواسيس فى كل أقطار الأرض، لإخباره بالحوادث التى تقع.

وفى الجملة كان لنظام المراســـلات الفاطمية، سواء أكانت داخلية أم خارجية، ترتيب محكم؛ فقد كانت تُجعل فى «أضابير»[٣]، عليها «بطائق» مكتوب فيها محتوياتها وإقليمها وتواريخ وصولها.

نظر المظالم:

وهو «التوقيع على القصص»[٤]، ويكون جزءاً من عمل ديوان الإنشاء. فحينما يبدى «قاضى المظالم» رأيه فى الظُّلامات (قصص) المقدمة إليه، تُحمل هذه إلى ديوان الإنشاء، الذى يكون فيها رأياً نهائياً، باسم الخليفة؛ فقد كان فى هذا الديوان موظف خاص: «الموقع على القصص» له حق «التوقيع» بعلامة الخليفة على القصص. وسنتكلم عن هذا النوع من القضاء، عند الكلام عن الوظائف القضائية، وإن كان نظر المظالم يكون جزءاً كبيراً من نشاط هذا الديوان.

---

(١) ابن ميسر، ص ٦٥ — ٦٦؛ انظر. حسن إبراهيم، الفاطميون فى مصر، ص٣٣٦.

(٢) ابن ميسر، ص ٦٥ — ٦٦.

(٣) ابن الصيرفى: Code, p. 109؛ صبح، ١ص ١٣٦.

(٤) ابن الصيرفى: Code, p. 112-115.؛ انظر Björkman. Beiträge, p. 27.

المالية : الدواوين — الضرائب — الدخل الخاص — بيت المال — الميزانية — النقود .

أصبحت مصر إبان الحكم الفاطمى خلافة مستقلة ، ذات موارد مالية متعددة ، ولجدة تنظيمها ، بقى نظامها المالى أنموذجاً للتنظيم المالى بعد الفاطميين ، وعلى الأخص فى عهد المماليك .

وكانت هذه النظم المالية الناشئة فى أول الأمر، قد ازدادت تعقيداً وتشعباً فى آخر الحكم الفاطمى . فبادىء ذى بدء ، جُعل أمر الأموال وما يتعلق بها ، إلى موظف واحد عُرف باسم: «متولى الخراج»، يقوم بجباية الخراج، وينظر فى سائر وجوه الأموال (١) .

ولكن النظم المالية أخذت على التدريج حظها من الأهمية ؛ بحيث أنها أصبحت تشتمل على عدد كبير من « الدواوين » ، ووضعت تحت إشراف صاحب : «نظر الدواوين» (٢)، الذى كان له الإشراف العام على كل الدواوين المالية . كما تطلب تشعب هذه النظم المالية أيضاً ، ظهور ديوان جديد هو : « ديوان التحقيق » (٣) ، ليقوم بمراجعة عمل الدواوين المالية الأخرى ، ويتبع « نظر الدواوين » ويلحق به . وإنا نجهل تاريخ نشأة هذين الديوانين (٤)

---

(١) ابن ميسر، ص ٤٥؛ المقريزى، الخطط، ٢ ص ٥٠.

(٢) صبح، ٣ ص ٤٩٣؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٠٠.

(٣) نفسه؛ نفسه، ١ ص ٤٠١.

(٤) نعرف أن الوزير الأفضل جدد «ديوان التحقيق» فى ٥٠١/١١٠٧؛ وقد بقى هذا الديوان بعد ذلك إلى وقت سقوط الخلافة الفاطمية، وحتى فى عهد المماليك. أنظر، ابن ميسر، ص ٤٢.

اللذين ظهرا لأول مرة فى مصر، وكان لهما الإشراف العام على مالية البلاد.

وكانت موارد الدولة هى نفسها التى كانت فى العصر السابق على الفاطميين، وفى العصر الذى تلا عصرهم، تتكون من مصادر متعددة.

فكانت أولاً تأتى من ضريبة الأرض، وتسمى: « الخراج »؛ كلمة من أصل يونانى[١]، بمعنى الضريبة التى كانت تُفرض على مساحة الأرض؛ هى تشتمل على المال الذى يجبى كل سنة على الأرض المزروعة، وعلى الواجبات العينية من: غلة ونخل وكروم وفواكه وأغنام ودجاج وشهد، وغيرها من منتجات القرية[٢].

ولقد كانت أرض مصر سبباً فى إثارة موضوع تعدد فيه النقاش؛ فقد كان الخلاف آتياً من الإختلاف على طبيعة الفتح العربى لمصر، وهل فتحت مصر صلحاً أو عنوة؟[٣] مما كان يترتب عليه إختلاف النظرة بالنسبة لاستغلال الأرض؛ ففى الحالة الأولى تُترك الأرض ملكاً لأهلها بخراج معلوم، وفى الحالة الثانية تصبح الأرض غنيمة للفاتحين، فتقسّم عليهم أو قد يعدل عن تقسيمها ويعوضون عنها. وعلى كل حال، كان خلفاء الفاطميين يملكون أرض مصر، كما كان يملكها الفراعنة من قبل.

فكانت الأرض تؤجر إلى كبار السكان من المزارعين، بصفتهم: « متقبلين »

---

(١) أنظر: Massé. La Propriété territoriale, p. 20. : Van Berchem: Islam, p. 63.

(٢) المقريزى، الخطط: ١ ص ٨٣ — ٨٤؛ انظر: Bouriant. Description top. : Van Berchem: et hist de l'Eg. p 297. : La Propriété territoriale, p. 49. أن جباية الواجبات العينية ترجع فى أصلها إلى النظام الرومانى، وهى ضريبة إضافية لضريبة الأرض.

(٣) المقريزى، الخطط، ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١ ص ٤٦٩؛ انظر: Gottheil: Dhimis and Moslems in Egypt, p. 353 - 414. : Van Berchem. Propriété territoriale, p. 8.

أو « ضُمّان »(١)، يتعهدون بدفع ما عليهما من ضريبة، لقاء استغلالها؛ فكان هذا النظام يضع الأرض فعلياً، في ملكية الدولة. وكانت « قبالات » الأرض تتم بطريقة « التزايد »(٢) لأربع سنين، لإتاحة الفرصة للمتقبل أن يعوض النقص فى حالة المحصول السيء. أما بقية سكان مصر، من غير كبار المزارعين، فإنهم كانوا أشبه برقيق الأرض، وإلى عهد الفاطميين، كان الصراع جارياً ضد الهاربين من المزارعين(٣).

وبجانب أرض الخراج، لدينا براهين عديدة على وجود أرض خُصصت للاقطاع، تُعرف: « بالإقطاعات »، وأصحابها يسمون: « بالمقطعين »؛ فيعطى للأجناد أو للأمراء، قطع من الأرض مختلفة المساحة، لقاء خدماتهم العسكرية، حسب درجاتهم. ويلاحظ المقريزى، أن هذه الإقطاعات كانت فى عهد الدولة الفاطمية قليلة؛ إلا أنها تضاعفت(٤) فى أواخر أيامها، بسبب زيادة سلطة رجال الجيش، وإن لم تبلغ الأهمية التى أصبحت لها فى العهود التالية على الدولة الفاطمية. وفى الواقع إن كلمة الإقطاع فى ذلك الوقت لم تتضمن معنى الرق، فلم تُعرف بهذا المعنى إلا فى عصر المماليك. وعلى حسب قول المقريزى، كانت إقطاعات الأجناد الصغيرة سبباً فى تضرر أصحابها، فلم يكن يُتحصل منها شيء كثير، مما اضطر الوزير البطائحى فى ٥٠١/١١٠٧ — ٨، إلى المسامحة « بالبواقى » من الأموال مما عليهم للدولة؛ وعلى العكس كانت إقطاعات الأمراء الكبيرة قد تضاعف دخلها. ثم إن توزيع هذه الإقطاعات، أصبح يُعطى إلى مدة ثلاثين سنة(٥)، لإتاحة الفرصة لاستغلالها.

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ٨٢ س٩ — ١٠؛ Wiet: M.I.F.A.O.، ٣٣، ص٢ س٨؛ انظر Bouriant, p.240؛ Mez: Die Renaissance، ترجمة أبو ريدة، ١ ص٢١٢.

(٢) المقريزى، الخطط، ١ ص٨٢ س٢٨ـ٢٩؛ انظر Becker: L'Egy, p. 14-16.

(٣) نفسه، ١ ص ٨٢ س ٣٤؛ انظر. نفسه، ص ١٤ — ١٨.

(٤) المقريزى، الخطط، ١ ص ٨٥ س ٣٥ — ٣٦.

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٨٣ س١٣.

وأخيراً ، يذكر المقريزى[١] وجود « ملكية » خاصة، على نطاق ضيق، فى حيازة الأقوياء المميزين فى الدولة ، الذين كان لهم مطلق الحرية فى تأجيرها أو بيعها[٢] .

وقد كان الخراج الذى يفرض على الأرض يتغير بحسب النواحى، وأصناف الزراعات ، وصلاحية الأرض للزراعة ، ومساحة ما يشمله الرى من الأراضى . ولم يهمل كتاب الأخبار المصريون أبداً[٣] ، ذكر سنين الشدة والمجاعة ، التى كان يتسبب عنها اضطراب فى جباية الخراج ، وفى الاقتصاد العام . ويظهر لنا إختلاف الخراج، فى نواحى البلاد ، من الجدول الذى ضمنه أبو صالح كتابه[٤]، فهو على نوعين : جزء يدفع نقداً ، وجزء يدفع عيناً . فكان خراج الصعيد ، يستخرج عيناً من الحبوب وبخاصة من الغلال ، ويبلغ ثلاثة أرادب لكل فدان[٥] . أما فى أسفل الأرض ، فإن الخراج كان يستخرج بفرض ثلاثة دنانير ونصف لكل فدان ؛ ولكن ابن حوقل يروى أن الناقد جوهر جباها سبعة دنانير[٦] .

وفى عهد الفاطميين تطورت جباية الخراج ، فكانت تشتمل على عدة دواوين ، كان وجودها غير محقق فى أوائل عهد الدولة . وأكبر الظن أن هذه الدواوين استحدثت فى خلال ذلك العصر ، وإن بقيت معلوماتنا ضئيلة عن اختصاصاتها ، المتعددة النواحى .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٨٣ س ١٠ ؛ انظر . M. I. F. A .O: Wiet ، ٢٢ ص ٦ س ٤ و ٥ .

(٢) المقريزى ، الخطط، ١ ص ٨٣ س ١١ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣٣٧ ؛ كشف الغمة فى إغاثة الأمة، للقاهرة ١٩٤٠ ، ص ١٠ .

(٤) الكنائس، (٧ أ — ٩ أ) ص ١٠؛ ترجمة، ص ١٧ — ١٨ .

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ١٠١ س ٢٧ ؛ انظر . Tritton: Islam and the protected religions. J.. R. A. S. July. 1928, p. 499.

(٦) مسالك ، تحقيق De Goeje ، أبريل ١٨٧٣، ص ١٠٨؛ انظر . Tritton : Islam and the protected religions,J.R.A.S,July.1928,p.499. طوسون؛ كتاب مالية مصر، ص ٢٢٢. كذلك صدر فى أيام الأفضل سجل قرىء فى الإيوان فى ١٩ من المحرم ٤٩٢هـ؛ تضمن نقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية ،بدلاً من الشمسية . سيرة الآباء، ٣ ورقة ١٠٦ .

فيذكر القلقشندى ديوانين كانا يقومان بالإشراف على جباية الخراج، أحدهما يُعرف باسم: «ديوان الصعيد»[١]، والثانى يعرف باسم: «ديوان أسفل الأرض[٢]»، على رأس كل منهما رئيس: «مُشارف».

ومن ناحية أخرى، كان للاقطاعات ديوان يُعرف باسم: «ديوان الإقطاع»[٤]، يقوم بتوزيع إقطاعات الأجناد.

وفى عهد الخليفة الآمر، ظهر ديوان جديد هو: «ديوان الخاص»[٥]، ذكره المقريزى وحده، كان يشرف على قدر الخراج المستخرج.

وبجانب هذه الدواوين، كان عدد كبير من المستخدمين، على الأخص من النصارى القبط[٦]، يقومون بتحديد الضريبة أو استخراجها، فنذكر منهم: «الكاتب»، الذى كان يحوز مساحة الأرض قبل وبعد المحصول[٧]؛ و«الشاهد العدل»[٨]، الذى كان على صلة بالمتقبلين والدولة، ويصحب غالباً الكاتب فى رحلاته؛ و«الشاهد» أو «المشارف»[٩]، الذى كان يشرف على عملية جباية الخراج، ويعمل على إدخال المحصولات المستخرجة على ذمة الخراج إلى بيت المال؛ و«الناظر»[١٠]، الذى كان يشرف أيضاً على جباية الخراج. وقد كان وجود

---

(١) صبح، ٣ ص ٤٩٥.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه، ٣ ص ٤٩٣؛ Wustenfeld: Die Geographie, p. 190.
(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٨٤ س ٣١.
(٦) أنظر. قبله؛ Becker: «L'Egypte»، فى دائرة المعارف الإسلامية، ٢ ص٨.
(٧) المقريزى، الخطط، ١ ص٨٦ س٣، ص٤٠٥ س٢٣ — ٢٤؛ ابن مماتى، قوانين، القاهرة ١٢٩٩هـ، ص٤؛ انظر Bouriant, p.245.28; Tritton: The caliphs, and their non-muslim subjects, p. 28-29.
(٨) المقريزى، الخطط، ١ ص ٨٦ س ٦، ص ٤٠٥ س ٢٣ — ٢٤؛ Wiet: M.I.F.A.O, 33, p. 14.-3.
(٩) المقريزى، الخطط، ١ ص ٨٦ س ٧.
(١٠) نفسه، ١ ص ٤٠٥ س ٢٤؛ انظر Becker: «L'Egypte»، فى دائرة المعارف الإسلامية، ٢ ص ١٤.

« المشارف » و « الناظر » من النظم البيزنطية ، التى بقيت زمناً طويلاً ، إلى مابعد الفاطميين . وأخيراً ، نجد الأجناد للاستخراج ، ذلك لأن الجباية كانت تحتاج إلى من عُرف بالحماسة وقوة البطش [١] .

الباب الثانى من موارد الدولة بعد الخراج، يشمل الجباية على الصادر والوارد، وهو يتكون من عدد من الضرائب ، عُرفت فى ذلك العهد ، بالأسماء التالية: « مكس » ؛ « عُشر » ؛ « خُمس » ؛ « سواحل » ؛ فكانت جميعها تفرض على الانتاج ، بعكس ضريبة الخراج ، التى كانت تفرض على الأرض .

فكانت ضريبة: « المكس » تُعتبر من أهم الضرائب التى تميز ذلك العصر ، وهى تدل فى معناها الضيق ، على الضريبة التى تؤخذ على السلع الواردة و الصادرة ، الموجودة فى الموانى . أما فى معناها الواسع ؛ فإنها تدل على ضريبة غير مباشرة ، تفرض على بعض البضائع عند ورودها إلى المدن ، وإن كانت لم تعرف بهذا المعنى إلا فى العصر الفاطمى [٢] . وقبل مجئ الفاطميين ، كانت هذه الضريبة تُعرف باسم : « الهلالى » [٣] ، لأنها كانت تُستأدى على حكم الشهور الهلالية ، بعكس الخراج الذى كان يُجبى على حكم السنة الشمسية أو القبطية ؛ كما كانت تُعرف أيضاً باسم : « المرافق » و « المعاون » [٤] ، ولكن فى العصر الفاطمى ، كانت كلمة « مكس » هى الغالبة . ويحدثنا المقريزى [٥] ، أن هذه الضريبة كانت تفرض على كل شىء ، وأن الهواء وحده أُخلى سبيله ، وبقى حراً ؛ فقد

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٨٦ س ٥ — ٦ ، ص ٤٠٥ س ٣١ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٠٤ . كانت كلمة « مكس » ، بمعنى ضريبة أسواق ، معروفة من قبل ، فى العصر الجاهلى . أنظر . Dozy : Suppl, 2, p. 606. أما كلمة « مقس » ، فإنها اسم قرية على ساحل النيل ، واقعة فى شمال القاهرة ، كانت تعرف من قبل باسم « أم دنين » ، ولكن سميت بهذا الاسم لأن « الماكس » كان يقعد بها ليستخرج « المكس » ؛ فكلمة « مقس » تحريف لكلمة « مكس » . أنظر . المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٢١ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ ؛ Becker : Beiträge, I, p. 144 et suiv.

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١٠٣ س ٣٩ ، ص ١٠٤ س ١ .

(٥) اتعاظ ، ص ١٠٣ .

كان المكس مقرراً على: المراعى، والمياه، والمصائد، والبضائع، وعبور البضائع (الترانسيت)، والذبائح، وسوق الرقيق، وأنواع الصناعات كالفاخور والمزر (النبيذ)[١]، وحتى على الحجيج[٢]. وكانت قيمة المكس تتراوح بين ١٠٪ و٢٥٪ من ثمن البضاعة. والواقع إن هذه الضريبة كانت جائرة وغير قانونية[٣]؛ بحيث أن السنيين استغلوا كره المسلمين لها في حملتهم ضد الشيعة؛ ولذلك حينما أزال صلاح الدين الخلافة الفاطمية، أمر بإسقاطها؛ كما عمل بعض الأتقياء من خلفاء الفاطميين أنفسهم، مثل الحاكم، على إلغائها[٤]، أو على الأقل على تخفيفها. وقد كانت حصيلة هذه الضريبة في السنة ١٠٠٫٠٠٠ دينار[٥]، ويذكر القلقشندى ديواناً خاصاً بها، هو: «ديوان الهلالى»[٦].

أما «العُشر»[٧]: فإنها ضريبة شرعية تؤخذ على بضائع التجار المسلمين؛ فيروى ناصر خسرو[٨] أن العشر كان يُجبى في عَيذاب، على البضائع الواردة من الحبشة وزنزبار واليمن. وقد جبى الخليفة عمر هذه الضريبة، ولذلك أعتبرت شرعية، على عكس «المكس»، الذى أعتبر غير شرعى.

أما «الخُمس»: فإنه يُستأدى غالباً على بضائع الأجانب، الواردة في البحر

---

(١) المقريزى، الخطط ١، ص ٨٩.

(٢) ابن خلدون، مقدمة، ٢ ص ٨٣؛ ابن جبير، رحلة، تحقيق Wright، ليدن ١٩٠٧، ص ٥٥—٥٦. هذا المكس يبلغ سبعة دنانير ونصف، وكان يجبى في عيذاب، وهو ميناء على البحر الأحمر.

(٣) المقدسى، تحقيق De Goeje، ص ٢١٣.

(٤) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٨٥.

(٥) نفسه، ١ ص ١٠٤ س ٥—٦.

(٦) صبح، ٣ ص ٤٩٦. يبدو أن كلمة «هلالى»، بقيت في العصر الفاطمى لتدل أيضاً على هذه الضريبة.

(٧) أبو يوسف، كتاب الخراج، ط. بولاق ١٣٠٢هـ، ص ٧٦ — ٨٠؛ صبح، ٣ ص ٤٦٣؛ الخطط، ط. مصر، ١ ص ١٦٧؛ Wustenfeld, Die Geog, p. 162.

(٨) أنظر. Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 177—8.

إلى الديار المصرية ، وهو مذكور من ضمن موارد الدولة[١] . وكانت قيمة هذه الضريبة تتراوح حدودها بين ٣٥ر١٠٠ دينار ، وأحياناً قد تنحط جبايتها عن ٢٠ دينار . ويروى المقريزى ، أنه كان من تجار الروم ، من يؤخذ منهم العُشر بدل الخمس عمّا معهم من البضائع ، وإن كان لا بد من وجود اتفاق سابق ؛ كما أن هذه الضريبة كانت فى بعض الأحيان تُجبى عيناً .

أما عن « السواحل »[٢] : فإنها كانت أيضاً من ضمن موارد الدولة ، وعلى الرغم من أن معلوماتنا عنها قليلة ، فإننا نعرف عموماً ، أنها كانت تستأدى فى الثغور الساحلية ، مثل : الإسكندرية ودمياط وسترو والبرلس والفرما[٣] ، ويذكر القلقشندى ديواناً خاصاً بجبايتها ، هو : « ديوان الثغور »[٤] .

المورد الثالث ، حسب قول المقريزى[٥] ، هو ضريبة : « الجوالى » ، التى كانت تفرض على غير المسلمين ؛ وقد بلغت هذه الضريبة — فى عهد الآمر — عن كل نفس ديناراً وثلثاً ، وأحياناً دينارين[٦] . ولسنا نعرف مقدار حصيلة

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١٠٩ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٦٣ ؛ انظر . Wustenfeld: Die Geog, p. 162.

(٢) ابن ميسر ، ص ٤٥ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٩٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٤٩٥ س ٢٠ — ٢١ : الإسكندرية ، مدينة كبيرة على البحر الأبيض . أنظر ، نفسه ، ٣ ص ٣٨٩ ؛ اليعقوبى ، البلدان ، ترجمة Wiet ، ص ١٩٦ . دمياط بلد على شاطىء البحر . أنظر . اليعقوبى ، البلدان ، ترجمة Wiet ، ص ١٩٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٣٨٧ ؛ طوسون ، جغرافية مصر ، ص١٩ . نسترو عاصمة نستراوية ، بين دمياط والاسكندرية . أنظر . ابن دقماق ، الانتصار ، طبعة بولاق ١٨٩٣ ، ٥ ص ١١٣ ؛ أبو صالح ، السكنائس ، ترجمة ص ١٨ . البرلس على شاطىء البحر . أنظر . اليعقوبى ، البلدان ، ص ١٩٥ ؛ طوسون ، جغرافية ، ص ١٨ . الفرما ، بلد قديم على شاطىء البحر ، ومنها يدخل الى البلاد المصرية . أنظر . صبح ، ٣ ص ٣٨٦ ؛ البلدان ، ص ١٩٤ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١٠٧ ؛ انظر . Bouriant, p. 308 .

(٦) أبو صالح ، السكنائس ، (١٩) ص ١٢ ، ترجمة ص ١٩ .

هذه الضريبة فى زمن الفاطميين ، ولكن المقريزى[١]، يقدر ما يتحصل منها فى سنة ٥٨٧/ ١١٩١ ، أى بعد عشرين عاماً من زوال دولة الفواطم من مصر، بـ ٠٠٠ر١٣٠ دينار . ويقول الشيزرى[٢] إن مراقب الأسواق « المحتسب»، كان يقوم بجباية « الجوالى». ويذكر القلقشندى أيضاً ، ديواناً خاصاً بها ، يعرف باسم : « ديوان الجوالى »[٣] .

وأخيراً ، كان فى أبواب الدخل موارد أخرى فرعية ، تأتى بمال كثير إلى بيت المال .

نذكر منها : الشب والنطرون المستخرج من الصعيد ، حيث كانت الدولة تبيعه إلى تجار الروم ؛ بسعر ٥٠٠ر٧٧ دينار فى السنة[٤] .

ونذكر أيضاً ، ما كان يتحصل من سك العملة وتغييرها ؛ فقد كان يتحصل منها مال كثير .

ثم نذكر مصادر مالية متعددة ، مثل: « الزكاة[٥] » ، التى كان يدفعها السنة والشيعة على السواء ؛ و « أعمال المؤمنين » ، التى كان يدفعها أتباع المذهب الفاطمى ؛ و« الفطرة » ، التى كانت تجبى فى مناسبة عيد الفطر ؛ و « النجوى » ، وهى ضريبة الدعوة التى كان يتحصل منها مال كثير ، وتبدو إختيارية ، ولكنها على حسب قول النعمان إجبارية[٦] . وهذه المصادر لم يكن لها معنى ضرائب حقيقية ، وإنما كانت أشبه بواجبات دينية ، أو بالأحرى مذهبية .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١٠٧ ؛ انظر . Bouriant, p. 309 .
(٢) نهاية الرتبة ، تحقيق العرينى ، ص ١٠٧ .
(٣) صبح ، ٣ ص ٤٩٦ .
(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١٠٩ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦١ .
(٥) السجلات المستنصرية : (٢٣) ، (٣٦) ص ١٢٢ ، (٥٧) ص ١٨٨ .
(٦) الهمة ، ١ ص ٧٠ .

ولا بد لنا بالضرورة من الفصل بين الموارد المالية التي تُدفع إلى بيت المال، وبين الموارد الأخرى التي تذهب إلى الخزائن الخاصة.

فنذكر من هذه الموارد، مال من يموت وليس له وارث [١]؛ وقد أنشأ له الفاطميون ديواناً، عُرف باسم: «ديوان المواريث الحشرية» [٢]، كان يتولاه بالضرورة شاهد عدل.

ولنذكر أيضاً، مال: «الأحباس»، الذي كان يُوضع تحت إشراف قاضي القضاة، ويُخصص للعناية بالأماكن الدينية؛ والصرف على المستحقين في المساجد؛ وكان له ديوان يعرف باسم: «ديوان الأحباس» [٣].

وأخيراً نذكر موارد الخليفة الخاصة؛ فقد كان الاحتفاظ ببلاط باذخ، والانفاق على أبهة القصور، التي حيرت جميع المؤرخين، الذين تعرضوا لوصف هذه القصور، يحتاج من الخليفة الاستحواذ على موارد مالية طائلة، لا يمكن إدماجها في الموارد العامة للدولة. فيشير المؤرخون بكلام مقتضب إلى «ديوان المجلس» [٤]، الذي كان له الإشراف على أموال الخليفة. ويشيرون أيضاً إلى موظف بالقصر يعرف باسم: «صاحب الدفتر» [٥]، كان من عمله كما يدل عليه اسمه، الإشراف على نفقات القصر. وكذلك نجد تعبيرات متميزة تُستعمل

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ س ١١١؛ صبح، ٣ س ٤٦٤.

(٢) صبح، ٣ س ٤٩٦.

(٣) نفسه، ٣ س ٤٩٤ — ٤٩٥؛ المقريزى؛ الخطط، ١ س ٢٩٥.

(٤) نفسه، ٣ س ٤٩٣ — ٤؛ نفسه، ١ س ٨٢، ٣٩٧ وبعدها. يروى المقريزى أن متولى هذا الديوان كان «زمام» كل الدواوين الأخرى. أنظر. الخطط، ١ س ٨٢ س ٣٢. ولكنه يروى في مكان آخر، أن هذا الديوان يلحق «بديوان النظر». أنظر. نفسه، ١ س ٣٩٧. ويضيف المؤرخ أيضاً، أن «ديوان المجلس»، كان يشرف على خزانة الخليفة، وعلى توزيع الاقطاعات. والواقع إنه من الصعب، تحديد اختصاص «ديوان المجلس»؛ وإن كان من الجلى أن عمل هذا الديوان الأساسى هو الإشراف على خزانة الخليفة.

(٥) صبح، ٣ س ٤٨٩؛ المقريزى، الخطط، ١ س ٣٩٧.

أيضا للدلالة على وظائف القصر المالية ، مثل : « خِزانة الخاص »[١] أو « ديوان الخاص »[٢] ، وهى تسميات — فى الواقع — غير دقيقة ، ولا تظهر دائماً فى كتب المؤرخين[٣] .

ومصادر الدخل الخاص متعددة . فيروى ناصر خسرو[٤] أن الخليفة كان يملك أراضٍ واسعة ، جزء منها واقع على ساحل « الخليج » ، مساحتها تشمل ١٦٠ قرية .

ويروى نفس الرحالة ، أن للخليفة أملاكاً عقارية كثيرة[٥] ، فى القاهرة ومصر ، تقدر بـ ٢٠ ألف بيت معدة للايجار ، وبـ ٢٠ ألف دكان يؤجر الواحد منها بعشرة دنانير فى الشهر ؛ ويشير أيضاً إلى خانات وحمامات وقياسر ورباع وغيرها من أملاك الخليفة ، التى يصعب إحصاؤها .

ولكننا نظن بأن غنى الخلفاء الفاحش ، جاء قبل كل شىء من التجارة والصناعة؛ فيروى ناصر خسرو[٦] — فى رحلته — أن الخلفاء كانوا يملكون عدداً كبيراً من المراكب. فكان فى تنيس وحدها ألف مركب، بعضها ملك لتجار ، وإن كانت الغالبية العظمى منها ملك خاص للخليفة. فقد كان الخليفة يستفيد — إلى حد كبير — من مركز مصر الوسيط بين الشرق والغرب ، للاشتغال بالتجارة مع الهند ؛ كما كانت المراكب التى تحمل البضائع من الهند

(١) ابن ميسر ، ص٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٩٤ س ٣١ — ٣٢، ٤٨١ س ٣١ .
(٢) نفسه ، ص ٥٤ ؛ نفسه ، ١ص ٣٩٩ س ٣٧ ، ٢ ص ١٩٦ س ٢٦ .
(٣) وهكذا وجدت دواوين مالية للاشراف على أموال أقارب الخليفة. فنذكر، مثلاً: « ديوان أم المستنصر » ، الذى كان له الإشراف على أموال أم الخليفة . فكان اليازورى ، وزير المستنصر فى ٤٤٢ / ١٠٥٠ ، يشرف على أموالها بالإضافة إلى منصبه كوزير وقاضى القضاة . أنظر . ابن ميسر ، ص ٥ .
(٤) أنظر. Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 134؛ المقريزى، الخطط، ١ص ٤٨٨.
(٥) أنظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, 127 .
(٦) نفسه ، ص ١١٢.

إلى العالم الخارجى ، تمر بالضرورة بموانى الخليفة فى مصر . وكذلك كانت الصناعة تبدو فى نهضة بخاصة فى مناسج الخليفة (طرز)[١] ، فيروى ناصر خسرو أن شروط العمل كانت حسنة للصناع المصريين فى هذه المناسج .

وهكذا كان دخل الخليفة الواسع يتكون من كل هذه الموارد ، مما كفل له التمتع بحياة راغدة ، والإبقاء على حاشية كبيرة ، وقصر مترف .

ولكن ليس من السهل ، إيجاد تفرقة دقيقة[٢] بين « بيت المال » و« خزانة الخاص » فى ذلك العصر ، لأن كل دخل الدولة — فى الحقيقة — يوجد فى القصر .[٣] أضف إلى ذلك ، أن الموظف الذى يقوم بالإشراف على بيت المال : « صاحب بيت المال »[٤] ، كان يختار من بين خواص الخليفة ، من الأستاذين المحنكين فى القصر .

وقد كان للمبدأ السائد فى التنظيم المالى فى ذلك العصر ، هو ألا تذهب ايرادات الدولة بأنواعها المختلفة إلى بيت المال أو الخزائن الخاصة ، وإنما يخصص كل إيراد لنفقة معينة[٥] ، فكان بيت المال وخزانة الخاص لا يستعملان

---

(١) نفسه ، ص ١١٣ ؛ ابن مماتى ، قوانين ، ص ٢٤ ؛ أنظر : Bahgat: Les Manufactures, d'étoffes. Mém. de l'Inst. Eg. Avril, 1903, p.351. ؛ زكى ، كنوز الفاطميين ، ص ١١١ .

(٢) أنظر : Mez: Die Renaissance ، ترجمة ، ١ ص ٢٠١ . قام « ديوان المجلس » الذى كان له الإشراف على خزانة الخاص ، بربط ميزانية الدولة فى عهد اليازورى .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٨٥ س ٢٢ ؛ أنظر : Massé: L'Islam, p. 66.

(٤) صبح ، ٣ ص ٤٨٥ .

(٥) فى عصر الحاكم ، نسمع عن « ديوان النفقات » ، الذى كفل الإشراف عليه ، إلى الجرجرائى ، فى ٤٠٩ / ١٠١٨ . ولسنا نعرف — فى الحقيقة — اختصاص هذا الديوان ، وما إذا كان موجوداً طيلة الحكم الفاطمى . وربما كان هذا الديوان يقوم بالإشراف على نفقات الخليفة الخاصة . أنظر . ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٥

إلا فى تخزين الفائض والاحتياطى من الأموال . وحسب هذا المبدأ ، كان « الخراج » ، يُخصص للانفاق على الأجناد وغيرهم من أرباب الوظائف فى الدولة ؛ حيث كانت رواتبهم من بين نفقات الدولة ، التى كانت تثقل كاهل الميزانية ؛ فكان على « ديوان الرواتب [1] » ، أن يقوم بدفع « العطاء » إلى الأجناد والموظفين بإنتظام كل شهر. كذلك كانت ايرادات المكوس وغيرها تسد نفقات بعض موظفى الدولة وأجنادها [2] ؛ كما كانت ضريبة « النجوى » ، تخصص للنفقة على الدعوة الفاطمية للمذهب .

أما عن قدر إرتفـــاع أموال الدخل ، فلدينا أرقام متباينة جداً ، وإن كانت ضخمة على كل حال [3] . وكان المبدأ السائد فى ذلك الوقت : أن تُقدّم ميزانية الدولة كتابة ، لإحصاء قدر الإرتفاع والنفقات . وكان ربط الميزانية — وهو من الأمور الشائعة فى الدول الإسلامية فى العصور الوسطى — يتم حسب السنة الشمسية ، لأن الخراج الذى يكوّن الجزء الأكبر من الدخل ، كان يجبى على حكم السنة القبطية أو الشمسية [4] . فكان على « ديوان النظر » و« ديوان التحقيق » ، المقابلة بين الدخل والصرف .

---

(١) صبح ، ٣ س ٤٩٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ س ٤٠١ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ س ٩٩ ؛ انظر . Die Renaissane: Mez ترجمة ، ١ س١٢٧؛ Bouriant, p. 284. كان الإخشيد أول من فرض الرواتب بمصر .

(٣) صبح ، ٣ س ٤٩٦ س ٤ .

ذكر المؤرخون أرقاماً متباينة . فى ٣٥٨ / ٩٦٨ ، بلغ ارتفاع الدولة من الخراج ٠٠٠ ر ٤٠٠ ر٣ دينار . أنظر . ابن حوقل ، مسالك ، س ١٠٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ س٩٩ س٣٦ — ٣٧ ؛ Bouriant, p. 286 . وفى ٤٧٨/١٠٩٤ ، بلغت الضريبة ٠٠٠ر١٠٠ر٣ دينار . أنظر . المقريزى ، الخطط ، ١ س١٠٠ س ٩ — ١٠ ؛ Bouriant p. 286 . وفى ٥٤٠/١١٤٥ ، بلغت الضريبة ٠٠٠ ر٢٠٠ر١ دينار . أنظر . المقريزى ، ١ س١٠٠ س١٨ ؛ Bouriant, p. 287

(٤) ابن مماتى ، قوانين ، س ٢٧ ؛ الخطط ، ١ س٢٧٣ — ٢٨٥ ؛ انظر . Die:Mez Renaissance ، ترجمة ، ١ س٨٢ .

وكانت نفقات الميزانية فى مصر توزع بحسب الترتيب الآتى (١)؛ وإن كنا نجهل نفقات وإرتفاع كل ديوان :

٠٠٠ر٢٠٠ دينار للصرف على الأرض البور، أو غير المزروعة ، بسبب الموت أو هرب المزارعين .

٠٠٠ر٣٠٠ دينار تُصرف كعطاء للأجناد وأرباب الوظائف.

٠٠٠ر١٠٠ دينار ثمن غلة للقصور .

٠٠٠ر١٠٠ دينار نفقات القصور .

٠٠٠ر١٠٠ دينار نفقة العمائر، وإستقبال الضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم .

٠٠٠ر١٠٠ دينار فائض يُحمل إلى بيت المال .

إن العلاقة بين بيت المال، والنظام النقدى، موضوع طريف، فى هذا الفصل. فقد كانت مصر ، منذ فتحها المسلمون إلى قبل مجىء الفاطميين ، تستعمل العملة التى تضربها لها الخلافة السنية ، وإن كان من اللازم، أن نستثنى الفترة القصيرة التى كانت فيها مصر شبه مستقلة ؛ فقد عرفت مصر ، فى ولاية الطولونيين والإخشيديين ، دنانير باسم ولاتها ، ولنذكر على سبيل المثال ، الدنانير التى ظهرت باسم أحمد بن طولون ، وعرفت : « بالأحمدى » (٢) . ولما جاء الفاطميون من إفريقية ، خلفاء لا يخضعون إلا لأنفسهم، استقروا

(١) المقريزى ، الخطط، ١ ص٨٢ س ٣٠ — ٣٧ ، ص ٩٩ — ١٠٠ ؛ انظر .
Bouriant, p. 237.

(٢) المقريزى، الخطط، ١ ص٤٢ س٣؛ أنستاس مارى ، النقود العربية وعلم النميات ، ص ٥٤ ؛ انظر . Sauvaire: Matériaux pour servir à l'hist de la numis. et de la métrol. musul, p. 122-123.

فى مصر ، وعملوا على إصدار عملة جديدة تحمل اسمهم ولقبهم وعقيدتهم الدينية[١] . فكان إصدار العملة باسمهم ، فى البلد الذى يحكمونه ، يدل فى كل وقت على سيادتهم السياسية ، وعلى تأكيد نفوذ دولتهم ، وعلى هزيمة أعدائهم ، العباسيين . ولما كان الفاطميون من الشيعة ، فإن عملتهم المصرية ، كانت تحمل بالضرورة صبغتهم المذهبية ؛ فكانت الدولة الجديدة باصدارها عملتها ، تعلن أيضاً عن عقيدتها الدينية .

وكانت العملة فى عهد الفاطميين ، كعملة فى كل الدول الإسلامية ، تعرف باسم : السكة ، وهذه الكلمة ، على حسب قول ابن خلدون[٢] ، تدل على خاتم الحديد الذى تطبع عليه العملة ، أو تضرب عليه بالمطرقة ؛ ولذلك فإن لفظة السكة أطلق عليها وعلى الدار التى تصنع فيها ، فسميت : « دار السكة » أو « دار الضرب »[٣] .

وقد صارت مصر بمجىء الفاطميين ، مركزاً لضرب العملة الفاطمية ، فوجدت دور الضرب موزعة فى طول البلاد وعرضها : فى القاهرة ومصر والإسكندرية وتنيس وقوص ؛ وفى أرجاء الخلافة : فى صور وعسقلان وطبرية ودمشق وصقلية والمهدية والمنصورية .

ولأهمية الإشراف على دور ضرب العملة الفاطمية ، كانت تضاف إلى اختصاصات قاضى القضاة[٤] ، وتكتب فى سجلة من جملة ما يضاف إلى وظيفته ؛ فكان يقوم بضبط الدنانير فى العاصمة ويحضر فى موعد الفتح والتغليق .

---

(١) يشير جوهر فى كتاب « الأمان » الى سكان الفسطاط ، بضرورة تجديد العملة وتجويدها ، لقطع الغش منها . أنظر . اتعاظ ، ص ٦٧ — ٧٠ ؛ ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، تحقيق Vonderheyden ، ص ٤٢ ، ترجمة ، ص ٦٥ ؛ انظر . Canard: Annales, de l'Inst, d'Et, Or, 6,2, 1942 - 1946, p. 179. ; Quatremère: Vie de Mu'izz, J.A.S, 1836, p. 438

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٨ ؛ انظر . أنستاس مارى ، ص ١٠٣ .

(٣) ابن مماتى ، قوانين ، ص ٢٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٦ ، ٤٤٥ .

(٤) صبح ، ٣ ص ٤٦٦ س ٧ و ٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٤ ، ٤٤٥ .

وكانت العملة الفاطمية تتكون من الدينار والدرهم، كالعملة في بقية العالم الإسلامي[١]، ولكن الفاطميين، عند وصولهم مصر، منعوا المعاملة بالعملة ذات الفئة الصغيرة، مثل: «المثقال» و«القطع»[٢]. وقد لاحظ المقريزي، بكل دقة، أن العملة في مصر كانت تضرب من المعدنين، الذهب والفضة، أما «الفلوس»، وهي عملة من نحاس أو من نحاس مخلوط، كانت تعتبر دائماً غير قانونية[٣].

ولكن تغير نقش العملة الذهبية والفضية — في العهد الفاطمي — لتحمل طابع الدولة السياسي والديني، فكانت الصيغة الدينية للعملة تشتمل على العقيدة المذهبية الفاطمية؛ وهذا يؤيد مرة أخرى، شدة الصراع الذي كان بين الشيعة والسنة: فعلى أحد الوجهين، كتبت العقيدة الفاطمية[٤]: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وعلىّ ولىّ الله»، وعلى الوجه الآخر كتب: اسم الإمام. وقد كان يكتب أحياناً اسم الوزير[٥] مع الخليفة، على الأخص إذا كان وزير سيف؛ كما قد ينقش أيضاً اسم «ولىّ العهد»[٦]. كذلك كان يؤرخ للسنة التي ضربت فيها العملة، ويكتب اسم بلد ضربها، وإن كان أهم ما يميز العملة الفاطمية العبارة

---

(١) كان «الدينار» وحدة العملة الإسلامية، من الذهب، وهي كلمة أصلها لاتيني «Denarius»، استخدمت في عملة روما؛ فدخلت هذه الكلمة في العربية بتعريب خفيف «دينار». وعلى العكس، فإن درهم، لفظة فارسية معربة، كانت من الفضة. أنظر، أنستاس ماري، ص ٢٢ — ٢٥ والملاحظات.

(٢) القلقشندي، ١ ص ٤٠٢؛ انظر. Sauvaire, p. 49.

(٣) أنستاس ماري، ص ٥٤ و ٦٠؛ Massignon: L'influence de l'Islam au Moyen-Age sur la fondation et l'essor des banques Juives, Bull. d' Et. Or, Paris, 1931, p. 10. منذ صلاح الدين، استخدمت مصر في صنع الدراهم، النحاس أو النحاس المخلوط بالفضة. وأصل كلمة «فلوس» جمع «فلس»، يوناني أو لاتيني. أنظر، أنستاس ماري، ص ٦٠، ٦٢، ٦٧.

(٤) ابن خلدون، مقدمة، ٢ ص ٥٠؛ انظر. Lavoix: Cat. des monnaies musulmanes, de la Bibl, N, p.66,67,68,69'86: Sauvaire, p. 228؛ أنستاس ماري، ١٠٦.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ ص ١١٦.

(٦) نفسه، ٢ ص ١٥٤.

التى تدل على جودتها: فكان يُنقش عليها عبارة: «عال»[١] أو «عال غاية»؛ وهذه العبارة هى «العلامة»، أى الرمز الذى يبيّن صرف العملة على المعيار الرسمى، وقد قلدها الأيوبيون والصليبيون من بعدهم[٢].

وفى الواقع، لم يمنع الفاطميون كلية عند وصولهم مصر، التداول بالعملة السنية، فأبقوا التعامل، مثلاً، بالدينار «الراضى»[٣]، على اسم الخليفة العباسى الراضى؛ وبالدرهم «الرباعى»[٤]، المضروب فى عهد الخليفة العباسى المأمون؛ وبالدينار «الأبيض»[٥]، الذى كان متداولاً فى عهد الأمويين[٦].

كذلك أوجد الفاطميون عملة جديدة، وضعوها فى التداول، وتشددوا فى جباية خراج الدولة بها[٧]؛ فنذكر منها: الدينار «المُعزى»[٨]، على اسم الخليفة الفاطمى المعز؛ والدينار «المغربى»[٩]، الذى أدخله الفاطميون من المغرب. كما ظهرت لهم عملة ذات شكل معين، برسم بعض الأعياد، فكان يضرب من الذهب، برسم خميس العــــدس[١٠]، عملة باسم «خراريب»، وهى دراهم خفاف مدورة،

(١) أنظر Lavoix. Cat. des monnaies, 3, p. 154 ; 162, 169.

(٢) مقدمة، ٢ س ٢٢ .

(٣) المقريزى، الخطط، ٢ س ٦ س ٣ .

(٤) نفسه، ١ ص ٣٩٨ س ٢، ص ٤٥٠ س ٢٢ ؛ المقدسى، ص ٢٤٠ ؛ انظر Quatremère. Mém. Géog et Hist. sur l' Eg. 2, p.315 ؛ أنستاس مارى ص٤٨ ؛ Sauvaire, p. 157؛

(٥) الخطط، ٢ ص ٦ ؛ ابن ميسر، ص ٤٥ .

(٦) أنظر أنستاس مارى، ص ٤٢ — ٤٣ . سك الحجاج هذا الدينار .

(٧) الخطط، ٢ ص ٦ س ٢ ؛ انظر Sauviare. p. 228.

(٨) الخطط، ٢ ص ٦ س ٢ ؛ ابن ميسر، ص ٤٥ ؛ انظر Sauvaire, p. 224.9.

(٩) أنظر Sefer Nameh, trad. Schefer, p.132-3 ؛ ابن الأثير، ٩، ص ٣٠٨ ؛ Sauvaire, p. 229-230

كذلك وجد دينار منقوط من عهد العزيز بالله، فى وسطه كرة صغيرة مزخرفة؛ كأنها شمس تخرج منها أشعة، وتحيط بها دائرة . Lane- Poole : Catalogne of Oriental Coins in B.M. Vol IV. Coinage of the Fatemids etc. p. 14.

(١٠) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٠٥ ، ٤٥٠، ٤٩٠؛ انظر Sauvaire, p. 78.

وهو من الأعياد القبطية التى يسميها أهل مصر بالغلط «خميس العدس»، وكان نصارى مصر يعملون هــذا العيد قبل النيروز (وهو عيد رأس السنة القبطية) بثلاثة أيام. أنظر. بعده نفسه، ١ ص ٢٦٦، ٤٩٥ ؛ صبح، ٢ ص ٤١٧ ؛ Dozy: Suppl. I, p 185.

تساوى ١/٨ العملة العادية ؛ كما كانت تضرب أيضاً ، فى مناسبة موسم أول العام[١] ، عملة تعرف باسم : « الغُـرّة » ، وهى من الدنانير والدراهم المدورة أيضاً . وكانت « مقادير »[٢] العملة وتغييرها ، يتم على حسب رأى الإمام ، وتُصرف بالضرورة على عيار الدينار والدرهم الرسمى[٣] . وعلى حسب شهادة كتّاب العرب[٤] ، ومؤرخى الفرنجة ، كانت العملة توزن ولا تُعد ؛ فكانت قيمة الدينار إلى الدرهم ، تتراوح بين ١ : ١٥ ½[٥] و ١ : ٣٦[٦] . ولكن بسبب كثرة العملة فى المعاملة ، أو تآكلها أو تداخل الغش فيها ، فإنها تتذبذب فى القيمة ، مما يترتب عليه تزايد أسعار المبيعات ؛ فكان من الصعب ، أحياناً ، التمييز بين (الخالص) و (البهرج)[٧] ؛ بحيث كانت الدولة تلجأ إلى خفض الأسعار ، بمنع العملة الرديئة فى المعاملة[٨] .

وقد كان من عمل (الصيارفة) سحب هذه العملة الرديئة من التعامل ، ووضع

---

(١) صبح ، ٣ ص ٥٠٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٥ ، ٤٥٥ س ٢٠ .

(٢) هذه الكلمة – فى الواقع – مرادفة لكلمة « وزن » . أنظر . Sauvaire, p. 53

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٥١ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٩٣ س ٢٥ ؛ انظر . Sauvaire, p. 295 . كان عطاء رجال الأسطول يوزن فى حضرة الخليفة ووزيره .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٦ س ٤ .

(٦) نفسه ، ٢ ص ١٩٣ س ٢٥ — ٢٦ .

(٧) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٨ ؛ انظر . Sauvaire, p. 141 . كلمة « بهرج » استعراب كلمة « نبهرة » ، بمعنى مغشوشة . وبالعكس ، كلمة « الخالص » من فعل « خلص » ، بمعنى غير مخلوطة بمادة أخرى . أنظر . أنستاس مارى ، ص ١٣ ، ٣٠ ، ١٠٢ .

(٨) ابن ميسر ، ص ٤٩ .

عملة جيدة بدلاً منها . ويروى المقريزى أنه كان للصيارفة — فى ذلك العصر — رحبه تعرف : « برحبة الصيارفة » ، بجوار المسجد الجامع فى مصر[١] . ولما كان الدين يمنع المسلمين من الاشتغال بالمال ؛ فإن معظم أعمال الصيرفة ، كانت فى أيدى النصارى واليهود[٢] . فهكذا كانت الصفقات المالية ، بين القاهرة والمراكز التجارية الأخرى مثل بغداد ، تتم تحت إشراف هؤلاء الصيارفة[٣] . إن أكبر الظن ، أن القاهرة فى ذلك الوقت ، أصبحت مركزاً رئيسياً للمعاملات المالية ؛ بسبب نشاطها التجارى ؛ كمركز للصادر والوارد .

الإدارة المحلية : التقسيم الإدارى — تعيين الولاة — نظام الولايات .

لا نملك عن نظام حكم الولايات معلومات وافية ؛ غير أن الجدول[٤] الخاص بضريبة الخراج فى عهد الخليفة المستنصر ، يبين لنا مدى التغيير الذى حدث فى ذلك العصر ، فى التعابير الإصطلاحية الإدارية ، ولا سيما فى أوائل حكمه . فقد استعملت كلمة : « عمل » جمعها « أعمال » ، بمعنى مديرية ، وكلمة : « ناحية » جمعها « نواحٍ » ، بمعنى مركز ، وكلمة : « كفر » أو « قرية »[٥] ، أما كلمة : « كورة » بمعنى مركز ، التى

(١) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٤٠ س ٣٠ .

(٢) أنظر : Massignon. L'influence de l'Islam au Moyen-Age sur la fondation et l'essor des banques juives, B,E,O, 1931, p 10. Walter Fischel: The origin of Banking in mediaeval Islam, j R, A, S, April, 1933, p. 341.

(٣) فى ذلك العصر ، بدلاً من نقل المال من يد إلى يد ، كان يلجأ إلى وسيلة مصرفية ، فكانت التعابير الاصطلاحية . « سفتاجه » و « صك » و « رقعه » و « خط » ، تدل على إذن الصرف . أنظر : Fischel. Origin of Banking. J.R.A.S. April, 1933 .576-7.

(٤) أبو صالح ، الكنائس ، تحقيق Evetts ، (١٧ — ١٩) ص ١٠ — ١١ ، ترجمة ١٧ — ١٨ .

(٥) نفسه .

أخذها العرب كأساس لتقسيمهم الإدارى — نقلاً عن البيزنطيين، وبقيت دون تغيير في عهد الطولونيين [١] — فإنها لم تعد تستعمل بعد حكم المستنصر ؛ بل نضيف إلى ذلك، أن المعلومات التي لدينا عن استعمال كلمة « كورة » ، قبل الخليفة المستنصر، لا تبدو إطلاقاً دقيقة .

فصار « العمل » — وهو أكبر من الكورة — الوحدة الإدارية للبلاد، يشتمل على « النواحى » و« القرى » ؛ فقسمت مصر في عهد الفاطميين، إلى واحد وعشرين عملاً [٢] ، في حين أنها كانت تشتمل على ستين كورة في العصر الطولونى [٣] .

وعلى العكس ، لم يحدث أى تغيير في المصطلحات التي كانت تدل بالأحرى على تسميات جغرافية؛ فقد كانت أرض مصر في الجملة قسمين : « أسفل الأرض » و « الصعيد » [٤] . وكان يطلق أيضاً على « أسفل الأرض » اسم « الريف » ؛ وهو ينقسم إلى « بطن الريف » (البلاد الواقعة بين فرعى النيل) ، و « الحوف الغربى » (البلاد الخصبة من الدلتا الموجودة غرب فرع رشيد) ، و « الحوف الشرقى » (البلاد الواقعة شرق فرع دمياط) ، أما « الصعيد » ، فإنه كان ينقسم إلى « الصعيد الأدنى » و « الصعيد الأعلى » [٥] .

ومع أن البلاد كانت مقسمة إلى واحد عشرين عملاً ، فإن القلقشندى [٦] ،

(١) أنظر Zaki : Les Tûlûnides, p. 196.

(٢) أبو صالح ، الكنائس (١٧ — ١٩) ص ١٠ — ١١ ، ترجمة ١٧ — ١٨ .

(٣) القريزى ، الخطط ١ ص ٧٢ — ٩٣ ؛ أنظر Zaki : Les Tûlûnides, p.197.33 ; Wüstenfeld : Die Geog. p.92. ; Guest : The Delta in the Middle-Ages, J. R.A.S. October, 1912, p.941 sq.

(٤) صبح ٣ ص ٣٨٠ — ٣٨٥ ؛ أنظر Becker : L'Egypte, Ency, del'Isl.2, p.12.

(٥) السجلات المستنصرية : (٥٦) ص ١٨٥ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

لا يذكر غير أربعة أقسام إدارية سياسية، يقال لكل منها: «ولاية» جمعها «ولايات»؛ على رأس كل منها حاكم يعرف: «بالوالى»، فكانت الولايات، بحسب قوله، موزعة على أساس ولاية واحدة بالصعيد، وثلاث بأسفل الأرض. ففى الصعيد، توجد ولاية قُوص الهامة، التى يحكم متوليها على جميع بلاد الصعيد. أما أسفل الأرض، فيشتمل على: ولاية الشرقية التى يحكم متوليها على أعمال بلبيس وقليوب وأشموم؛ وعلى ولاية الغربية التى يحكم متوليها على أعمال المحلة ومنوف وأبيار؛ وأخيراً على ولاية الإسكندرية التى يحكم متوليها على أعمال البحيرة بأجمعها.

هذا التقسيم الذى أورده القلقشندى، لا يبدو دقيقاً، ذلك لأن مؤرخى العصر الفاطمى يذكرون أسماء ولاة كثيرين، لم يذكرهم القلقشندى. وفوق ذلك، كان للمدن التى تجاور الولايات، مثل: الإسكندرية وتنّيس وعَيذاب[1]، ولاة يحكمونها. كذلك يشير القلقشندى نفسه[2]، إلى سجلات عديدة، لولاة الوجهين القبلى والبحرى. فلعل هذه الولايات الأربع الكبيرة، تدخل تحت حكمها الولايات الصغار وبعض مدن الحدود، أو تكون هى التى استقر عليها الحال فى آخر دولتهم[3].

وقد كان حكام هذه الولايات يخضعون للسلطة التنفيذية؛ فكانوا يعينون بسجل[4] فى أوائل الحكم الفاطمى، من بين عناصر متعصبة للدولة، لتقوية السلطة المركزية. فيحدثنا المقريزى[5]، بأن المغاربة جُعلوا فى الولايات فى البلاد.

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ١٧٤ س ٣٤، ص ١٨١ س ٢٢، ص ٢٠٣.

(٢) صبح، ٣ ص ٤٩٨ س ١٢.

(٣) نفسه، ٣ ص ٤٩٨ س ١٠.

(٤) نفسه، ٣ ص ٣٩٨ س ١٢ — ١٣.

(٥) اتعاظ، ص ٨٧.

وفى بادىء الأمر ، كان الخليفة يعين الولاة من قبله ، ولكن عندما ضعفت سلطته ، أصبح تعيين الولاة من قبل وزراء السيوف، كما لم يكن يعزل الولاة عند وفاة الخليفة؛ بل تجدد ولايتهم[١]. والواقع إن سلطة الخليفة الواسعة، أخذت فى الضعف شيئاً فشيئاً؛ فيروى المؤرخون ، أن الوزير طلائع بن رزيك[٢]، كان يبيع ولايات الأعمال بأسعار مقررة .

وكان ضعف الخلفاء أيضاً ، سبباً فى زيادة سلطة الولاة ، بحيث أصبحت الوزارة — فى القرن الثانى من الحكم الفاطمى — احتكاراً لحكام الولايات. ومن الطريف أن نذكر، أن بعض وزراء الخلفاء — فى أواخر الدولة — كان معظمهم من ولاية قوص ، التى أصبحت فى ذلك الوقت ، كالوزارة فى الأهمية[٣].

وكانت اختصاصات الولاة تتمثل قبل كل شىء فى النيابة عن السلطة التنفيذية فى كل ولاية ؛ وإن كنا لا نستطيع أن نقرر أن لكل وال جيشاً من العسكر للمحافظة على هيبة الدولة ، هذا ، ويروى المقريزى[٤] بأن ولاة الثغور كانوا يستخدمون جيوشاً مستعدة بالأسلحة لحفظ الثغور ، على الأخص جيوش : أسوان وتنيس والقلزم.

ومن المحقق، أن إدارة الولايات فى زمن الفاطميين، كانت أفضل تنظيماً وأكثر استقراراً ؛ فكانت العلاقة بين الإدارة المركزية والإدارة المحلية أشد وأقوى . فنذكر، على سبيل المثال، ديوان الإنشاء فى القاهرة، الذى كان يشتمل على « أضابير » تحتوى تفاصيل الإدارة المحلية[٥]، عليها « بطائق » تدل على محتوياتها .

---

(١) صبح ، ٨ ص ٢٣٩ — ٢٤١ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٩٤ س ١٧ — ١٨ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٣ ص ٦٥ .

(٣) أبو الفدا ، Annales ، ٣ ص ٥٨٦ .

(٤) المقريزى ، الخطط ١ ، ص ١٩٨ س ٣٦ ، ١٨١ س ٢٢ ، ٢١٣ س ٨ .

(٥) ابن الصيرفى، أنظر، Code, p. 109

ونلاحظ باهتمام شديد ، بدء ظهور روح انفصالية بين السلطة التنفيذية والسلطة القضائيـــة ، فى الإدارة المحلية ؛ فقد كان قضاة الولايات (خلفاء النواحى)[١] والمحتسبون[٢] ، يقومون بعملهم القضائى ، نائبين عن رؤسائهم فى القاهرة . ولكن لم تصلنا أية تفصيلات ، عن الشرطة فى الولايات ؛ وإن كنا نظن بأن حكام الولايات يتولون بأنفسهم عمل الشرطة ، لاعتمادهم فى ذلك على قوة العسكر .

وأهم مايميّز هذه الإدارة المحلية هو نظام الدعوة ؛ فكان الدعاة يعملون — على مايظهر — فى أماكن كثيرة فى الولايات ، فمثلاً كان فى القُلزم داعية[٣] . ولسوء الحظ ، أننا لانستطيع أن نعطى فكرة واضحة عن نشاط الدعاة الفاطميين فى الولايات ، وذلك لأن أهل القرى المصرية ، كان معظمهم من أهل السنة المحافظين ، الذين لم يكن من السهل تحويلهم عن مذهبهم التقليدى .

وكذلك كان يوجد فى مدينة الإسكندرية موظف ، مالى « ناظر »[٤] ، على نسق ماكان فى القاهرة ، وقد كان هذا الموظف عنصراً هاماً فى إدارة المدينة .

ولكن بسبب نقص معلوماتنا ، عن الادارة المحلية ، لانستطيع التمادى فى وصفها فى ظل الدولة الفاطمية .

---

(١) ولاة ، ٥٩٢ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ س ٤٦٣ .

(٣) نفسه ، ١ س ٢١٣ س ٨ .

(٤) نفسه ، ١ س ١٧٤ س ٣٥ ، ١٧٥ س ٦ — ٧ .

الفصل الرابع

النظم الدينية

القضاء والدعوة

يطلق على مناصب رجال الدين فى الدولة الفاطمية فى مصر : « الوظائف الدينية »[1] ، وهى كالوظائف الإدارية ، تعتبر ضمن وظائف أرباب الأقلام، وتشتمل على نظم القضاء والدعوة ؛ وهما الدعامتان المميزتان للدولة الفاطمية فى مصر : فالأولى ترتكز على التشريع الفاطمى، والثانية على العقيدة الرسمية أو السرية . وكان أرباب الوظائف الدينية — عند الفاطميين — يمارسون هذه أو تلك دون تفرقة ، لأنه لم يكن يوجد حد فاصل بين الدين والتشريع فى الدولة الإسلامية[2] ، وعلى الأخص فى دولة مذهبية كدولة الفاطميين، حيث تسيطر العقيدة على كل نظم الدولة .

التشريع الشيعى :

فحينما جاء الفاطميون من إفريقية ، خلفاء منافسين لخلفاء بغداد ، أقاموا لدولتهم فى مصر سلطة قضائية مستقلة ؛ وبذلك بدأ عهد جديد فى تاريخ القضاء المصرى ، أصبحت فيه السلطة القضائية — مثل غيرها من السلطات — ملكاً للشيعة .

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٨٦ .

(٢) أنظر . Fyzee : Law and culture in Islam. Isl. Cult, Oct, 1943, XVII, p. 423.

ولقد عمل الفاطميون على احلال التشريع الشيعي محل التشريع السني ، الذى كان أساس الحكم ،منذ الفتح العربى لمصر فى ٢١ / ٦٤٢. فكان هذا التشريع الشيعي مهماً ، ليس فقط من حيث استنباط الأحكام فى القضايا ،وإنما أيضاً لأنه يؤيد سلطة الدولة ، لمكانة العقائد الشيعية فى بناء دولتهم . هذا ، وأنه فى الإسلام ،لا انفصال بين التشريع والعقيدة ، فالشريعة جزء من الدين ،وبخاصة فى دولة الفاطميين المذهبية، التى يرتبط فيها الشرع بالعقيدة .

ومع ذلك ، فإنه لم يحدث تغيير كبير فى النظام القضائى ، حينما حلت الشريعة الشيعية محل الشريعة السنية ،لأن الإختلاف بين التشريع الشيعى والتشريع السنى ليس كبيراً . ونحن لا نجد من بين الفقهاء، أو كتاب التشريع الإسلامى ، من أبرز الاختـــلاف بين التشريعين ، بل إن بعض الفقهاء لا يجدون للشيعة أو للإسماعيلية فقهاً خاصاً بها [١]. ولنذكر أنه فى عهد المعز ، ترك أبو الطاهر الذهلى فى وظيفة القضاء فى ظل النظام الجديد ، بالرغم من أنه مالكى المذهب [٢]؛ كما أن قضاة شيعيين ، قدموا مصر فى صحبة الخليفة المعز ، عاونوا أبا الطاهر فى وظيفته فى القضاء [٣]. فإذا لم ير الفاطميون غضاضة فى تولية قاض سنى القضاء فى عهدهم ، كان معناه أن الإختلاف بين التشريع الشيعى للدولة الجديدة والتشريع السنى ليس كبيراً ، ثم إن تولية القضاء سنيين وشيعة معاً ، يبرهن على تشابه التشريعين. وقد لاحظ القلقشندى ذلك حينما قال : إن الفاطميين تركوا مذاهب مالك والشافعى ظاهرة الشعار فى مصر [٤].

(١) أنظر Fyzee, Ismaili law and its founder, Isl Cult, vol, IX, No 1: Jan. 1935, p107 ; Kremer: Kulturgeschichte, I, p 511.

(٢) ولاة ، ص ٥٨٤ .

(٣) منهم: النعمان بن محمد بن حيون وعبد الله بن أبى ثوبان . ثم بعد موتهما فى ٣٦٣ / ٩٧٤ أشرك المعز ، على بن النعمان مع أبى الطاهر فى الحكم . وفى عهد العزيز ، اعتزل أبو الطاهر الحكم، وكفل قضاء مصر ، وما يتبعها فى ٣٦٦/ ٩٢٦ ، الى على بن النعمان. أنظر، ولاة، ٥٨١ — ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧ — ٨ ؛ ٥٨٩ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ٩١ .

(٤) القلقشندى، ٣ ص ٥٢٤؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١، ص ٢١٢؛ انظر Mez.

وفى الواقع ، إن كلا التشريعين : السنى والشيعى ، يعتبر القرآن المستودع الأول للتشريع[1] . ومع ذلك ، فهو لم يكن المصدر الوحيد للتشريعين ، فهناك السنّة أيضاً ، وهى مجموعة الأحاديث ، الخاصة بالعقيدة أو الحياة ، التى نُقلت عن النبى فى مناسبات عديدة ، وهى تحوى قوانين كثيرة ، وتكون المصدر الثانى للتشريع . وأنه لمن الخطأ حقاً ، أن يظن بأن كلمة شيعة وسنة ، تعنى أن الشيعة ليس لها أحاديث نبوية ؛ فقد روى أهل الشيعة أحاديث كثيرة ، مثل تلك التى عند السنة !

وأحاديث الشيعة تسمى : « بالأخبار »[2] ؛ وأغلبها منقول عن الأئمة أو عن الثقات من محدثى الشيعة . ويؤمن الشيعة بصحتها المطلقة ، لعصمة نقلتها من الأئمة أو من غيرهم ؛ ولكن السنة لا يوافقون — بطبيعة الحال — على عصمتها . ومع ذلك ، يمكننا أن نقرر أن كثيراً من الأحاديث عند السنة والشيعة مشتركة ، وإن إختلف الرواة عند كل منها .

ومن المحقق ، أن الإختلاف بين التشريعين لا يأتى من هذين المصدرين ،

— Die Renaiseancee ، ترجمة أبى ريدة ، ١ ص ٣٠١ . كان مذهبا مالك والشافعى منتشرين فى مصر ، قبل مجىء الفاطميين ، فالأول انتشر وذاع على يد عبد الرحمن (ت ١٦٣ / ٧٧٩) ؛ وقد سيطر وحده إلى أن جاء محمد الشافعى فى ١٩٨/٨١٣ ، واستقر فى الفسطاط ، وصار له أتباع كثيرون وعلى العكس ، لقى مذهب أبى حنيفة ، مقاومة شديدة من جانب مذهبى مالك والشافعى ، ومن جانب الفاطميين أيضاً ؛ فإنهم — كما يروى القلقشندى — أعداء طبيعيون للمذهب الحنفى . ولعل هذا العداء راجع إلى نشأة هذا المذهب فى العراق ، مهد الخلافة العباسية ؟ على كل حال ، دخل المذهب الحنفى مصر ، بعد زوال دولة الفاطميين ، على يد قواد نور الدين : شيركوه وصلاح الدين ، أما مذهب ابن حنبل ، فلم يدخل مصر إلا فى عهد بيبرس البندقدارى ، لأول مرة ، وإن لم يتوطد نفوذه فى البلاد فى أى وقت من الأوقات . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ١ ص ٢٧٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٣٤ ، ٣٠٣ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ٣ ص ٤ — ١٢ ؛ انظر . "L'Egypte" Ency de l' lsl, 2, p. 22. : Becker

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ٣ ص ١ .

(٢) النعمان ، دعائم ، ص ٦١ ؛ انظر Die Renaissance : Mez. ، ترجمة أبى ريدة ، ١ ص ١٠٤ .

ولكن من تفسيرهما : فقد جرت العادة — عند الشيعة والسنة — أن يقارن الشرع بشجرة لها « أصول » و « فروع » . فالأصول : وهى أساس التشريع، ترتكز على القرآن والحديث ، أما « الفروع » : فهى تفسير الأصول ، أو بمعنى آخر تطبيق الأصول ، أو مايعرف بعلم الفقه ، وهذا هو المصدر الثالث للتشريع عند الطرفين ، وهو نقطة الخلاف الجوهرية التى تفصل بينهما .

فهذا المصدر الثالث — عند الشيعة — صادر قبل كل شىء عن الإمام ، فلاتقبل الشيعة أى تفسير آخر من غيره، لأن الشرع — فى رأيهم[1] — لا يتكمل ولا يستكمل ولا يستقيم ، إلا بتفسير الإمام الذى له حق استخراج الأحكام .

ويعتقد الشيعة بضعف العقل الآدمى عن أن يقوم بتفسير الأصول ، ولذلك فإن عقل الإمام غير عادى[2] ، فهو بمعارفه العليا فى الدين ، يعرف ماوراء معانى القرآن[3] .

ومن ناحية أخرى ، كان تفسير الأصول بواسطة شخص آخر غير الإمام ، سبباً فى حدوث إختلاف واضطراب فى تطبيقه[4]، لذلك ، لاتأخذ الشيعة أحكامها (بالاجتهاد) الشخصى ، ولا (بالرأى) المبنى على المعارف فى المواد التشريعية، ولا (بالقياس) المطبق حسب المنطق فى المسائل الدينية الخاصة بالتشريع موضوع البحث ، ولا (بالاستحسان) وذلك بإصدار رغبة فى إدخال تعديل فى التشريع ، ولاحتى (بالنظر) وذلك بالبحث والاستقصاء فى مواد التشريع..

(١) تاج العقائد ، ص٣٧ ؛ انظر . محمصانى ، فلسفة التشريع ، ص ٦٩ ؛ كرد على ، الإدارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص٢٧٦ .

(٢) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٢٧٦ .

(٣) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ٢٨١ .

(٤) تاج العقائد ، ص ٤٢ .

وبالجملة ، فإن الفاطميين لا يعترفون إلا برأى الإمام وحده ، دون الآخرين ، فى استخراج الأحكام[1].

ومع ذلك، فإنا نستطيع أن نؤكد أن تفسير الإمام للأصول لا يختلف عن تفسير فقهاء السنة أو المذاهب غير السنية كالإمامية، وذلك،لأن رأى الإمام — فى الواقع — يعتمد على الأصول : القرآن والحديث .

وفوق ذلك ، كان تفسير الإمام،أمام رأى محايد ، يشبه الإجماع عند الفقهاء على إختلاف مذاهبهم . أضف إلى ذلك ، أن (الاجتهاد) لم يمنع بتاتاً ، عند الشيعة[2] ، فهم يتركونه،على شرط أن يكون قائماً فى أسسه على الأصول،وعلى رأى الإمام، وليس على البحث الشخصي المستقل؛ فدور المجتهد هنا دور (مقيد) ، على عكس دور الإمام ، باعتباره المجتهد (المطلق) .

وعلى هذا ، فإن الشريعتين السنية والشيعية، تعتمدان على أصول واحدة ، ولا تختلفان حتى فى تطبيق هذه الأصول، ولكن الفاطميين وهم خلفاء مستقلون فى مصر ، كانوا يريدون أن يسيطروا على القضاء فى مصر ، ولذلك لزم أن يكون القضاء ، بالتشريع الإسماعيلى وليس بغيره[3]. ومع هذا ،

---

(١) نفسه ، ص ٤٧ .

(٢) أنظر. Le Califat, p. 63 : Sanboury

(٣) لما أقر المعز أبا الطاهر المالكى فى منصب القضاء ، فى ظل النظام الجديد ، طلب منه الحكم فى القضايا حسب التشريع الشيعى. أنظر . ولاة ، ص ٥٨٤ .

وحتى الفتيا، وهى نظام ذو صلة وطيدة بالنظام القضائى الإسلامى ، كانت تؤخذ حسب التشريع الشيعى . ففى صفر ٣٨٢/ أبريل ٩٩٢ ، لما ثار فقهاء المذاهب الأخرى ضد أخذ الفتوى بالتشريع الشيعى، اتخذ محمد بن النعمان كبير القضاة، فى ذلك الوقت، بعض العقوبات ضدهم. أنظر . نفسه ، ص ٥٩٤ .

والواقع إنه فى ظل خلفاء متعصبين أو أتقياء ، كانت المطالبة بقضاء شيعى محض تتخذ مظهر الاضطهاد ، بحيث لم يكن يسمح للمذاهب الأخرى بالبقاء، لا فى الظاهر ولا فى الخفاء. فى ٣٨١/٩٩١، فى عهد الخليفة العزيز، ضرب رجل بمصر من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس . أنظر. الخطط ، ٢ص٣٤١ س١٦ — ١٧ . وفى ١٠٠٢/٣٩٣ . وفى عهد الحاكم، قبض على ثلاثة عشر رجلاً ، من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى، حسب المذهب السنى. =

لم يمنعوا نهائياً أئمة المذهب السنى من القضاء فى مصر، وإن وجدنا بعض الفقهاء السنة، يمنعون أتباع مذهب سنى مخالف، من الحكم بحسبه، منعاً لاضطراب العدالة (1). فالقضاء، فى عهد الفاطميين إذاً، ظل سائراً على منواله، بحسب التشريع الشيعى.

وقد اتبع الفاطميون نفس التقسيم القضائى، الذى أُتبع فى الدول الإسلامية فى العصور الوسطى، وذلك بأن يتولى كبار أرباب الوظائف الدينية الإشراف على القضاء فى مصر وأرجاء الخلافة. فكان هؤلاء الموظفون الكبار، هم: قاضى القضاة، وصاحب المظالم، والمحتسب، وصاحب الشرطة. ولم توجد تفرقة دائمة بين هذه المناصب الأربعة، لأن أرباب الوظائف الدينية، كانوا يمارسون وظائف القضاء دون تمييز.

قاضى القضاة: لقبه ـ توليته ـ اختصاصاته ـ مساعدوه ـ جلوس القاضى للقضايا ـ اختياره.

عند وصول الفاطميين مصر، أصبحت القاهرة مثل بغداد وقرطبة، مقر كبير القضاة (قاضى القضاة).

فقبلهم لم يكن يوجد غير قاضٍ بسيط، يعيّن من قبل الخليفة السنى، فى بغداد. ولكن للمرة الأولى فى مصر، ظهرت وظيفة قاضى القضاة، وبذلك صارت رتبته

= أنظر. نفسه، ٢ ص ٣٤١ س ٢٥. وفى ١٠٢٥/٤١٦، أخرج الخليفة الظاهر من مصر من الفقهاء المالكيين وغيرهم، وعمل على تقوية التشريع الإسماعيلى، بأن أمر الدعاة بأن يحفظوا الناس عن ظهر قلب كتابى: دعائم الإسلام ومختصر الوزير، وهما من كتب الفقه الفاطمى. أنظر. نفسه، ١ ص ٣٥٥ س ٧.

(1) أنظر. Fgnan : les Statuts Gouvernementoux, p. 138.

أعلى من جميع القضاة الآخرين، مما يدل على سيطرة القاهرة القضائية فى الخلافة.

ولم يظهر لقب قاضى — كما لم يظهر لقب وزير — فى عهد أول خليفة فاطمى فى مصر، وذلك لأن الفاطميين. عند وصولهم مصر فى ٣٥٨ / ٩٥٩، وجدوا القاضى أبا الطاهر معيناً من قبل الخليفة العباسى، منذ ٣٤٨ / ٩٥٩[١]؛ فرغبة منهم فى تحاشى إغضاب الشعب المصرى السنى، أقرّ جوهر — قائد جيش المعز — القاضى أبا الطاهر على حاله فى القضاء، فى ظل النظام الجديد[٢]. وقد أقر المعز بدوره، عند وصوله مصر فى ٣٦٢ / ٩٧٢، أبا الطاهر فى منصبه، متبعاً نفس سياسة جوهر؛ ولكن أشرك معه فى الحكم النعمانَ بن حيون وابن أبى ثوبان، وهما قاضيان فاطميان، صحباه إلى مصر[٣]. ولا يظهر لنا أن أحداً من هؤلاء الثلاثة قد تلقب رسمياً بلقب قاضى القضاة؛ فقد كان النعمان يُلقب بقاضى العسكر وابن أبى ثوبان بقاضى مصر والإسكندرية. ولما مات النعمان وابن أبى ثوبان، أشرك المعزّ مع أبى الطاهر، عليّاً الابن الأكبر للنعمان، دون أن يلقبه بلقب قاضى القضاة؛ فكان أبو الطاهر يجلس للقضاء فى الجامع الأزهر، وعلىّ يجلس للقضاء فى جامع مصر[٤].

ولكن فى عهد العزيز ثانى خلفاء الفاطميين، ظهر لقب قاضى القضاة، لأول مرة فى مصر[٥]. فقد ضعف نفوذ أبى الطاهر بسبب إشراك علىّ بن النعمان فى الحكم، وقد أراد العزيز فى أوائل حكمه، أن يحرم أبا الطاهر من منصبه القضائى حتى

---

(١) ولاة، ص ٥٨٢ س ٧.

(٢) نفسه، ص ٥٨٤؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ٢ ص ٩١.

(٣) نفسه؛ نفسه؛ انظر Fyzee: J.R.A.S. 1934, pp. 10-112

(٤) ولاة، ص ٥٨٧ س ٢.

(٥) نفسه ص ٥٨٩ — ٥٩٠؛ السيوطى حسن المحاضرة، ٢ ص ١٠١.

فى الجامع الأزهر، لولا تدخل الشهود والأشراف لصالحه. ولما أصيب أبو الطاهر برطوبة عطلت شقه فعجز عن الحركة، عمل العزيز على التخلص منه نهائياً، بتقليد القضاء كله لعلىّ بن النعمان. فيقول ابن حجر، إن علياً هو أول من خوطب بقاضى القضاة، فى صفر ٣٦٦ / أكتوبر ٩٧٦[١].

وقد كان تعيين قاضى القضاه — كغيره من أرباب الوظائف الأخرى — من قبل السلطة العليا، فكان الخليفة يفوض منصب القضاء إلى شخص يحمل هذا اللقب[٢]. ولكن فى النصف الثانى من حكم الفاطميين، كان القضاء مندرجاً فى عموم منصب وزراء التفويض، فكان الوزير منهم يتلقب بلقب: «كافل قضاة المسلمين»[٣]. ولذا كان وزراء التفويض منذ بدر الجمالى، يقلدون بأنفسهم فى القضاء من يقوم به، ويعتبرون قاضى القضاة (نائباً) عنهم[٤]، ويلقبونه فقط «بالقاضى». ومع ذلك، كان كتاب التولية يخرج بالضرورة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة، ولدينا، مثال بولاية أحد قضاة الخليفة العاضد[٥]، إذ فى كتاب التولية يقر الخليفة للقاضى، النيابة عن الوزير صاحب التفويض[٦]. أما فى حالة ما إذا كان وزير التفويض نصرانياً، فإن تولية

---

(١) يروى ابن حجر، أن الحسين بن النعمان، هو أول من كتب فى سجله قاضى القضاة، فى صفر ٣٨٩/ فبراير ٩٩٩، وأما أبوه فهو أول من خوطب بها من قضاة مصر. أنظر. نفسه، ص٥٩٧ س ٢٠ — ٢١.

(٢) أنظر. Fagnan: les Statuts gouvernementaux, p. 140-2.

(٣) السجلات المستنصرية: (١٠)، (١٥)، (١٧)؛ ابن الصيرفى، الإشارة، ص٥٦؛ المقريزى، الخطط، ١ ص٣٨٢ س١٦، ٤٤٠ س ٩؛ ابن حجر، رفع، ورقة ٥٥ — ٥٦.

(٤) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٠٣؛ صبح، ٣ ص ٤٨٦ — ٧.

(٥) صبح، ١٠ ص ٤٢٤ — ٤٣٤.

(٦) نفسه، ١٠ ص ٤٢٩ س ١٤ و ١٥.

القاضي تكون بالضرورة من قبل الخليفة، وهذا لم يحدث إلا في خلافة الحافظ[١].

وكانت «تولية» قاضي القضاة منصبه، تصحب برسوم فخمة تشبه ما كان لأصحاب المناصب الهامة الأخرى، فكان الخليفة يستدعيه إلى القصر، ليمنحه كتاب التولية الشامل على اختصاصاته[٢]. وقد جرت العادة، أن يقرأ هذا الكتاب على الملأ في جامعي القاهرة ومصر[٣]، لتعريف الناس بتولية قاضي القضاة الجديد[٤].

فكان القاضي يركب إلى الجامع، وهو لابس الطيلسان المقوّر والسيف، في موكب رسمي من الفقهاء والتجار والشهود[٥]، ليطوف في الحارات، وبين يديه «خِلع» الخليفة، موضوعة في مناديل[٦].

وفي العهد الفاطمي، انتشرت عادة جديدة: هي أن يقدّم للقاضي بغلة شهباء لركوبه، وقد أصبحت بغلة القاضي حيواناً مشهوراً، لاختصاصه بهذا اللون، دون أرباب الدولة[٧].

وكان الذي يقرأ كتاب التولية — عادة — هو أحد أقرباء القاضي، فكان هذا الأخير، في أثناء القراءة، يبقى قائماً على قدميه، فكلما مر ذكر الخليفة، أو أحد من أهله، أومأ بالسجود توقيراً[٨].

---

(١) ابن ميسر، ٧٨ — ٧٩ ؛ ابن حجر، رفع، ورقة ٨٦ — ٨٧ ؛ انظر. قبله.

(٢) ولاة، س ٥٨٩ ص ١٣ — ١٤، ٥٩٢ ص ١٤ — ١٦، ٥٩٧ ص ٥ — ٨، ٥٩٩ — ٦٠٠. هذه الاختصاصات سيأتي ذكرها فيما بعد.

(٣) نفسه، س ٥٨٩ ص ١٩ — ٢١. هكذا كانت تولية علي بن النعمان بن حيون، من قبل العزيز، في ٢ صفر ٣٦٦/ أكتوبر ٩٧٦.

(٤) أنظر. Fagnan : les Statuts gouvenementeux, p. 142 ; انظر. Tyan : Hist.de: l'Org. Jud. en pays d'Islam 1,p. 268

(٥) ولاة، س ٥٨٩ ص ١٩ — ٢٠، ٥٩٩ ص ٢١، ٦٠٤ ص ٤.

(٦) نفسه، س ٥٨٩ ص ١٠.

(٧) المقريزي، الخطط، ١ ص ٤٠٣ ص ٣٧ ؛ ولاة، س ٥٩٢ ص ١٢، ٦٠٤ ص ٣ — ٤.

(٨) ولاة، س ٥٨٩، ٦٠٤.

ويسمى كتاب تولية قاضي القضاة « سجلاً »، وهي كلمة مألوفة عند الفاطميين، كانت تُطلق على جميع كتب تولية كبار موظفي الدولة[١]، كما كان يُعرف أيضاً تحت هذه الأسماء : « عهد »[٢]، و« تقليد »[٣] و« توقيع »[٤]. فكان هذا الكتاب، يتضمن عادة، تفصيلات عن أعمال القضاء في مصر وأقاليم الخلافة، وعن الأمور القضائية والدينية من تعلقات وظيفته.

وكانت سلطة قاضي القضاة على أعمال القضاء، لا تمتد فقط إلى أعمال القضاء في الديار المصرية، بل إلى البلاد الخاضعة لها أيضاً، وأكثر من ذلك تشتمل على جميع بلاد الإسلام، وعلى ما يصير فتحه من بلدان المشرق والمغرب[٥]. فكانت سلطة القاضي على أعمال القضاء، تختلف من سجل إلى آخر، بحسب قوة الدولة وضعفها ؛ فمنذ الوزير اليازوري (٤٤٢—٤٥٠/١٠٥٠—١٠٥٨)، لا نجد ذكراً لأعمال إفريقية القضائية، في سجلات القضاة. وعلى كل حال، كان من ضمن أعمال القضاء في الديار المصرية في أسفل الأرض : القاهرة ومصر وتنيس ودمياط والفرما والإسكندرية، أما أعمال الصعيد، والبلاد الخاضعة لمصر، مثل الشام والحرمين والمغرب، فهي غير معروفة لنا.

وكان منصب القاضي الفاطمي لا يشمل أموراً قضائية صرفة، بل كان يتضمن أيضاً أموراً دينية ليس لها علاقة بالقضاء[٦]، ولكنها ضُمت إلى القضاء حسب

---

(١) نفسه، س٥٧٩ س ١٠ و١٦، ٥٩٧ س ٢٠، ٦٠٤ س٥، ٦١١ س ١ و٣ و١٥؛ ابن خلكان، وفيات، ١ س ٢٤٧ — ٢٤٨؛ انظر .Tyan: Org. Jud. I. p. 264

(٢) ولاة، س ٥٩٢ س ١٤، ٥٩٦ س ١٣؛ صبح ١٠ س ٣٨٤.

(٣) ولاة، ٥٩٩ س ٣١.

(٤) نفسه، س ٥٨٩ س ٢٤.

(٥) نفسه، س٥٩٩ — ٦٠٠. وردت هذه العبارة في سجل القاضي عبد العزيز بن محمد ابن النعمان، الذي ولي القضاء من قبل الخليفة الحاكم، في رمضان ٣٩٤/ يوليو ١٠٠٤.

(٦) ولاة، س ٥٨٩ س ١٤، ٦٠١ س ٨ — ٩.

« العُرف والاصطلاح » فى ذلك العصر ؛ وإن لم يكن لها أدنى تأثير فى وظيفة القاضى الأصلية فى القضاء [١] .

وكانت هذه الأمور تختلف من سجل إلى آخر، فتنقص وتزداد تبعاً لموضوع التولية، الموضّح فى السجل ؛ وهى تشير غالباً إلى الصلاة والخطابة فى المساجد الجامعة، والإشراف على الأماكن الدينية والقيام بنفقاتها [٢]، والقيام فى الذهب والفضة والمكاييل والعملة، والنظر فى المواريث وأموال اليتامى ؛ حيث أفرد الفاطميون لهذه الأخيرة موضعاً مُختم عليه، تحت إشراف القاضى وأعوانه الشهود [٣] .

ونذكر من ناحية أخرى، أن سجل التولية كان يشتمل على اختصاصات بعض الموظفين الدينيين الآخرين، مثل : صاحب المظالم، ومراقب الأسواق « المحتسب »، وصاحب الشرطة، وداعية الدعاة [٤]، الذى كان قاضى القضاة غالباً ما يلى منصبه . ونضيف إلى ذلك، أن قاضى القضاة كان يتولى فى بعض الأحيان قضاء العسكر [٥] ؛ حيث كان هذا المنصب فى عهد أول خليفة فاطمى فى مصر، مستقلاً عن وظيفة القاضى ؛ ولكنا لم نسمع عنه بعد ذلك فى عهد الخليفة الثانى ؛ مما يدعونا إلى الظن بأن هذا المنصب أصبح من تعلقات وظيفة قاضى القضاة .

---

(١) أنظر. Guest. The Governors and judges of Egypt. Z. D. M. G. 68, 1914, p. 404 sq. :Bergsträsser:Org. Jud,2,p,12-13 :Tyan.

(٢) يروى ناصر خسرو أنه كان يوجد فى جميع المدن والقرى، من الشام حتى القيروان، وكلاء عن السلطان ينفقون على الجوامع والمساجد؛ ويدفعون أرزاق من يعملون فيها من القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم . أنظر: Sefer Nameh trad, Schefer, p. 160 ؛ ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٤٣ .

(٣) ولاة، ص ٥٩٥ س ١٠ — ١٣، ٥٩٦ س ١٩ ؛ ابن ميسر، ص ٥٩ .

(٤) ولاة، ص ٥٩٦ — ٧ .

(٥) نفسه، ص ٥٨٦ س ١٧، ٥٩٠ س ٩ .

وعلى ذلك كان قاضى القضاة مُضطراً إلى اتخاذ أعوان له فى أعمال القضاء الواسعة ؛ فكانوا يسمون : « نواب الحكم » [١] ، أو « خُلفاء النواحى » [٢].

كذلك ، كان يعين فى وظيفته الأصلية فى القضاء ، أو فى كل الأمور التى لا يشرف عليها بنفسه ، أعواناً من قبله ؛ فكان له نائب أو أكثر فى العاصمة للتخفيف عنه . وكان لهذا النائب الحق فى أن يستخلف من قبله ، على شرط أن تكون الاستنابة عن إذن القاضى ؛ ويقول ابن حجر — فى هذا الصدد — إنه لم يعهد من قبل إلا فى مصر أن النائب يستنيب عنه [٣] . وقد كان إختيار نواب قاضى القضاة أو تعيينهم بخاصة فى العاصمة يتم — أحياناً — من قبل الخليفة [٤] ؛ ولكن الفارق أدخل عادة منح « الخلع » على نوابه الذين يعينهم فى ٣٩٨ / ١٠٠٧ ، لتكون له السلطة المطلقة عليهم ؛ فكان أول من فعل ذلك من القضاة ، لأن « الخلع » — فى الواقع — لا تُمنح إلا من قبل الخليفة أو الأمير [٥] .

وبالإضافة إلى هؤلاء ، كان القاضى يختار جماعة من الشهود ، لتقوم بمعاونته فى وظيفته الأصلية فى القضاء ، حيث كان القاضى يحتاج إلى خدماتهم ، ليس فقط فى مجلس الحكم ، وإنما يطلب معاونتهم أيضاً فى اختصاصاته الدينية والمدنية الأخرى ؛ فكان الشهود الذين يعملون مع القاضى يُطلق عليهم اسم : « الشهود العدول » ، جمع « شاهد عدل » [٦] .

---

(١) نفسه ، ص ٥٩٠ س ٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٤ س ٥ .
(٢) ولاة ، ص ٥٩٢ س ١٧ .
(٣) نفسه ، ص ٦٠١ س ١٢ — ١٤ ، ٦٠٤ س ١١ .
(٤) نفسه ، ص ٥٩٨ س ١ — ٤ .
(٥) نفسه ، ص ٦٠٤ س ٧ .
(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٨٦ س ٢٧ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٥ ؛ Inostrantsev, p. 53. ; Quatremère : Mamelouks, 2/2, p.108.

وقد كانت الشهادة فى الدول الإسلامية، من الوظائف الدينية التابعة للقضاء؛ فيعتبرها ابن خلدون — فى الفصل الذى كتبه عن الوظائف الدينية — ضمن وظائف الدولة الهامة [١]؛ وفى الواقع إن الصلة وثيقة بين «الحكم» و«البيّنة» فى القضاء الإسلامى، حيث كانت الدليل الوحيد للحكم عند القضاء [٢].

وكان للقاضى مطلق الحرية، فى إختيار الشهود العدول، إلا أن السلطة التنفيذية كانت تراقب تعديلهم، لأهمية دورهم فى ساحة القضاء؛ ففى سجل تولية قاضى القضاة، أحيط علم القاضى بأن يُطالع الخليفة بمن يعدّله، أو بمن يرد شهادته من الشهود [٣].

ولذلك جرت العادة أن يختار قاضى القضاة الشهود بعناية من بين الأشخاص المعروفين بالأمانة، على الأخص من بين طبقة الأشراف [٤]؛ ومن ناحية أخرى، كان على الشهود أن يقدّموا الضمانات الكافية؛ حتى لا يسيئوا إلى سير العدالة، أو يعرقلوا عمل قاضى القضاة.

وقد كان للقاضى مُطلق السلطة، فى تصفح أحوال الشهود العدول: فكان يراقب سيرهم، ويسقط المتهمين منهم، ويعاقب من يسىء استعمال سلطته، بإلزامه بغرم ثقيل أو بسجنه، وذلك رعاية لشرط العدالة [٥]. ولم يكن القاضى المعين حديثاً، مضطراً إلى الإبقاء على الشهود العدول، الذين عينهم سلفه، فكان يستطيع أن يُسقطهم حسب رأيه، وأن يتخذ جماعة من العدول غيرهم [٦].

وكان الشهود — كغيرهم من أصحاب المهن فى الدولة الفاطمية — يكونون طائفة

(١) مقدمة، ١، ص ٤٠٤.
(٢) ولاة، ص ٥٨٨ س ١١؛ انظر: Tyan : Notariat, p.7.
(٣) صبح، ١٠، ص ٣٧٨.
(٤) ولاة، ص ٤٩٨ س ١٨.
(٥) نفسه، ص ٥١٦ س ١٠، ٦١٠ س ١٣.
(٦) نفسه، ص ٥٨٨ س ١٩، ٥٩٦ س ١٥، ٦١٢ س ٢٣.

متميزة خاضعة لنظام دقيق ، فكان لها رئيس يتسمى : « بوجه الشهود » أو « مقدّم الشهود » (١) ، أما بقية الشهود المدول ، فكانت مراتبهم تختلف حسب تقدم أو تأخر تعديلهم .

وتقدّم النصوص المختلفة أرقاماً متضاربة عن أعداد الشهود ، وإن لم يتجاوز عددهم فى الغالب الثلاثين (٢) ، ومع ذلك ، فى بعض الحالات ، كان بعض القضاة قد وضعوا نصب أعينهم إحاطة مجلس حكمهم بعدد كبير من الشهود ، رغبة فى إعلاء شأنهم (٣) .

ولقد أصبح الشهود فى عهد الدولة الفاطمية يحتلون مناصب هامة جداً ؛ فكانوا يُطلبون للقيام بأى عمل ، سواء فى المناصب الإدارية ، أو فى الجيش ، أو حتى فى القصر (٤) ، ولكن بقى عملهم الأساسى — كما كان بالنسبة لقاضى القضاة — فى ساحة القضاء .

وفى الواقع إن الفصل فى المنازعات ، بقى بطبيعة الحال ، من أصل عمل قاضى القضاة أو نائبه والشهود المدول .

وقد استمر جلوس القاضى للحكم ، بنفس البساطة التى كان عليها فى جميع الدول الإسلامية الأخرى ؛ فكان يجلس فى الغالب فى المسجد الجامع (٥) فى مصر أو القاهرة (٦) . ولم يكن الجامع كما فى أيامنا مهيأ للصلاة فحسب ،

(١) نفسه ، ص ٥٨٨ س ٣ ، ص ٥٨٩ س ٢٢ .

(٢) نفسه ، ص ٥٩٣ س ٤ .

(٣) فى عهد الحاكم ، أثناء ولاية ابن العوام القضاء فى سنة ٤٠٩/١٠١٨ ، بلغ عدد الشهود المعدلين ألفاً وخمسمائة . أنظر . نفسه ، ص ٦١٢ س ٢٢ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ، ص ٤٤٧ س ١٢ . وهكذا نجد مشارف خزانة السروج من بين العدول .

(٥) أنظر . Ency de l'Islam, (Masdjid). t3, p 362 — 442

(٦) ولاة ، ص ٥٨٧ س ٢ — ٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٤٦ س ١٩ .

وإنما كان أيضاً مكاناً للفصل فى أمور الناس؛ حيث كانت ساحته من أكثر الأمكنة صخباً فى المدينة ؛ فيروى ناصر خسرو[١] أن ساحة جامع مصر لم يكن يقل من فيها من الناس فى أى وقت عن خمسة آلاف شخص من الكتاب ، الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها . كذلك كان القاضى يعقد مجلس حكمه — أحياناً — فى داره[٢] ، أو فى أى جامع آخر .

وكان فى الجامع مكان معين يجتمع فيه القاضى بالخصوم ، يعرف باسم «مجلس الحكم»[٣] ، يتغير بحسب الفصول[٤] : فى أوان الشتاء يجلس القاضى فى «المقصورة»[٥] ، وهى الفسحة الصغيرة المحوطة بسياج بجانب المنبر ؛ وفى أوان الصيف — بسبب شدة الحر — يجلس عند الشبابيك .

ولم يكن جلوس القاضى للحكم فى كل الأيام ، ولكن مرتين فى الأسبوع ؛ كما كان يفعل محمد بن النعمان ، المعين فى سنة ٣٧٤ / ٩٨٤ ، إذ كان ينظر قضاياه كل يوم أثنين وخميس ؛ وكذلك كان ابنه عبد العزيز يعقد جلساته فى نفس الأيام[٦] . ولكن ، فى بعض الحالات ، كان مجلس الحكم يعقد جلساته أربعة أيام فى الأسبوع[٧] ، فكان القاضى أحمد بن محمد بن أبى العوام ، المعين فى سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ ، فى عهد الخليفة الحاكم ، ينظر قضاياه كل يوم أحد وخميس بجامع مصر ، وكل يوم أثنين وثلاثاء بالجامع الأزهر ، ويركب أيام الجمع مع الحاكم ، ويطلعه يوم السبت على ما يرى من أمر القضاء بالبلاد ؛ وكان يوم الأربعاء لراحته .

---

(١) أنظر Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 148.

(٢) ولاة ، ص٥٨٩ س ٢٣ ، ٥٩٤ س ٢٤ ، ٦٠٤ س ١٠ .

(٣) نفسه ، ص٦٠٤ س ١٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٤ س ٤.

(٤) نفسه ، ص٥٩٠ س ١٣ — ١٤ ، ٦١٠ س ٢١ .

(٥) نفسه ، ص ٥٩٠ س ١٣ ؛ أنظر Dozy : Suppl, 2, p. 358.

(٦) ولاة ، ص ٥٩٤ س ٣ و٩ .

(٧) نفسه ، ص ٦١١ س ١٠ — ١٣ .

ولم يكن فى العهد الفاطمى إلا مجلس واحد للحكم ، لأن تعدد مجالس الحكم يُثير الإختلاف بين الخصوم ؛ فكان كل منهم يعمل على إنفاذ خصومه أمام القاضى الذى يختاره؛ وهذا ماحدث فى أول الحكم الفاطمى، لما أقرّ المعزّ عند مجيئه أبا الطاهر ، الذى كان معيناً من قبل الخليفة العباسى ، فى ولاية القضاء ، على شرط أن يكون الحكم بحسب التشريع الشيعى،[1] وأن يقبل معه فى الحكم ابن أبى ثوبان[2]؛ فكان القاضيان ، فى أغلب الأحيان ، ينطقان بأحكام مختلفة ، مما اضطر الخليفة العزيز الذى تولى الخلافة بعد المعزّ أن يفوض الحكم لقاض فاطمى واحد ، بعد إصابة أبى الطاهر بالفالج[3] ؛ كما ذكرنا من قبل .

وكان مجلس الحكم يتكون فى الغالب من قاضٍ واحد ، ويشمل عدة طبقات من الموظفين ، مثل : الشهود العدول الذين يكونون جزءاً لا يتجزأ من مجلس الحكم فى الدول الإسلامية؛ والموقعون ، والحجاب[4]؛ كما نرجح أيضاً اشتراك صاحب الشرطة فى مجلس الحكم، للعمل على استتباب النظام وتنفيذ الأحكام[5].

وكان الرسم أن يجلس القاضى فى الوسط على « طرحة »[6] ، وخلفه « المسند » ، وأمامه « كرسى »[7] توضع عليه الدواة ؛ فكانت هذه الدواة — وهى من خلع القاضى كما كانت من شارات كثير من كبار أرباب المناصب — محلاة بالفضة ولها حامل خاص ، لعله الكاتب الذى يكتب الأحكام . وكان

(١) نفسه ، ص٥٨٤ س١٥ .

(٢) نفسه ، ص٥٨٤ و ٥٨٧ ؛ ابن ميسر ، ص٤٤ .

(٣) ولاة، ص٥٨٩ ؛ انظر .قبله

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص٤٠٣ س٣٤ ؛ صبح ، ٣ ص٤٨٧ س٦ — ٨ .

(٥) ولاة ، ص٥٩٣ ، ٥٩٦س ٢٢ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ س٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٣ س ٣٣ ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p.32. يقول المقريزى : « مرتبة » .

(٧) المقريزى ، الخطط ، ١ ص٤٠٣ س٣٥ و٣٦ ؛ صبح ، ٣ ص٤٨٧ س٤ و٥ .

الشهود يجلسون حوالى القاضى عن يمينه وعن يساره على مراتبهم فى تقدم أو تأخر تعديلهم [١]، أما الحجّاب فإنهم يقفون عند الباب ، لإدخال الخصوم فى مجلس الحكم .

وكان مجلس الحكم يُعقد علناً ، فيظهر الخصوم أمام القاضى بواسطة « الوكلاء » [٢]، وإن كان ظهور الخصوم عادة يكون بأشخاصهم . وليس لدينا للأسف معلومات واضحة عن إجراءات القضاء فى المجلس ؛ وهى إجراءات — ولا ريب — لا تختلف فى المعاملات عنها فى الجرائم [٣] .

وكانت القضايا التى تُعرض على المجلس متنوعة منها : قضايا جنائية ، وقضايا السرقات ، وقضايا شرب الخمر ، والزنا ، والمواريث ، والوصايا ، والمناكحات ، والطلاق ، وقضايا الأحوال الشخصية [٤] .

وقد كانت الأحكام والشهادة تسجل فى كتب خاصة تسمى : « سجلات الحكم » أو « دواوين الحكم » [٥] ، وهى عبارة عن الأرشيف القضائى ، وتودع — عادة — عند القاضى فى داره ؛ ولكن ابن العوام (٤٠٥ — ٤١٤/١٠١٤ — ١٠٢٣)، نقلها إلى الجامع [٦] . وقد كان إنشاء هذه السجلات يقتضى — ولا ريب — صيغة خاصة نجهلها [٧] ؛ وإن جرت العادة فى كتابتها ، أن يذكر القاضى اسمه ولقبه وتوابع وظيفته [٨] .

(١) نفسه ؛ نفسه ؛ ولاة ، ص ٥٩٠ .

(٢) ولاة ، ص ٥٨٩ ، ٦٠٧ .

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٩٩ ؛ انظر . Fyzee : Law and Culture, in Islam, Isl. Cult. Oct. 1934, XVII, No. (4), p. 424

(٤) أنظر . Tyan : Hist. de l'org. Jud, 2, p. 15.

(٥) ولاة ، ص ٥٨٨ ، ٥٩٠ س ٣ ، ٦١٢ س ١٦ .

(٦) نفسه ، ص ٥٩٠ س ٣ ، ٦١٢ س ١٦ — ١٧ .

(٧) حاجى خليفة ، كشف الظنون (Lexicon encyclopaedicum) ، ٤ ص ١٥ .

(٨) ولاة ، ص ٥٨٧ ، ٥٩٩ س ٢٣ .

وبطبيعة الحال كان الحكم في القضايا يسير وفق الشرع الشيعي [١] ؛ ولكن لم يكن للقاضي الفاطمي نفس الحقوق التي كانت للقاضي السني ؛ فقد كان هذا الأخير قاضياً للأحكام والشرع، بينما القاضي الفاطمي لم يكن إلا قاضياً للأحكام، لأن الخليفة الفاطمي وحده ، له سلطة التشريع [٢] ؛ فكثيراً ما كان القاضي الشيعي يلجأ إلى الخليفة لإستشارته في المسائل الدقيقة ، خشية إرتكاب خطأ في تطبيق الشرع [٣].

كذلك كان الشهود — ومعظمهم من الفقهاء — يشتركون أحياناً في الإدلاء بآرائهم [٤] ؛ ولكن القاضي لم يكن مضطراً إلى الأخذ بها ، لأنه وحده كان له حق النطق بالحكم . وفي الواقع ، إن أحكام القاضي كانت غير قابلة للتبديل ؛ فقد وقع الوزير يعقوب بن كلس ، أمراً في سنة ٩٧٩/٣٦٩ ، مؤداه أنه من حكم بحكم ، فليس لأحد وجه الإعتراض على القاضي فيما حكم فيه ؛ وكان صدور هذا الأمر ، بسبب شكوى جاءت للوزير ضد القاضي عليّ بن النعمان ، الذي اعترض على حكم سابق لعليّ بن سعيد الجُلجوليّ ، صاحب شرطة مصر [٥].

أما عن تنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي ، فإنه كان يُعهد بها إلى صاحب الشرطة ، الذي كان منصبه مندرجاً في عموم سلطه .

مما سبق نستطيع أن نتبين أهمية القضاء في الدولة الفاطمية ، وأهمية منصب قاضي القضاة ، وما يحتاج إليه من صفات خاصة . فكان القضاة يُختارون

---

(١) نفسه ، ص٨٤ س١٥ ؛ يحيي الأنطاكي ، ص ١٣٤ .

(٢) تاج المقاصد ، ص٤٧ .

(٣) ولاة ، ص٥٨٠ س٢

(٤) نفسه ، ص٥٨٤ — ٥ .

(٥) نفسه ، ص٥٩١ س١١ — ١٢ . من حيث المبدأ ، كان القاضي استبعاد حكم سلفه ؛ فقد أعيد النظر في كثير من الأحكام في أثناء العهد الفاطمي . نفسه ، ص٥٨٨ ؛ ٦٠٤ — ٥ ، ٦١٤ ؛ انظر . Guest, Z.D.M. G. 68, 1914, p.402.: Bergsträsser

وكان يختارون القضاة [illegible] عرفوا بعلمهم الواسع
في الفقه الشيعي وذلك بسبب أهمية القضاء في الدولة الإسلامية

عادة من بين أئمة الدين المعروفين بعلمهم الواسع فى الفقه الشيعى ؛ ففى السنين الأولى من حكم الفاطميين ، ولمدة ثمانين سنة أو تزيد، كان منصب القضاء يُكفل فى أسر عُرفت بالعلم بالأحكام الشرعية ، مثل : أسرة النعمان[(١)] والفارقى[(٢)] ؛ فقد ألف عدد كبير من بين قضاة هاتين الأسرتين كتباً فى الفقه الشيعى، بخاصة العالم الفقيه النعمان بن حيّون (ت٣٦٢ / ٩٧٤)[(٣)]؛ ففى عهد الدولة الفاطمية نشط التقنين الشيعى نشاطاً كبيراً فى مصر .

كذلك ، كان يُطلب ممن يتولى منصب القضاء الفاطمى ، أن يحوز صفات عالية ، فأحكام هذا المنصب وشروطه معروفة فى كتب الفقه[(٤)]؛ فكان الخلفاء بأنفسهم يراقبون نزاهة قاضى القضاة وسلوكه .

---

(١) من بين قضاة أسرة النعمان نذكر الأسماء الآتية :
أبو حنيفة النعمان (ت٣٦٢/٩٧٣) . أنظر . ولاة س٥٨٦ — ٧ .
أبو الحسن على (ت٣٧٤/٩٨٤) . أنظر . ولاة ، س٥٨٩ — ٥٩١ .
أبو عبد الله محمد (ت٣٨٩/٩٩٨) . أنظر . نفسه ، س٥٩٢ — ٥٩٥ .
أبو عبد الله الحسين (ت٣٩٥/١٠٠٤) . أنظر. نفسه ، س٥٩٦ — ٥٩٩ .
أبو القاسم عبد العزيز (ت٤٠١/١٠١٠) . أنظر . نفسه، س ٥٩٩ — ٦٠٣ .
أبو محمد القاسم (ت ٤٤١/١٠٤٩) أنظر . نفسه ، س٦١٣.

(٢) ومن بين قضاة أسرة الفارقى تذكر الأسماء الآتية :
أبو الحسن مالك بن سعيد بن مالك الفارقى (ت٣٩٨/١٠٠٧) . أنظر. نفسه ، س٦٠٣ — ٦٠٨ .
أبو الفتح عبد الحاكم الفارقى (٤١٩/١٠٢٨) . أنظر . نفسه ، س٦١٣ — ٦١٤ .
أبو على أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى (٤٥٠/١٠٥٨) . أنظر . ابن حجر ، رفع ، ورقة ٣٣ .
عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى (٤٥٢/١٠٦٠) . أنظر . نفسه ، ورقة ١٧١ .
أبو أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم الفارقى (٤٥٥/١٠٦٣) . أنظر . نفسه ، ورقة ٣٥ — ٣٦ .

(٣) أنظر. Ivanow, p.34. Fyzee: Kadi an-Nu'màn J.R.A.S. jan 1934, p. 1—34 :The Guide of Ismaïli literature

(٤) النعمان ، دعائم ، ١ س ٤٢٢ — ٤٢٣ ؛ أنظر . Fagnan: Les Statuts Gou-vernementaux, p. 131—7.

ولكى تأخذ العدالة سبيلها القويم ، كان قاضى القضاة يستلم مرتباً عالياً ؛ فيروى ناصرِ خُسرو ، أن قاضى القضاة يتقاضى ألفى دينار مغربى فى الشهر ، وفى بعض الحالات ، كان هذا المرتب يتضاعف حتى لا يطمع القاضى فى أموال الناس ، أو يلحق بهؤلاء أى ظلم [١] . وبرغم ذلك ، فقد وُجد قضاة يُقتلون أو يعزلون لقبولهم الرشوة [٢] ، وفى إبان الإضطرابات والفوضى ، كان منصب قاضى القضاة يعكس حالة البلاد ، فلما وقعت البلاد فى شدة عظمى وضعفت السلطة المركزية ، كان القضاة يُغيرون كل يوم [٣] ، مما ترتب عليه فساد الذمم وضياع هيبة العدالة .

وكان قاضى القضاة مثل غيره من كبار الموظفين ، له ألقاب رنانة [٤] ، فكان الناس يخاطبونه بلفظة « سيدنا » [٥] ، التى كان يُخاطب بها داعى الدعاة ، مما يدل على مكانته فى المجتمع .

وكان فى الأعياد الرسمية ، له أعلى مكانة بحكم منصبه الدينى الرفيع ، فله التقدمة على كل أرباب الوظائف ، ماعدا وزير التفويض ، بسبب سلطته العامة على القضاء [٦] ؛ وكان لا يظهر فى هذه الأعياد إلا محاطاً ببطانة من الشهود ،

---

(١) أنظر . Sefer Nameb, trad, Schefer. p. 161. ؛ ولاة ، ص ٥٩٧ . كان دخل قاضى القضاة عبدالحاكم بن سعيد الفارقى : ٢٠٠٠ و ٢٠ دينار سنوياً . أنظر . ولاة ، ص ٦١٣ . وكان قاضى القضاة — حسب القلقشندى والمقريزى — يستلم مائة دينار كل شهر . أنظر . صبح ، ٣ ص ٥٢٦ ؛ الخطط ، ١ ص ٤٠١ .

(٢) يحيى الأنطاكى ، ص ٥١٥ ؛ ولاة ، ص ٥٩٩ .

(٣) ابن ميسر ، ص ٣١ — ٣٣ .

(٤) نفسه .

(٥) ولاة ، ص ٥٩٤ ؛ أنظر . A distinguished Family of Fatimid cadis,: Gottheil. J.A.O.S, XXVII. 1906, p.232

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٤ ص ٣ — ٤ .

مكونة له مايشبه الحاشية .

وكان الخليفة كثيراً مايشرّف كبير قضاته والشهود بالجلوس إليهم في الموالد، وليالي الوقود الأربع : في أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه[١]، بل كان الخليفة يشرّفه — أحياناً — بالصعود معه على المنبر في بعض الأعياد[٢].

كذلك كان لقاضي القضاة في المواكب الرسمية، حق الركوب بالطبل والبوق والبنود، وبين يديه القراء والمؤذنون، على شرط أن يلي الدعوة أيضاً[٣].

من كل الذى سبق تتبيّن عناية الفاطميين بقاضي القضاة، والدور الهام الذى كان يضطلع به في الدولة والمجتمع.

صاحب المظالم : تحديد كلمة « مظالم » — تولية صاحب المظالم — جلوس المظالم .

كان منصب «صاحب المظالم»، يُعرف باسم: «النظر في المظالم[٤]»، وهو من المناصب القضائية الهامة، وموضوعه، كما يظهر من اسم صاحبه، هو منع الظلم[٥]. ولفظة « مظالم » مفردها « مظلمة أو « ظُلامه » من « ظَلَمَ » ، بمعنى إنتهاك حق شخص ؛ وهي تعبير في العالم الإسلامي يدل على الظلم ، الذى يأتي من التعدى أو الفساد ، الذى عجز القضاة العاديون لسبب ما عن النظر فيه ، فيرفع أمره

---

(١) نفسه ، ١ ص ٤٣٣ ، ٤٦٥ — ٤٦٧ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٠١ — ٥٠٣ .

(٢) ولاة ، ص ٦٠٠ س ٨ ، ٦٠٥ س ٨ ؛ صبح ، ٣ ص ٥١١ .

(٣) المقريزى ، ١ ص ٤٠٤ س ١ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٢٠٧ ؛ انظر . Björkman: Beiträge, p.38.

(٥) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٠٧ ؛ انظر . Amedroz: The Mazalim juri-sdiction, in the Ahkâm Sultaniyya of Mâwardi, J.R.A.S. july, 1911, p. 635.

رأساً للخليفة للنظر[1]؛ فهو أشبه بقضاء الإستئناف الحالى، وإن اتخذ اسم «النظر فى المظالم».

وهذه العادة فى رفع المظالم إلى الخليفة ترجع إلى ملوك الفرس الساسانيين، الذين كانوا أول من مارسوا هذا النوع من القضاء[2]، ولكن نظر المظالم لم يظهر رسمياً فى الدولة الإسلامية، إلا فى عهد الأمويين[3]. كذلك يروى المقريزى أن قضاء المظالم عرف فى مصر قبل مجىء الفاطميين، فى عهد الدولتين: الطولونية[4] والإخشيدية؛ فلما وصل جوهر، القائد الفاطمى، جلس للنظر فى المظالم[5].

وقد تحقق الفاطميون من الأهمية الكبرى لقضاء المظالم، فاعتمدوا عليه[6] — كما يرى ابن الصيرفى — للقضاء على الفساد بين عمال الخراج وحكام الولايات، وذلك لأن الغرض الأساسى من هذا القضاء هو تطهير الدولة من الفساد؛ فهو إذاً وسيلة ناجحة للمحافظة على سمعة الدولة، التى حاول الفاطميون بكل الوسائل الممكنة الدعاية لها.

ومنصب صاحب المظالم من الوظائف الداخلة تحت سلطة الخليفة؛ فإليه كانت توجه جميع الشكاوى. فتارة ينتدب فيه شخصاً ينفرد به، ويسمى: «قاضى المظالم»،

---

(١) أنظر: Fagnan. Les Statuts gouvernementaux, p. 161.

(٢) نظام الملك، سياسة نامه، ترجمة Schefer، ص٥٦ وما بعدها؛ Fagnan: Les Statuts gouvernemetaux, p.161. أنظر: Christensen: l'Iran sous Les Sassanides, p. 296 Sq.

(٣) كان الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ / ٦٨٥ — ٧٠٥)، أول من أفرد للظلامات يوماً. أنظر. المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٠٧ س ١٩. انظر: Fagnan: Les Statuts gouvernementaux, p. 166.

(٤) النويرى، ٦، ص٢٦٩؛ أنظر: Zaki, Les Tûlûnides, p 224. كان أحمد بن طولون، هو أول من جعل النظر فى المظالم من قضاء الدولة. انظر. المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٠٧.

(٥) نفسه.

(٦) أنظر: Le Code, p. 115.

وهو يعيّن حينئذ بسجل ، كأى موظف آخر فى الدولة[١] . وتارة أخرى ، يُعهد به إلى أى موظف كبير قائم بإحدى الوظائف من قبل[٢] ، كقاضى القضاة ، وإن لم يكن هـــذا المنصب بالضرورة وقفاً عليه ؛ فقد كان من الطبيعى ، أن يُدعى قاضى القضاة إلى شغل هذا المنصب بسبب معارفه القانونيه ، فكان يُذكر - أحياناً - فى سجله عند التولية من جملة اختصاصاته القضائيه[٣] .

ولـكن كان من الممكن أيضاً أن يُعهد به إلى أى موظف آخر من قبل الخليفة حتى ولو كان غريباً عن القضاء ، مثل : صاحب الباب وهو موظف كبير بالقصر[٤] ، أو مثل : وزير التفويض الذى بسبب سلطته العامة على القضاء ، كانت المظالم من تعلقات وظيفته ؛ وفى كلتا الحالتين لم يكن ضرورياً أن يُولى صاحب الباب أو وزير التفويض بسجل[٥] ، لأن النظر فى المظالم يكون جزءاً من اختصاصهما. أما من الناحية الفنية فإن هذا المنصب كان يُعهد به لرجل عظيم الرهبة ، عالى اليد ، له سطوة الحماة ، لأن نظر المظالم منصب ترتكز عليه هيبة الدولة[٦] .

وكان مجلس النظر فى المظالم يعقد بالعاصمة مقر الخليفة ، فى « باب الذهب »[٧] بالقصر الكبير ، حسب ترتيب خاص .

---

(١) ولاة ، ص٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩١ س١٩ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص٢٠٧ س٣٤ ، ٢٠٨ س١ .

(٣) نفسه ، ٢ص٢٠٧ ؛ ولاة ، ص٥٩٩ س١٥ — ٢٠ .

(٤) صبح ، ٣ ص٤٨٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ص٤٠٢ .

(٥) أنظر : Fagnan : Les Statuts gouvernementaux, p. 157.

(٦) نفسه ، ص١٥٨ — ٩ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص٤٠٦ ؛ انظر . Amedroz: The Mazalim, J.R.A.S., july, 1911 p.633 ؛ Mez: Die Renaissance ، ترجمة ، ١ ص٣٨٠ .

(٧) المقريزى ، الخطط ، ١ ص٤٠٢ س٣٧ . يروى المقريزى فى فقرة أخرى ، أنه =

كذلك كانت أيام نظر المظالم هي الأخرى محدودة ؛ فإن كانت المظالم ينفرد بها موظف خاص ، فإنه يعقد المجلس يومياً ، كي يتسلم شكاوى المتظلمين ؛ وعلى العكس ، إن كانت في يد موظف قائم من قبل بإحدى الوظائف ، فإنه يكتفي بأن يحدد يوماً أو أكثر من الأسبوع لجلوسه ، فمثلاً كان جوهر يجلس للمظالم في أيام السبت[1] .

وكان للمظالم جلوس واحد ، كما هو الحالة في القضاء العادى ، يضم جملة من الموظفين ، الذين يجلسون حسب طبقاتهم ، بترتيب معين دقيق .

فكان إذا وجد وزير السيف ، وجب أن يحتفظ مجلسه بمظهر القوة ، فيمثل فيه جميع عناصر الدولة : فكان يتكون من القاضي وبين يديه الحجاب ومن جانبه شدهدان من أهم الشهود ، وصاحب بيت المال ، وصاحب الباب ، وقائد العسكر « الاسفهسلار »[2] ؛ كما كان يشترك أيضاً كاتبان من كتّاب القصر ؛ لتسجيل مايتخذه المجلس من قرارات .

وإذا لم يوجد وزير السيف ، فإن عدد المشتركين في المجلس يكونون أقل ؛ فكان « صاحب الباب » ، مثلاً يرأس المجلس ، وبين يديه « الحجّاب » وقواد بعض الطوائف الحربية « النقباء »[3] .

أما إذا كان المجلس في يد موظف ينفرد بهغير صاحب الباب ، مثل « قاضى

= كان من عادة الخلفاء الجلوس لمن يأتيهم من المتظلمين ، في موضع من جملة القصر الكبير ، يعرف باسم « السقيفة » . أنظر . نفسه ، ١ ص ٤٠٥ س ١٩ — ٢٠ . وكانت هذه « السقيفة » ، توجد بجوار خزانة البنود . أنظر . نفسه ، ١ ص ٤٠٦ س ٢٣ . وكان الاستماع إلى المتظلمين في السقيفة » ، منقول عن عادة فاطمية في إفريقية ؛ فقد كان النعمان يعقد مجالس المظالم في السقيفة ، في قصر المنصور ، ثالث خليفة فاطمي . أنظر . النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ٣٣ .

(١) ابن خلكان ، وفيات ، ١ ص ١٦٨ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٣ ، ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ ، ٢ ص ٢٠٨ ؛ انظر . Tyan : Hist. de l'Org- jud, 2,p 246—247.

المظالم » فإنه يجلس وبين يديه الشهود العدول[١]، ويكون له حق استدعاء أي موظف آخر للإدلاء برأيه[٢].

وكان أغلب المتظلمين لهذا المجلس من بسطاء الناس أو النساء المستضعفات، الذين أتوا من النواحي البعيدة خارج القاهرة ومصر[٣]، ليتظلموا من عسف الولاة والموظفين — على الأخص من القبط — الذين كانوا يبالغون في التحكم في المسلمين[٤]. وقد كانت معظم الظُلامات — في ذلك الوقت تسمى قصص أو «رقع» — ضد الاشتطاط في جمع الضرائب من غير وجه حق، أو اغتصاب الأموال بالقوة أو قسوة الجباة. وكان مجلس المظالم رحيماً بالأحرى برعايا الدولة من أهل الذمة، عطوفاً بهم، على الأخص عند النظر في إسقاط الجزية والتصريح ببناء الكنائس[٥]. وفي الحقيقة، أنه كانت توجد دائماً فرصة أمام المتظلمين في مجلس النظر في المظالم.

وكانت إجراءات قضاء المظالم لها نظام خاص في عهد الفاطميين تحيط بها الهيبة دائماً، فكان « المنادي » ينادي بصوت عال: « يا أرباب المظالم »، وبذلك تبدأ الجلسة[٦]. وكان الذين يأتون من النواحي البعيدة؛ لهم الحق في أن تنظر شكواهم قبل غيرهم[٧]؛ فمن كانت له ظُلامة يقترب ليقدمها؛ فتجمع الظلامات ثم تُقرأ واحدة واحدة أمام هذا المجلس المختلف التكوين[٨].

وكان على الرغم من وجود الوزير أحياناً، فإن المجلس لا يتخذ قرارات

---

(١) ولاة، ص ٥٨٤.

(٢) صبح، ١٠ ص ٢٢٤؛ انظر. Hist. de l'Org. jud. 2, p.247 :Tyan

(٣) أنظر. Code, p.114

(٤) المقريزي، الخطط، ١ ص ٤٠٦ س ١٥ — ٢٢.

(٥) أنظر. Code, p.113

(٦) المقريزي، الخطط، ١ ص ٤٠٣.

(٧) نفسه، ١ ص ٤٠٣ س ٢.

(٨) أنظر. Code, p.114

فيما يعرض عليه من الظلامات ، فكان بعضها يُحال إلى مجلس القاضي ، الذي سبق الكلام عنه للنظر فيها ، وإن كان أغلبها يُرسل إلى ديوان الإنشاء لتكملة فحصه .

ولكن كان لابد لهذه الظلامات من أن تمر أولاً بين يدي كاتبي القصر[١]، اللذين سبق أن أشرنا إليهما ، حيث كان لكل منهما عمل قضائي محدد: فالأول ذو مرتبة رفيعة ويسمى: «صاحب القلم الدقيق»[٢]، كان يكتب عليها بما يقتضيه الحال بعد الاطلاع على قرارات المجلس ، والثاني ذو مرتبة أقل ويسمى : «صاحب القلم الجليل» ، يبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق . وبعد ذلك تحمل الظلامات في خريطة إلى موظف آخر في ديوان الإنشاء ، ليفصل فيها برأيه النهائي باسم الخليفة .

فكان هذا الموظف ويسمى: «موقع القصص»[٣]، له حق «التوقيع»[٤] بعلامة الخليفة — قد تختلف من خليفة إلى آخر — على القصص ، التي قطع فيها برأي نهائي. ولكن الخليفة — أحياناً — كان يطلع على بعض الشكاوى، ويوقع عليها بعبارات مناسبة بخطه[٥] ، بعد أن يقدمها إليه رئيس ديوان الإنشاء . وقد كانت هذه الظلامات تكون جزءاً كبيراً من عمل ديوان الإنشاء ، فكان مايقدّم منها في عهد المستنصر كل يوم ثمانمائة مظلمة[٦] .

ومع تعقيد هذه الإجراءات ،فلم يكن يتخذ قراراً حاسماً ، في أغلب الشكاوى

---

(١) المقريزى ، الخطط، ١ ص ٤٠٣ .

(٢) نجد أحياناً « موقع » بدلاً من « صاحب » . أنظر . صبح، ٣ ص٤٩١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص٤٠٣ ، ٢ ص٢٠٨ .

(٣) أنظر . Code, p, 112.

(٤) نفسه ، ص١١٥ .

(٥) المقريزى ، الخطط، ١ ص٤٠٣ س٨ .

(٦) نفسه ، ١ ص٣٥٦ س١٩ .

المقدمة ؛ فكان يكتب فى بعضها عبارة : « يعرض أو يوجد عرضها » ، وفى بعض الأحيان، يُكتب: « لا سبيل الى ذلك »؛ ويقول ابن الصيرفى إن هذه العبارة الأخيرة ، كانت الغالبة فى الإجابة[1] . ومن ناحية أخرى ، كان لقرار مجلس المظالم أن ينسخ الأحكام التى صدرت من قبل ، ويوجد بدلاً منها أحكاماً جديدة .

من كل الذى ذكرناه، نستطيع أن نلمس الدقة التى كانت تسير عليها إجراءات قضاء المظالم، والدور الهام الذى كان يقوم به صاحب المظالم؛ كما يمكننا أيضاً أن نقدّر أن القائم بهذه الوظيفة كان شخصية هامة فى الدولة .

أرباب الوظائف الدينية الأخرى التى تدخل وظائفهم ضمن وظائف القضاء هم : مراقب الأسواق « المحتسب » و « صاحب الشرطة » ،ومع أن وظيفتيهما غير قضائيتين ، مثل: وظيفتى : « قاضى القضاة » و « صاحب المظالم »، إلا أن لهما جانبهما القضائى . أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن عمل المحتسب متميز عن عمل صاحب الشرطة فى قضاء الدولة الفاطمية فى مصر ، فغالباً ما كان يقوم الواحد منهما بالوظيفتين معاً[2] .

المحتسب : أصل وظيفته ــ توليته ــ اختصاصاته ــ مساعدوه ــ تطبيق العقوبات ــ اختياره.

وظيفة « المحتسب » يُعبر عنها « بالحسبة » أى « مراقبة الأسواق » ،وهى

---

(١) أنظر . Code, p. 114. ؛ على بهجت ، ماتويه ، ص ١٥١.

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ ؛ ص ١٩ .

وظيفة أصلها دينى[1] من باب الأمر بالمعروف عندما يكون مهملاً ، والنهى عن المنكر عندما يكون علناً[2] ؛ وهذا الأصل له سند فى نصوص القرآن[3] ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ[4] ﴾ . ونجد هذا الأصل أيضاً يتردد فى أحاديث السنة والشيعة ؛ فقد قال علىّ فى وصيته[5] لابنه الحسن ، أن النبى قال له : « ياعلىّ ، مر بالمعروف وانه عن المنكر » .

فكأن الحسبة واجب دينى ، وفرض على كل مسلم ، وعلى الأخص القائمين بأمور المسلمين . فكانت أعمال الحسبة — فى رأى الشيعة[6] — تدخل فى عموم واجبات الإمام ، بسبب كونها خدمة دينية ، ولكن كما فى غيرها من الوظائف الدينية الأخرى ، كان الإمام يستخلف فيها من يراه أهلاً لها .

والواقع إنه ليس من السهل تحديد أصل هذا المبدأ الدينى للحسبة عند فقهاء المسلمين ؛ فقد تعدت الحسبة فى الدول الإسلامية أصولها المثالية الدينية فى النهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، إلى واجبات عملية تتفق والمصالح العامة للمسلمين ، ذلك لأن معظم سكان المدن كانوا من أرباب الحرف والتجارة . فلم تعد الحسبة مراقبة للأخلاق فقط ، وإنما مراقبة للغش فى الصناعة والمعاملة ، وأصبح هذا الأخير الموضوع الأساسى للحسبة ؛ ولذلك كانت كلمة الحسبة تعنى « مراقبة الأسواق » ، وكلمة المحتسب تعنى « مراقب الأسواق » . وفى رأى علماء المسلمين[7] ؛ تعتبر الحسبة أشبه بخدمة إجتماعية ، لأنها تتفق ومظاهر الحياة الداخلية للمدينة ،

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٣ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٥ وبعدها .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٦ ؛ انظر . Les Statuts, p. 513: Fagnan

(٣) حاجى خليفة ، ١ ص ١٦٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ٦ ص ٢٩٦ وبعدها .

(٤) سورة ٣ آية ١٠٤ .

(٥) أنظر Ismaili law, p. 40 : Fyzee

(٦) تابع العقائد ، ص ٤٨ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ١ ص ٤٠٦ .

حيث نلمس فيها بذرة النظام البلدى الحالى .

وقبل مجىء الفاطميين ، كانت الحسبة فى مصر تابعة لحسبة بغداد؛ ولكن لما كان الفاطميون خلفاء مستقلين ، صارت القاهرة مقراً للحسبة الفاطمية ، وأصبح لمتوليها حق استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر، وجميع أعمال الدولة، كنواب القضاء[1] .

وكان المحتسب — كغيره من أرباب الوظائف الكبار — توليه السلطة العليا منصبه ؛ فكان يعين « بسجل »[2] ، على أساس أن سلطته مستمدة من سلطة الخليفة . ولكن غالباً ما كانت الحسبة تضاف إلى عمل بعض أرباب الوظائف القضائية ، مثل : صاحب الشرطة[3] أو قاضى القضاة؛ فكانت تذكر فى سجل هذا الأخير ، عند الكلام عن النظر فى دار العيار[4] . كذلك كان طبيعياً أن يدخل عمل الحسبة فى اختصاصات وزير التفويض بسبب سلطته العامة على القضاء ؛ فكان مثل قاضى القضاة يفوض فيها من يقوم مقامه .

وكانت تولية المحتسب تصحب برسوم فخمة ، تشبه ما كان لأرباب الوظائف الكبار فى الدولة ؛ فكان الخليفة يستدعيه إلى القصر ليمنحه بنفسه كتاب التولية؛ وقد جرت العادة أن يقرأ سجله فى جامعى القاهرة ومصر[5] ؛ فكان يخرج من القصر إلى الجامعين فى موكب ضخم ، ليطوف خلال الحارات ، وبين يديه خلع للخليفة .

ومنصب المحتسب الفاطمى يشتمل على عمل أى محتسب إسلامى آخر، إلا أننا

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص٤٦٣ .

(٢) صبح ، ٣ ص٤٨٧ س١٤ .

(٣) نفسه .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٣ ؛ انظر Wiet و Hautecoeur: Mosquées, p. 120.

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ص٤٦٣ — ٤٦٤ .

وجدنا فى عمله نوعاً جديداً من الحسبة المذهبية ، ذات طابع خاص ، ظهرت بشكل واضح فى قضاء حسبة مصر .

فعمل المحتسب فى أساسه عمل اخلاقى ، يشمل النهى عن الأمور التى تسمى « منكرات »[1] فى الشريعة الإسلامية ، وهو — كما بينّا سابقا — كان قد تغير ليتفق مع ضروريات الحياة الداخلية فى المدن ؛ فكان عمل المحتسب فى الدولة الفاطمية — مثل عمل غيره من المحتسبين فى الدول الأخرى — إعطاء مثل أعلى دينى واجتماعى للحياة العامة ؛ ويروى المقريزى تفاصيل وافية عن هذا الدور[2] .

فكان المحتسب الفاطمى بمساعدة نوابه ، يطوف الطرقات ليمنع تزاحمها ؛ وكان يُلزم رؤساء المراكب ألاّ يحملوا مراكبهم أكثر من الحمولة العادية ، والحمالين ألا يحمّلوا بهائمهم مالا تطيق ؛ ويأمر السقائين بتغطية الروايا بالأكسية ، ويجبرهم على لبس السراويلات الطوال ذات اللون الأزرق ، الضابطة لعوراتهم ؛ وينذر معلمى المكاتب بألا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ، أو فى مقتل ؛ ويحذر معلمى العوم من التغرير بأولاد الناس وإغراقهم ؛ ويتتبع كل من يظهر له سوء سيرته وينهاه بالردع والأدب ؛ وينظر فى المكاييل والموازين ويشرف على دار العيار[3] ، والصيرفة[4] ، وكل ما يمس حياة المدينة .

ولكن الفاطميين حاولوا أن يستخدموا النهى عن « المُنكرات » لتحقيق

---

(١) الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق العريبى ؛ انظر . ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٦ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ ؛ انظر . Demombynes : La Syrie, Introd, L. XXVIII.

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٤ ؛ انظر . Bernbauer : Les Institutions de police chez les Arabes, J.A., 1861, XVI, 138.

(٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٤٠ س ٣٠ ؛ انظر . Mez : Die Renaissance ترجمة ، ١ ص ١٠٨ . فى سنة ٣٦٢ / ٩٧٢ ، عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من الصيارفة ؛ فصاحوا باسم الخليفة معاوية ، عدو الفاطميين ؛ فهم جوهر أن يحرق رحبتهم ، ولكن خشى على الجامع .

أغراض مذهبية بحته ، وذلك بجعل المبادىء الشيعية جزءاً من قواعد الحسبة : فكانت « المُنكرات » الشيعية ، العناصر الجديدة التي دخلت في الحسبة الفاطمية .

ومن المحقق أن هذا النوع من الحسبة الشيعية لم يعرف في مصر إلا بمجيء الفاطميين ، وبخاصة في القرن الأول من حكمهم ، ذلك لأن الدولة في أول عهدها ، كانت تحركها بواعث الروح المذهبية ، أما في القرن الثاني من العصر الفاطمي ، فاننا لم نعد نسمع إطلاقاً عن المنكرات الشيعية . فهل يا ترى هذا السكون راجع إلى ضعف الروح المذهبية بسبب ضياع سلطة الخلفاء ، ونمو سلطة وزراء التفويض ، الذين نجد من بينهم أعداء لعقيدة الدولة نفسها ؟

ومهما يكن ، لنا أن نؤكد أن مذهبية الحسبة كانت تقوى وتضعف حسب تحمس الخلفاء الديني وتعصبهم للمذهب ، وإن كان التحمس البالغ للمذهب لم يبلغ أشده إلا في عهد خليفة واحد ، هـو الحاكم ، الذي اعتنق العقيدة الشيعية المتطرفة ، واتُّهم بارتكاب كثير من المبالغات الدينية . فقد أراد هذا الخليفة أن يخضع أمور الحياة للنص العرفي للقرآن والحديث الشيعي ؛ فكانت المراسيم والأوامر التي صدرت في عهده ، تتفق جميعها وقاعدة الحسبة ، وهي التي حاول المؤرخون السنيون السخرية منها . وكان لفرط تعصب الحاكم للدين ، يقوم بنفسه بتنفيذ أوامر الحسبة ونواهيها ، لإعتقاده بفرضها الواجب على القائمين بأمور المسلمين .

وإذا درسنا عن قرب هذه الحسبة الفاطمية ، نلاحظ أنها تهتم قبل كل شيء بحظر أمور سنية ؛ فقد اتهم الشيعة الخلفاء الأوائل بتحوير أصول العبادة ، لإدخال أحكام مخالفة للعقيدة الشيعية ، فكان عمل المحتسب الفاطمي ايقاف كل ما هو دخيل على معتقدات الشيعة .

فكان لابد إذاً من أن تتفق الصلاة مع قواعد المذهب الفاطمي ، وأن يُزاد

فيها مايتفق والعقيدة الفاطمية . لذلك قرر جوهر فى ٨ جمادى الأول ٣٥٩ / ٢ مارس ٩٧٠[١] الآذان الجديد ، وهو يشتمل على العقيدة الفاطمية وعلى الأخص هذه الفقرة : « حىَّ على خير العمل » . وفوق ذلك ، أمر جوهر فى صلاة الجمعة ، أن يجهر بصوت عالٍ بالبسملة : « بسم الله الرحمن الرحيم »[٢] ، وأن تزاد أيضاً صيغة « القنوت »[٣] فى الركعة الثانية ، وهى تتكون من هذه الكلمات : « اللهم نحن إليك قانتون » . وفى سنة ٣٧٢ / ٩٨٢ ، أمر الخليفة العزيز بقطع صلاة التراويح التى تتكون من عشرين ركعة وعشر تحيات[٤] . ولنفس الأسباب ، فى سنة ٣٩٣ / ١٠٠٢ ، أبطل الحاكم صلاة الضحى ، ذلك لأن الشيعة لا يقومون بها[٥] وفى ظل هذا الخليفة أيضاً مُنع الناس من بيع المأكولات المحببة إلى أعداء الفاطميين : « كالملوخيا » التى كان معاوية يحبها كثيراً ، و« الجرجير » المنسوب إدخاله فى الطعام لعائشة ، و « المتوكلية » وهى نبات يدخل فى عمل الحساء ، وينسب إلى الخليفة العباسى المتوكل[٦] . كل هذا يبيّن لنا إلى أى درجة وصل

---

(١) ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد ، تحقيق . Vond ، ص ٤١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٧٠ س ٣١ — ٣٤ ، ص ٣٤٠ س ٢٤ و ٣١ ؛ القضاعى ، تاريخ ، ورقة ١٧٨ . كانت صيغة الآذان : « حى على خير العمل » على عهد النبى ، ولكن عمر أمر بقطع هذه الصيغة من الآذان ، وذلك لأنه رأى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل تهاونوا بالجهاد وتخلوا عنه . أنظر . النعمان ، دعائم ، ١ ص ١٧٢ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٧٠ س ٣٥ ، ص ٣٤٠ س ٣٠ — ٣١ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٧٠ س ٣٤ ، ٣٤٠ س ٣١ ؛ انظر . Droit mu- : Querry :De Sacy: A Dictionary of Islam, p. 101: Hughes : sulman, 1, p.81 Chrest, 2, p.99.

(٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٤١ س ١٥ ؛ ابن إياس ، بدائع ، طبعة القاهرة ، ١ ص ٥٢ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٤١ س ٢٥ — ٢٦ ؛ انظر . De Sacy : Druzes, Introd, CCXVII.

(٦) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٤١ س ٢٩ — ٣٠ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ٢٦ ورقة ٥٣ ؛ ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ٥٢ . ذكرت الملوخيا ونوع من السمك لا قشر له فى سجل الحتسب غير فى عهد الحاكم . أنظر . المقريزى ، الخطط ٢ ص ٣٩٧ س ٣٢ .

الحقد المقيت الذى يحمله الشيعة للسنة[١] ؛ فكان كل ما ينهى عنه المذهب الشيعى أولا يتمشى معه — ويمكن دخوله فى اختصاص المحتسب — يكون جزءاً من عمله .

وعلى العكس ، أستغلت الحسبة على وجه آخر ، لتحقيق أغراض الدولة السياسية، فمن العجيب أن نقرر بأنه على الرغم من مذهبية الدولة وتعصبها، فإنها غالباً ما تركت للمصريين حرية شرب الخمر واللهو دون قيد ؛ فترتب على ذلك المبالغة فى الفساد والانغماس فى الإباحية فى بعض الأحيان ، مما كان له أثره فى الخلفاء أنفسهم، وأثار الإنكار والانتقاد من أعدائهم ، ولكن الحسبة كانت بالنسبة لهم وسيلة لزيادة تقربهم من المصريين .

ومع ذلك ، كان الخلفاء الأتقياء ، مثل الحاكم ، يحاولون أن يضعوا حداً للمجون؛ فقرر هذا الخليفة كثيراً من الأوامر الرادعة صيانة للأخلاق المهددة. ففى سنة ٤٠٢ / ١٠١١ ، قرئ سجل للمحتسب غين[٢] ، يوصيه فيه الحاكم بالتشديد فى منع شرب النبيذ أو صنعه ، أو أى نوع من المسكرات ، وتتبع السكارى ؛ فمصر فى ذلك الوقت، كانت اشتهرت بصناعة البيرة المسماة « فُقّاع » والنبيذ المسمى « مِزر »[٣] . كذلك رغبة منه فى المحافظة على الآداب ، حرّم على كل شخص

---

(١) ازداد هذا الحقد شدة لما أمر الفاطميون فى سنة ٣٩٥/١٠٠٤ بسب « السلف » أعداء علىّ وهم : عائشة زوجة النبى، وأبو بكر وعمر وعثمان ، وطلحة والزبير ، والخليفة معاوية، وعمرو بن العاص . فكان هذا السب يقرأ فى الجوامع ، أو يكتب على أبواب الحوانيت والبيوت ، وسائر المساجد ، وعلى المقابر ، وحتى « الصحراء » كما يقول المقريزى مبالغاً . أنظر. المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٤١ س ٣٧ — ٣٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ٢ ص ٦٣ .

(٢) المقريزى، الخطط ، ٢ ص ٢٩٢ — ٨ ؛ انظر . De Sacy : Chrest, 2, p. 460.

(٣) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٤٢ ؛ انظر . Sefer Nameh trad, p. 111 ; De Sacy : Chrest, 2, p. 437 sq. يسمى ناصرى خسرو هذين النوعين من الشراب « الكشكاب » ، ويصفه بأنه شراب منعش .

الدخول إلى الحمام عارياً بدون مئزر[١]، وأمر النساء بألا ينظرن من الطاقات أو الأسطح، ومنع الخفافين من عمل الأخفاف لهن، حتى يعوقهن عن الخروج[٢]. ومنع الناس أيضاً من اللهو العلنى، فمنع الغناء، والعزف على الآلة الموسيقية، والاجتماع على شاطىء النيل للفرجة، وحرّم عليهم الجلـــوس فى الحوانيت (المقاهى)[٣].

وفى عهده تشدد المحتسب فى مراقبة «أهل الذمة»[٤]، حيث رُوقب مسلكهم وحُدّ من حريتهم، وذلك لإظهار ما فى الإسلام من العزة؛ فقد أعاد الحاكم بعض الواجبات الدينية على أهل الذمة، فقرىء سجل يُجبر فيه أهل الذمة على لبس «الغيار»، وهى ثياب مميّزة لونها أسود، كلون العباسيين أعدائهم[٥]. والواقع إن اليهود، سواء فى دار الإسلام أو فى البلاد المسيحية، كانوا يتميزون ببعض العلامات من لون خاص فى لبسهم[٦].

هذا التطرف فى تنفيذ أمور الحسبة لم يستمر طول عهد الدولة الفاطمية؛ فقد كان للخلفاء أهداف سياسية، تمنعهم من الاستمرار فى تطبيق مثل هذه المبالغات؛ ولذلك فإن الخليفة الظاهر الذى خلف الحاكم، منح بعض الحرية وسمح حتى بشرب الخمر[٧].

---

(١) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٣٤١؛ انظر. De Sacy : Druzes. Introd. CCCX

(٢) ابن الأثير، ٩ ص ١١٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ٢ ص ١٣؛ انظر. De Sacy : Druzes, introd CCLVIX

(٣) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٨٥ س ٣٩، ٢٩٧ س ٣٢ — ٣٣؛ Wiet: L'Egypte, IV. p. 200.

(٤) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ١٠٦ — ١٠٧؛ المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٨٦ س ٩.

(٥) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٣٤١ س ٣٧.

(٦) أنظر. De Sacy : Chrest, 2, p. 95.

(٧) المقريزى، الخطط، ١ ص ٣٠٤ س ١٣.

وهناك من عمل المحتسب أيضاً ناحية مادية تختلط بمبادىء الحسبة المثالية والإجتماعية ؛ فقد كان على المحتسب بالإضافة إلى ما سبق ؛ الإشراف على التجارة والصناعة فى المدن ، وذلك بمراقبة التجار وأصحاب الحرف والصناعات، لمنع الغش ؛ فكانت هذه المراقبة الحكومية — بقصد الصالح العام — تكون الناحية المادية من عمل المحتسب .

فجميع ما كتبه المؤلفون عن وظيفة المحتسب تشير إلى أهمية دوره من الناحية الاقتصادية ، إذ كان على المحتسب أن يتعرف على دقائق كل حرفة وتجارة ليكشف بسهولة عن الغش الذى يرتكب فى الأسواق ، ضد حياة الناس المعيشية . والمصدر الهام الذى تعرض للمحتسب الفاطمى وعمله، وصلنا من عصر متأخر عن عصر الفاطميين فى العصر الأيوبى، وهو من تأليف الشيزرى[1] ، وفيه يبيّن المؤلف أوجه النشاط الاقتصادى فى مصر ودور المحتسب، الذى نظن أنه لم يحدث له تغيير كبير ؛ حيث أن المؤلف عاش فى أواخر الدولة الفاطمية.

فأهم ما يميّز الحياة فى العصر الفاطمى ازدهار التجارة والصناعة ، فنحن لا نعرف أية نهضة اقتصادية مماثلة فى أى بلد آخر ، فمنذ مجىء الفاطميين مصر، شرعوا فى بناء عاصمة جديدة « القاهرة » بجوار « مصر » العاصمة القديمة ؛ فكان لبناء هذه المدينة الجديدة أثره فى نهضة البلاد الاقتصادية، ونمت المدينتان معاً ، وأصبحت مصر — بطبيعة الحال — مركزاً اقتصادياً لأمبراطورية خلافية واسعة الأرجاء يشهد بذلك كتب الرحالين وقتئذ .

فيروى ناصر خسرو[2]، أن القاهرة كانت مدينة كبرى قل نظيرها من المدن ؛ فكان فيها أكثر من عشرين ألف دكان ، ملكاً خاصاً للخليفة .

---

(١) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق العريني .

(٢) أنظر . Sefer Nemeh, trad, Schefer, p.127

ويشير نفس الرحالة[١] ، إلى مصر أو الفسطاط وتميّزها بتوافر جميع وسائل الحياة فيها ، وجميع ما هو جيد وجميل ، ويضيف إلى ذلك ، بأن أسواقها مملوءة بكل ما فى العالم من المنتجات ، حتى النادرة منها والثمينة ؛ فهى تفيض بالبضائع التى تأتيها من كل أجزاء العالم .

ومن المحقق ، أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر ، وهما من أكبر المدن التجارية والصناعية ، مدن أخرى كثيرة فى طول البلاد وعرضها . تعتبر مراكز إقتصادية نشيطة، مثل : تنّيس التى كان فيها — كما يروى ناصر خسرو[٢] — ما يزيد على عشرة آلاف دكان ، ومثل : دمياط ، والإسكندرية ، ودابق ، وشطا، وقفط ، وعيذاب، وقوص ، ومدن أخرى كثيرة اشتهرت بصناعتها المزدهرة أو بغنى تجارتها .

هذا النشاط الاقتصادى الذى ساد المدن إبان الحكم الفاطمى ، كان يخضع لنظام دقيق يتحكم فى وسائل الإنتاج، عمّ جميع بلاد الإسلام ، ويعتبر النظام الشعبي الوحيد فى الدول الإسلامية .

فكانت كل طائفة من التجار وأصحاب الحرف وعلى رأسها شيخها، تضم صنفاً من أرباب الصناعات أو التجارة وتتسمى به[٣]، ولها حارتها وسوقها الخاص، وكانت الأحياء التى تسكنها — وهى تقع غالباً حول المسجد — مراكز للنشاط الاقتصادى فى البلاد . ففى الفسطاط ، كانت الطوائف تتجمع على الأخص فى (الأسواق) حول جامع عمرو ؛ كذلك كان بناء القاهرة، سبباً فى ظهور طوائف جديدة، تجمعت فى (حارات) ، نشأت فيها أماكن للصيّرفة ودكاكين ورباع وفنادق، مما دعا إلى ازدهار الصناعة ونشاط التبادل التجارى . ويقدم الشيزرى[٤] جدولاً مفصلاً

---

(١) نفسه ، ص ١٤٦ وما بعدها .

(٢) نفسه ، ص ١١٠ .

(٣) الشيزرى ، نهاية الرتبة ، أنظر .

(٤) نفسه ، ص ٤ .

بأرباب التجارة والصناعات فى القاهرة ومصر ، وهى شبيهة بما فى المدن الإسلامية الأخرى فى العصور الوسطى ، أو حتى فى المدن الحالية فى الشرق .

هذا النظام النقابى تسبب فى ظهور تعبيرات اصطلاحية جديدة ، مثل عبارة : « دار الوكالة[١] » ، التى ظهرت لأول مرة فى عهد الخليفة الآمر ، وتعنى بيتاً واسعاً للتجار ، على الأخص للأجانب منهم ؛ وهى دليل على زيادة النشاط الاقتصادى ، الذى كانت الدولة تراقبه .

ولقد اتخذ المحتسب لواجباته الدينية والعملية الواسعتين أعواناً من بين الخبراء سواء فى الصناعات أو فى التجارة ، ليقوموا بالطواف والتفتيش عند أرباب الحرف والمعايش ؛ فكان كل من هؤلاء الخبراء يسمى : « عريفاً »[٢] أو « نائباً »[٣] . فكلن المحتسب يطوف هو أو نوابه فى الأسواق أو الحارات ليباشر الحسبة فى مكانها ؛ أو أنه كان يجلس فى أحد الجامعين الكبيرين فى القاهرة وفى مصر ، يوماً بعد يوم[٤] ، على دكة الحسبة[٥] ، للنظر فى قضايا اختصاصه .

وتبين لنا نصوص التاريخ أن للقائم بالحسبة سلطة تنفيذية كقاضى القضاة . ولكن العقوبات التى كان يصدرها وتسمى : « بالتعزير »[٦] ، لم تكن تبلغ عقوبات « الحدود » ؛ وإن كانت تختلف على حسب قدر الذنب ؛ وهى تشبه

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٥١ ؛ انظر . Clerget: Le Caire, II, p.313-4.

(٢) الشيزرى ، ص ٣٦ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٣ .

(٤) نفسه .

(٥) كان المحتسب يعلق على دكة الحسبة السوط والدرة والطرطور ، لتخاف منها قلوب المفسدين . أنظر . نفسه ؛ الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص ١٠٨ .

(٦) ابن تيمية ، الحسبة فى الإسلام ، القاهرة ١٣١٨ هـ ، ص ٣٨ وما بعدها ؛ الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص ١٠٨ .

التعزيز فى جميع الدول الإسلامية الأخرى ، وتشمل بصفة خاصة : الردع والجلد والتشهير والتوبيخ والنفى والضرب .

فكان الردع يستعمل غالباً كعقاب ، وذلك بزوال الأمر المخالف عن طريق حذف الوسائل التى تسببه ؛ وقد غلب هذا التعزيز فى عهد الحاكم(١) ، الذى كان يقوم بنفسه بكسر الأوانى التى تحوى الشراب المسكر .

وكان المحتسب الفاطمى يتخذ أيضاً الجلد وسيلة للتعزير فيما يصدره من عقاب ، وذلك بضرب المذنب بالسوط أو بالدرة التى من جلد البقر(٢) أو العصا ؛ وكان هذا العقاب يختلف على حسب الذنب ، دون أن يؤدى على كل حال إلى حد الموت .

كذلك وصف لنا ناصر خسرو صورة التشهير عندما غش تاجر أحد المشترين ؛ فقد أمر المحتسب بوضعه على جمل ليُشهر به فى المدينة ، وقد أعطى للتاجر جرساً بيده ليدقها ، وهو لا يفتأ عن الصياح بصوت عال : « غششت وعوقبت ، فليقع نفس العقاب على جميع الكذابين »(٣) .

وعلى ذلك كانت الحسبة مثل القضاء لها سلطة تنفيذية يقوم بها المحتسب بنفسه ، أو يعهد بها إلى « والى الشرطة »(٤) .

وفى الواقع ، كانت الحسبة فى العصر الفاطمى من أهم مناصب الدولة ، بعد القضاء والدعوة(٥) ؛ فكان يطلب من متوليها أن يكون عارفاً بأحكام الشريعة

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٨٦ ؛ يحيى الأنطاكى ، ص ٤٨١ .
(٢) الشيزرى ؛ نهاية الرتبة ، ص ١٠٨ .
(٣) أنظر . Sefer Nameh, p.153
(٤) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٤ — ٥ ؛ انظر .
Institutions de Police Chez les Arabes, J.A1861, XVI, p150: Bernhauer
(٥) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ .

وأصول المعاملات[١] ، وأن يكون ذا صفات أخلاقية عالية ، وكان الخليفة لا يعهد بها إلا لشخص من أعيان الشهود العدول[٢] ، يراقبه بنفسه عن كثب ، وذلك بقصد المصلحة العامة

ولكى يكون المحتسب عفيفاً عن أموال الغير ولا تفسده الرشوة ، كان يتسلم بانتظام مرتباً يبلغ ثلاثين ديناراً شهرياً[٣] ، فضلاً عما يمنحه الخليفة من خلع ؛ فقد أنفذ الحاكم إلى محتسبه نمين[٤] ، فى سنة ٤٠٢ / ١٠١١ ، خمسة آلاف دينار ذهباً ، وخمسة وعشرين فرساً بسروجها ولجمها ، حتى يشعره بعطفه ويمنعه من الرشوة .

صاحب الشرطة : تحديد اختصاصه — مساعدوه — تطبيق العقوبات — السجن .

أما عن « صاحب الشرطة » فإنه يشغل وظيفة دينية فى نظام قضاء الدولة[٥] ، يُطلق عليها « الشرطة » ، وموضوعها — كما يظهر مما كتبه مؤرخو العصر الفاطمى — تنفيذ العقوبات التى يصدرها على الأخص قاضى القضاة[٦] .

وهذه الوظيفة من وظائف السيوف[٧] التابعة للقضاء ، ولذا عدها الفقهاء من بين الوظائف القضائية فى الدولة ، فابن خلدون يرى أن ما يسمى بصاحب الشرطة هو الذى يستوفى الحدود إذا تنزه عنها القاضى[٨] .

---

(١) الشيزرى ، نهاية ، ص ١٥ .
(٢) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ .
(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٤ س ٦ .
(٤) نفسه ، ٢ ص ٢٩٧ س ٢٩ ؛ انظر . Chrest, 2, p.460, : De Sacy
(٥) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٠ .
(٦) نفسه ، ١ ص ٤٠١ ؛ انظر . Prolégomènes, trad. Stane,5 p.35—36
(٧) صبح ، ٣ ص ٤٨٢ — ٤ .
(٨) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٠ ؛ انظر Prolégomènes, trad. Stane 2, p.35—36 .

وكان يطلق على القائم بهذه الوظيفة كلمة : « صاحب » وأحياناً « والى »[١]، وهما كلمتان كانتا تطلقان على كثير من الموظفين الكبار فى العهد الفاطمى، وحتى فى العصر المملوكى ، وتدلان بصفة عامة على موظف هام من أرباب الوظائف .

ولكن « صاحب الشرطة » مع تميزه فى عمله بوضوح عن المحتسب » ، فإنه لم يكن من السهل تمييزه عن « والى القاهرة » أو « والى مصر » ، فكل منهما يتداخل عمله فى عمل الآخر ، فضلاً عن أنه تنقصنا المعلومات الدقيقة عن اختصاصات كل منهما .

فكل ما نعرفه عن والى القاهرة أو مصر — بناء على ما أورده المقريزى والقلقشندى[٢] — أنهما يشتركان فى تنظيم موكب الخليفة بمساعدة طائفة من العسكر ، دون أن يكونا من ضمن حرس الخليفة الخاص الذى يتكون من قوات ، تُعرف : « بصبيان الركاب » ، لها مقدمون يختارون من بينهم[٣] .

كذلك ، عندما غادر الخليفة القاهرة ليقوم بحملة عسكرية ، كان يترك عاصمته لنائبه والى القاهرة[٤] ؛ فكان والى القاهرة يقوم أحياناً بتنفيذ العقوبات وبأعمال الشرطة نفسها[٥] .

ومن ناحية أخرى ، كان تقسيم الشرطة يتفق مع تقسيم ولايتى القاهرة ومصر ، فكانت الشرطة تنقسم فى العصر الفاطمى إلى قسمين متميزين : « الشرطة العليا » و « والشرطة السفلى »[٦] ؛ فالأولى فى القاهرة والثانية فى مصر . ونلاحظ أن هذين القسمين كانا موجودين قبل تأسيس الفاطميين للقاهرة ، فى العصر الطولونى ؛ فكانت الشرطة العليا تشمل العسكر والقطائع ، والشرطة السفلى

---

(١) صبح ، ٤ ص ٢٣ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٥٠٧ ، المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٤٩ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٨٤ ، ٥٠٧ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٩٥ س ٣٨ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات ، ١ ص ٣٨٢ .

(٦) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٢٤ .

تشمل الفسطاط أو مصر . وقد كان تأسيس القاهرة على أيدى الفاطميين يقضى — ولا ريب — بوجود شرطة خاصة بها ، ولذلك جُعل للقاهرة — وهى المدينة الخلافية — الشرطة العليا ، بينما جعلت الشرطة السفلى للفسطاط والعسكر والقطاع .

وعلى كل حال ، كان صاحب الشرطة أو الوالى يتخذ له مساعدين يسمون : « الأعوان »[١] جمع « عون » ، وهم يكونون رجال الشرطة ؛ فكان عملهم لا ينحصر فى حفظ الأمن نهاراً وليلاً ، كما هو الحال فى أيامنا ، وإنما كانوا يقومون بتنفيذ الأحكام التى ينطقها القاضى ، وبتحقيق أقوال المتخاصمين ، وبإنفاذ الخصوم عند الاقتضاء بالقوة ، وبالمحافظة على النظام وقت جلوس القضاة ، وبالقيام بالتحريات وحراسة قاضى القضاة . من هذا يتبيّن ، بلا ريب ، أن الشرطة كان عملها الرئيسى تطبيق العقوبات التى ينطقها القاضى بالقوة ، فهى نظام تابع للقضاء .

فالشرطة إذاً ، أداة كالحسبة ، أداة تنفيذ ، حيث أن عمل والى الشرطة هو تنفيذ « الحدود » والأحكام التى يوقعها القاضى أو أى موظف آخر ؛ ففى كثير من الحالات ، كان المحتسب يتقدم إلى الشرطة لشد أزره فيما يوقعه من تعزير . ولم تكن العقوبات التى تنفذها الشرطة تشتمل على العقوبات التى تنفذ فى وقتها فقط ، وإنما تشتمل أيضاً على العقوبات الطويلة الأمد كالسجن ، وحتى قبل مجىء الفاطميين ، كان الطولونيون يعهدون بتنفيذ عقوبة السجن إلى الشرطة ، على الخصوص[٢] .

أما فى عهد الفاطميين ، فإن السجون كانت تسمى : « سجون الولاة »[٣] ، أى السجون التى كان الولاة يشرفون عليها ، حيث أن منصبهم كان يندمج

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٨٧ س ٢٢

(٢) أنظر : Zaki . Les Tûlûnides, p 204

(٣) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٨٧ س ٢١ .

فى منصب والى الشرطة ويتداخل فيه . وكان لقاضى القضاة — بسبب سلطته العامة على الشرطة — أن يستوضح أحـــوال المعتقلين فى هذه السجون ، ويستخرج أمر الخليفة بالإفراج عمن قضى منهم مدة العقوبة[١] . وقد وجد فى ذلك العهد نوعان من السجون :

١ — سجن السياسيين ، وكان وسيلة ماهرة لإخفاء الرجال الخطيرين على الدولة ، وهو يُعرف باسم : « خِزانة البنود »[٢] ، التى — قبل أن تكون سجناً — كانت عبارة عن خزانة للسلاح والرايات ، أنشأها الخليفة الظاهر ؛ ولـكن بعد حرقها فى سنة ٤٦١ / ١٠٦٨ ، تحولت إلى سجن يسجن فيه الأمراء والأعيان[٣] .

٢ — سجن أرباب الجرائم من السّراق وقطاع الطرق ونحوهم ، ويُعرف منه اثنان ، أحدهما فى القاهرة والثانى فى مصر ، والاثنان معروفان باسم : « حبس المعونة[٤] » . ونحن نعرف من وصف المقريزى أنها كانت أشبه بجهنم الحمراء ، حيث كان السجناء يُحشرون فى مكان غير مسقف وهم فى الحديد ، يؤذيهم حر الصيف وبرودة الشتاء ، ويتركون هكذا من غير أن يُطعموا شيئاً إلا بما يتصدق عليهم به الناس . وكان منهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يستعملون فى الحفر والعمائر ونحو ذلك ، تحت أعين « الأعوان »[٥] ، فإذا انقضى عملهم ، رُدوا إلى السجن فى حديدهم .

---

(١) ابن حجر ، رفع ، ورقة ٢٥٦ ؛ ابن ميسر ، ص ٧١ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٨٨ ، ابن القلانسى ، ص ٨٤ ؛ ابن الصيرف ، إشارة ، ص ٥٥ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٨٨ . يروى عمارة اليمنى أن فى دار الوزارة قاعة تسمى « قاعة البستان » كان يحبس فيها الوزير أعداءه ، فهل يا ترى كانت سجناً سياسياً ؟ انظر . عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٨٧ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ١٨٧ س ٢٤ .

وفى عهد الحاكم ،ظهر عقاب جديد لكبار رجال الدولة؛فقد كان الخليفة يأمر غالبًا والى الشرطة بمصادرة أملاك المتهمين ومنعهم من الخروج من بيوتهم، وقد كان هذا أبرز عقاب لشخصيات الدولة الهامة فى عهد الحاكم الذى أفرد ديوانًا للأموال المصادرة باسم : « ديوان المفرد »(١).

ولسنا نستطيع أن نستبين مما لدينا من معلومات وردت فى كتب المؤرخين القدامى عن الشرطة ، أنها كانت موجودة فى جميع ولايات مصر ، وإن كان من المرجح ، أن حكام الولايات أنفسهم كانوا يقومون بها ، وذلك باعتمادهم على قوات العسكر التى كانت تحت تصرفهم .

وعلى العكس، كانت الشرطة فى القاهرة ومصر الأداة الرسمية والشرعية الوحيدة ، التى استخدمتها الدولة ممثلة فى الخليفة ، كحاكم مطلق ، فى توقيع العقوبات التى يأمر بها ، أو تأمر بها السلطة القضائية .

الدعوة :

كانت الدولة الفاطمية فى مصر ، كما فى المغرب التى نشأت فيه ، تقوم على أسس العقيدة الشيعية فى الإسلام ، ويعنى هذا أن الخلافة الفاطمية أوجدت دولة مذهبية قبل كل شىء.

ولقد عرف الفاطميون — لكى يتوطد حكمهم فى البلاد التى فتحوها — أنه لا بد من أن يمكّنوا لعقائدهم الدينية ؛ فهم يرون أن يعتمدوا على تفوقهم الحربى فى حكم شعوب خاضعة لهم حقًا، ولكن يجب أيضًا أن تعتنق هذه الشعوب مبادىء الدولة ؛

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٨٧ س ١٤ ؛ انظر . Druzes, Introd, XLII.: De Sacy

ولذا سارت القوة الحربية والدعوة الدينية جنباً إلى جنب فى تأسيس دولتهم فى مصر .

هذه الدعوة تسمى رسمياً : «الدعوة العلويّة»[١] أو «الدعوة الهادية»[٢]، كان أساسها أن العقيدة الفاطمية هى وحدها الصحيحة ، وأن غيرها تُعتبر مزيفة ، فالدعوة إذاً وسيلة لنشر الدين الصحيح .

وليس فى نيتنا أن نبحث الناحية المذهبية البحتة للعقيدة الفاطمية أو الدخول فى تفاصيل مبادئها الفلسفية ، لأن ذلك يخرج بنا عن نطاق موضوعنا، ولكن لما كان الجانب السياسى والجانب الدينى متصلين اتصالاً وثيقاً فى بناء كل دولة إسلامية ، وعلى الأخص فى دولة مذهبية كالدولة الفاطمية يا فإننا سنكتفى أن أن نشير هنا إلى الجانب السياسى من هذه الدعوة .

فقد كانت غاية الدعوة الفاطمية تأييد الحكم الفاطمى فى مصر ، حتى يتوطد بطريقة غير قابلة للنقاش حق الإمامة الفاطمية فى حكم العالم الإسلامى[٣] . فمنذ ظهور الفاطميين ، وهم فى صراع ضد العباسيين ، يدافعون بصبر عن حق علىّ المقدس وسلالته فى الخلافة ، ولذلك فإنهم حاربوا أعداءهم المغتصبين، أولاً بالدعوة المستترة أو مايعرف « بالتقية »[٤]، وبعد تأسيس الخلافة الفاطمية فى إفريقية ثم فى مصر ، أصبحت الدعوة علنية وجزءاً لا يتجزأ من نظم الدولة .

ولما كانت الإمامة عماد كل نظام سياسى ، وقاعدة أقيم على أساسها بناء المذهب الفاطمى ، فإن الدعوة وجهت كل عنايتهـــا نحو تأييد حقها المطلق

---

(١) السجلات المستنصرية : (٥٠) ص ١٦٨ ، (٥٤) ص ١٧٦ .

(٢) نفسه : (٤٦) ص ١٥٨ ؛ الهداية، ص ٧ .

(٣) أنظر . الكتاب : Nasiri Khusrau, p 256

(٤) أنظر . Goldziher : Le dogme, p. 201.

ولذلك لجأت العقيدة الفاطمية إلى تفسير القرآن والأحاديث على تأكيد حقهم في الإمامة ، ويظهر تفسيرهم على حبهم إلى علي وأسرته

فى ولاية أمر المسلمين ، بأن وفقت بين المبادىء الدينية وبين أغراضها ، التى كان محورها الإمام .

ومع أن القرآن مصدر الإسلام الأول ، لا يشير مباشرة أو غير مباشرة للإمامة الفاطمية ، فإن العقيدة الفاطمية لجأت إلى تفسير القرآن ، أو بمعنى آخر إلى المعنى الباطن (التأويل)[١] ، وهذه الكلمة تفعيل من آل يؤول ؛ ففى حالة الشبهة ، فإن الفقيه المؤيد فى الدين (ت ٤٧٠/١٠٨٧) ، يرى أنه يجب أن يرجع إلى التأويل فى القرآن[٢] . ويضيف إلى ذلك ، أن سلالة علىّ ، خلفاء الرسول ، يملكون وحدهم هذا التأويل ؛ فقد قال الرسول : « أنا صاحب التنزيل وعلىّ صاحب التأويل »[٣] ؛ فكان القرآن إذاً بالنسبة للدعوة معيناً لا ينضب ؛ فكل كلمة لها معنى واضح ، ولها أيضاً معنى باطن ، ودلالة مقصودة[٤] . وعلى الرغم من أن المعنى الباطن ظهر عند فرق أخرى ، مثل فرقة إخوان الصفاء ،[٥] فإن الفاطميين أعطوه مظهراً فلسفياً ، وكيفوه وفق أغراضهم السياسية .

فعند الشيعة ، كان تفسير المعنى الباطن للنصوص القرآنية أشبه بمعجزة الإمام ، فينسب الشيعة إلى الأئمة القدرة على إظهار المعنى الصحيح ؛ فكان الأئمة دون سائر الناس لهم سلطة تفسير النصوص القرآنية ، بسبب معارفهم الخاصة التى يتوارثونها فى كتب أجدادهم[٦] ، فالإمامة ضرورية لمعرفة مبادىء الدين الصحيحة[٧] .

فكانت ، الدعوة ، التى تتكون من تأويل سور القرآن المختلفة ، لا تعنى فى

---

(١) تاج العقائد ، ص ٤٧ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ١١ — ١٢ .

(٢) المؤيد ، سيرة ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٧ .

(٣) نفسه .

(٤) تاج العقائد ، ص ٤٧ .

(٥) ابن عبد الله ، إخوان الصفاء ، زنزبار ١٣٠٦ هـ ، ١ ، ص ٦١ .

(٦) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ١٦٨ .

(٧) تاج العقائد ، ص ٤٢ .

نظر الشيعة إلا الحب لعلىّ وأسرته[١]، والحقد المقيت لأعدائه؛ وحتى الأحاديث النبوية خضعت هى الأخرى للتفسير الباطن، لتؤدى نفس الغرض.

ونستطيع أن نميّز نوعين من الدعوة، إحداهما علنية، والأخرى سرية.

فالأولى[٢] غير متطرفة، وتتركز فى دراسة وشرح الفقه؛ ففى الدول الإسلامية، وعلى الأخص فى دولة مذهبية، لا ترى انفصالاً بين الشرع والعقيدة. ففى صفر ٣٦٥ / ٩٧٥، أملى علىّ بن النعمان القاضى مختصراً فى الفقه ألفه أبوه بعنوان: « الاقتصار »[٣]. كذلك رتب كثير من القضاة والدعاة، وحتى الوزراء[٤]، دروساً فى الفقه الفاطمى.

وتظهر الدعوة العلنية أيضاً فى عرض المعنى (الظاهر) للعقيدة الفاطمية، وهى تشمل تفسير نصوص القرآن بعيداً عن التعقيد، فإن معركة التفسير الظاهر تتلخص فى تأكيد حق الإمام الفاطمى[٥].

أما الدعوة الثانية فكانت سرية تعرض المعنى (الباطن) للعقيدة، وتكون جوهر الدعوة الفاطمية، وخصوصاً أن المعنى الباطن تحول بسرعة إلى تعقيد شديد فى

---

(١) الغزالى، فضائح الباطنية ص ١١ — ١٢. فمثلا يدل آدم على علىّ، والشيطان على أبى بكر أول خليفة، والكعبة فى مكة على النبى، وبابها على علىّ، والطواف حول الكعبة سبع مرات، على الاعتراف بالأئمة من محمد حتى الإمام السابع... الخ.

(٢) خاصاً بالدعوة الأولى، يقول M. Canard: «إن هذه الدعوة السياسية، التى كانت فى معظم الوقت تهتم بالعقيدة ذاتها، لها مرام خارجية وداخلية. ففى الخارج، كانت ترمى إلى اضعاف قوة العدو على المقاومة، حيث كان الفاطميون يريدون الحلول محله فى السيطرة على العالم، وإلى استمالة رعاياه بالانضمام إليهم، ليقودوا الصراع فى بلاده. وفى الداخل، كانت ترمى إلى إقناع رعاياهم الذين بقوا غير مكترثين أو معادين لهم، وإلى زيادة حماس أنصارهم، وإلى التغنى بقوتهم وعدالة حكمهم؛ وإلى تأييد شرعية مطالبهم، وأنهم مؤيدون من الله فى التغلب على أعدائهم وامتلاك بلادهم؛ وهى آراء يريدون بها أيضاً إفحام عدوهم».
أنظر، Annales de l'Institut d'Etudes orientales, 6, 29 années 1942—1947, p. 157

(٣) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٣٤١ س ٣.

(٤) نفسه، ٢ ص ٣٤١ س ٥.

(٥) المجالس المستنصرية، تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧، أنظر.

مقاصده ، فاختلطت أصول العقيدة بآراء من الفلسفة اليونانية . فكانت هذه الدعوة تشتمل على سبع أو تسع درجات ، دعوة بعد دعوة[1] ، ولم يكن ينتقل إلى الدرجة السادسة فيها ، إلا الدعاة وحدهم ؛ فقد ظهر للفاطميين ميل غير عادى نحو الحياة الغامضة .

ولكن لما حاول الفاطميون الجهر بهذه الدعوة السرية ، ثار الناس وقتلوا القائمين بها[2] ؛ بل كانت الدولة الفاطمية نفسها — أحياناً — تلغى هذه الدعوة ، خشية إثارة السنة من رعاياها ؛ ففى سنة ٥١٦/١١٢٢ ، أقفلت دار الحكمة التى كانت مكلفة بالدعوة السرية[3] ؛ ولم تفتح إلا بعد عام فى ٥١٧ / ١١٢٣ ، لتقوم بنفس الغرض : وذلك فى نشر دعوة الدولة السريه[4]

واجبة الدعاة : لقبه — توليته — مساعدوه — اختصاصاته — مجالس الدعوة — اختباره .

وقد وُجد فى مصر هذان النوعان من الدعوة[5] ، وبلغا أقصى نشاطهما ؛

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٩١ — ٣٩٥ ؛ الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ٦ — ٧ .

(٢) ابن تغرى بردى ، تعليق Popper ، ٢ ص ٦٩ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٦٠ ص ٢٦ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ، ١ ص ٣٩١ ص ١٨ ، ص ٤٠١ ص ١٠ . كانت كلمة « دعوة » ، تستعمل بمعنى « الدعاية » ، لتدل على منصب الداعى ، وأحياناً أخرى لتدل على أنصار المذهب الإسماعيلى . أنظر . The organization of fatimid. : Ivanow propaganda. J. B. B. R. A.S., 15, 1939, p. 18.

فاصبحت القاهرة المركز الدينى للدعوة الفاطمية ، ومقر الداعى الأول : « داعى الدعاة » .

ونظن أن هذا اللقب لم يظهر إلا فى مصر دون أى مكان آخر ، ذلك لأن الداعى الأول فى إفريقية لم يكن إلا « حجة »[١] ، أى الذى له بعض الإشراف على غيره من الدعاة[٢] . كذلك لم يعرف عند العباسيين لقب : « داعى الدعاة » ، مع أنه كانت لهم دعوة مماثلة فى أول حركتهم . وعلى ذلك ، لم يكن لقب داعى الدعاة معروفاً قبل الفاطميين فى أى مكان فى العالم ، كما أنه اختفى بزوالهم .

أضف إلى ذلك أن هذا اللقب لم يظهر فى أوائل عهد الدولة ؛ فقد لقب به لأول مرة ، فى عهد الحاكم ، الخليفة الثالث ، فى صفر ٣٩٣/ديسمبر ١٠٠٢ ، الحسين بن على بن النعمان ؛ فكان أول قاض يتلقب به[٣] .

وكان القائم بالدعوة — مثل غيره من أرباب المناصب — يخضع للسلطة

---

(١) أبو منصور ، كتاب الرشد والهداية ، تحقيق كامل حسين ، ص ١٤ ؛ النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ١٠٤ ؛ انظر . Gateau : Communication sur un dinar, fatimide. Hesperis, 1945, p. 71 . كان « الحجة » ، وهو رئيس الدعوة فى أثناء فترة « ظهور » الأئمة ، يسمى « حاجباً » فى أثناء فترة « الستر » ، التى غاب فيها الأئمة عن الأعين ، فكان « الحاجب » المميز من الإمام كرئيس المذهب ، ويتبرئقة فى المسائل الدينية . أنظر . Ivanow : Ismailis and Qarmatians. J. B.B.R.A.S., 16, 1940, p. 73, note 1

(٢) أطلقت لفظة « داعية » فى أواخر القرن الثالث/التاسع ، فى وقت انتشار الدعوة الفاطمية ، على دعاة المذهب الفاطمى ؛ وهى أطلقت أيضاً على كل من يدعو إلى مبادىء الدعوة الصحيحة ، أو على كل من ينادى بشرعية حق أسرة معينة فى إمامة المسلمين ... الخ . وسابقاً ، كان يطلق على داعية المذهب الإسماعيلى ، حينما كان معلماً أكثر منه داعية ، اسم : « عالم » ؛ وهى كلمة استعملت أيضاً فى المذاهب الأخرى ؛ كما كان المذهب الإسماعيلى نفسه يعرف : « بالتعليمية » . وعلى كل حال ، ليس من شك فى أن لفظة « داعية » كانت تطلق فى الفترة الفاطمية ، على دعاة المذهب الإسماعيلى ، وبالأخص على رئيس الدعوة فى الإقليم ؛ وحتى على دعاة المذاهب الشيعية الأخرى ، كالإمامية . أنظر . Ivanow : The organization, of the fatimid, propaganda. J. B.B.R, A.S, 15, 1939. p. 1—10.

(٣) ولاة ، ص ٥٨٧ ص ٨ . لم يتلقب النعمان بن حيون « بداعى الدعاة » وإنما كان داعية فقط . أنظر . ابن خلكان ، وفيات ، ٢ ص ٢٠٩ .

العليا ، فكان الخليفة يفوض منصب الدعوة إلى شخص يحمل هذا اللقب.[١]
ولكن منذ بدر، كان لوزير التفويض سلطة داعى الدعاة، كما كانت له سلطة قاضى القضاة[٢]، فهو يتلقب فعلاً بلقب: « هادى دعاة المؤمنين »[٣]؛ فكان الوزير يقوم مقام الخليفة ،فى تقليد سجل التولية ، إلى نائب عنه يحمل فقط لقب « داعية »[٤]، ويقوم فى نفس الوقت بولاية الدعوة كلها . ومع ذلك ، كان كتاب التولية يخرج بالضرورة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة ، ولدينا مثل على ذلك ، فى سجل تولية أحد الدعاة ،من قبل الخليفة العاضد[٥]. ومن ناحية أخرى ، كان وزراء التفويض السنيون يتلقبون أيضاً بلقب: «داعى الدعاة»؛ ففى سجل الوزير شيركوه ، وزير العاضد فى ٥٦٤ / ١١٦٩ ، نجد هذا اللقب مذكوراً مع لقب : « كافل قضاة المسلمين »[٦]. أما فى حالة ما إذا كان وزير التفويض نصرانياً ، وهذا لم يحدث إلا فى عهد الخليفة الحافظ، فإن الوزير بهرام لم يتلقب بلقب : « هادى دعاة المؤمنين » ولا بلقب : « قاضى قضاة المسلمين »[٧]؛ فكان الخليفة بنفسه يولى داعى الدعاة منصبه .

ولقد كان على داعى الدعاة أن يشرف على الدعوة ليس فقط فى مصر ، ولكن أيضاً فى جميع أنحاء العالم، ولذلك كان عليه أن يعين الدعاة فى كل إقليم، وفى

---

(١) صبح ، ١٠ ص ٤٣٤ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٠٤ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣٨٢ س ١٧ ، ٤٤٠ س ١٠ ؛ السجلات المستنصرية : (١٥) ، (١٦) ؛ (١٨) ، (٢٠) ، (٣٢) ... الخ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٨٢ س ١٧ ، ٤٤٠ س ١٠

(٥) صبح ، ١٠ ص ٤٣٤ — ٤٣٩ .

(٦) أبو الفدا : (أنظر . Rec.des Hist. des Crois) ، ١ ص ٤١ ؛ صبح ، ١٠ ص ٦ ؛ المقريزى ، الخطط، ١ ص ٣٩١ س ١٨ .

(٧) ابن ميسر ، ص ٧١ .

كل ولاية ، وبخاصة فى بلاد الأعداء . فكان ميدان نشاط الدعاة ينقسم إلى أقاليم ، تسمى : « جزائر » جمع « جزيرة »[١] ، وهى كلمة فى الفترة الفاطمية كانت تُطلق أيضاً على أتباع المذهب من الشيعة الإسماعيلية فى الأقاليم البعيدة عن نفوذ دولتهم ؛ فكان العالم يُقسَّم – بحسب قول ناصر خسرو[٢] – إلى اثنتى عشرة جزيرة . ونحن لا نعرف أسماء جميع هذه الجزائر ، ولكن الخليفة المستنصر فى إحدى سجلاته يعد من بينها : الهند واليمن وعمان[٣] .

وقد كان على داعى الدعاة أن يختار دعاته ليكونوا بمثابة نواب عنه فى الأقاليم على نسق نواب قاضى القضاة ، غير أنهم كانوا على طبقات ، ومع ذلك ، فإنهم ليسوا بهيئة كهنوتية ، ولكن جماعة من الموظفين استخدمهم الدولة ، لتعريف الناس بالعقائد الشيعية . فكان هؤلاء الدعاة يُختارون – عادة – من بين الأجانب ، لأن معظم المصريين آنذاك ، لم يكونوا من الشيعة ، كما هو الحال دائماً فى كل وقت ؛ وذلك على عكس موظفى الدواوين الذين كانوا يختارون من بين المصريين

ومن ناحية أخرى ، كان داعى الدعاة يُختار من أعوانه هيئة تتكون من اثنى عشر « نقيباً »[٤] ، لعلهم كانوا أعلى درجة من غيرهم ، أو كانوا تحت إشرافه

---

(١) النعمان ، المجالس ٢٠ ورقة ٤٣ ؛ السجلات المستنصرية : (٤) و (١٠) ؛ انظر . Ivanow: The Rise of the Fatimids, p. 20

(٢) الخشاب : Nasiri Khusrau, p.142 ؛ أنظر . Ivanow: The organization of the fatimid Propoganda J.B.B.R. A. S. 15. 1939, p. 10.

(٣) السجلات المستنصرية : (٥٠) ص ١٦٨ ، (٥٤) ص ١٧٧ ، (٦٣) ص ٢٠٥ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٩١ س ٦ ؛ أبو منصور ، كتاب الرشد والهداية ، ص ١٤ . كان عدد نواب الدعوة العباسية اثنى عشر ، وكانوا يسمون أيضاً : « النقباء » . وكذلك كان دعاة القرامطة يسمون هكذا . أنظر . المسعودى ، مروج الذهب ، تحقيق وترجمة Barbier de Meynard ، باريس ، ١٨٦١ ، ٥ ، ص ٨٩ ؛ DeGoeje: Carmathes p.27 . لعل إختيار العدد اثنى عشر على نسق الاثنى عشر نقيباً من بنى إسرائيل المذكورين فى القرآن (أنظر . سورة ٥ آية ١٢) ، أو عدد الأثنى عشر رجلاً من الأوس والخزرج ، الذين عاهدوا النبى على الولاء فى العقبة . أنظر . الطبرى : Annales, I, 1221 ؛ Ca: ard: Histoire de la dynastie abbasside, trad, p. 214 . أو اثنى عشر حرفاً ، المكونة منها عبارة بسم الله الرحمن الرحيم . أنظر . Guyard: Frag, p. 30

أو لعلهم كانوا رؤساء الدعاة في جزائر الدعوة

مباشرة[1]؛ أو لعلهم كانوا رؤساء الدعاة فى جزائر الدعوة . وترجع نشأة هذه الهيئة الشيعية البحتة ، فى مصر — على حسب قول المقريزى — إلى يهودى قديم، هو الوزير ابن كلس (ت ٣٨٠/٩٩١)، الذى أقام فى الجامع الأزهر فى ٣٧٨/٩٨٨، خمسة وثلاثين رجلاً يكلفون بعقد مجالس الدعوة، وتكفيهم الدولة أرزاقهم[2]. ويلوح أن داعى الدعاة كان يختار نقباء الدعوة من بين هؤلاء المتعلمين على نفقة الدولة.

وكان عمل داعى الدعاة الأساسى الدعوة التثقيفية والتعليمية على الأخص بين موظفى الدولة[3]، الذين كانوا — على ما نظن — جميعهم من مستجيبى المذهب؛ وهى ثقافة كانت تمتد إلى عامة الناس وتشمل النساء أيضاً. كذلك كان على داعى الدعاة تثقيف هيئة الدعاة، وبذل كل عناية فى إعدادهم، فعلى عاتقهم يتوقف نجاح الدعوة الفاطمية .

ولكى يعمل على بث المبادىء الشيعية: سياسية ودينية، كان داعى الدعاة يدعو إلى مصر، من بلاد الأعداء، رجالاً معروفين[4]، لحضور مجالس الدعوة التى يلقيها بنفسه؛ وكان الغرض من ذلك جعلهم دعاة للعقيدة الفاطمية فى بلادهم، وأدوات طيعة

---

(١) ليس من السهل تتبع أسماء طبقات الدعاة عند الإسماعيلية ، لأن النصوص عنها غامضة . وبالرغم من ذلك ، فإنا نعرف تدرجهم الطبقى الذى يبدأ (بالله) ، ثم بالرسول (الناطق) ، ومن بعده الأساس (وهو الصامت أو الوصى وهو على)، والإمام، وأخيراً الدعاة. فنذكر من هؤلاء : الباب ، والحجة ، والحجاب ، والنقيب(ولعلهم الرؤساء) . وبعد هؤلاء تأتى طبقة من الدعاة الأكابر : داعى البلاغ، والداعى المطلق، والداعى المحصور، والمأذون، والمكاسر . وكذلك يوجد نوعان من الأتباع : « المؤمن » ، وهو عكس « المسلم »، و « المستجيب » أى المنتسب إلى المذهب . أنظر .
The organization of the fatimid Propaganda. J.B.B.R.S: Ivanow 5, 1939, p.10.

(٢) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٤٣١ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣٩١ ص ٢٠ — ٢٣ .

(٤) وصل ناصر خسرو مصر فى ٤٣٧ / ١٠٤٥ ، ووصل الحسن بن الصباح فى ٤٧١/ ١٠٧٨. أنظر . Ency de l'Islam, 3, p. 929—930; 2, p.293

لخدمة أغراض السياسة الفاطمية العالمية، وإن كانوا فى نفس الوقت من الشيعة المخلصين.

وإذا صدقنا المقريزى، فقد كان على داعى الدعاة أن ينظم باستمرار مجالس الدعوة، فيخصص يوم الأحد للرجال، ويوم الأربعاء للنساء، ويوم الثلاثاء للأشراف وذوى الأقدار[1]. وإنا نظن أن مثل هذه الدعوة الواسعة لتحتاج إلى عقد مجالسها كل يوم لتعليم وتثقيف هذا العدد الكبير من الموظفين ورجال الدولة، وحتى عامة الناس.

وكانت الدعوة تقرأ فى أماكن متعددة: فى الجامع الأزهر[2]، وهو أول مكان للدعوة أنشأه الفاطميون بعد دخولهم مصر فى ٣٥٩/٩٦٩، وتم بناؤه فى عهد العزيز فى رمضان ٣٦١/٩٧٣، وفى «دار الحكمة» أو «دار العلم»[3]، وهى أضيفت لجامعة الأزهر، وفتحت أبوابها فى عهد الحاكم فى ٣٩٥/١٠٠٥، وفى مكانين آخرين فى القصر: واحد للرجال فى القاعة الكبيرة ذات الأعمدة: «الإيوان»، والثانى للنساء فى مجلس الداعى المسمى: «المحوّل»[4]، وهو أعظم المبانى وأوسعها، حسب قول المقريزى.

وكانت المحاضرات المقروءة تسمى: «مجالس الحكمة»[5] أو «مجالس الدعوة»[6]، وتلقى تحت إشراف الإمام نفسه؛ فقبل قراءتها، كان داعى الدعاة يتلوها عليه إن أمكن، ويأخذ علامته بظاهرها، كدليل قبوله. فكان

(١) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٣٤٢ س ١ — ٢؛ انظر. Druzes, Introd, ccxx.: De Sacy

كان يسمى فى بداية الأمر بجامع القاهرة، أما اسم الجامع الأزهر، فلم يطلق إلا منذ أيام العزيز، وربما بعد إنشائه القصور الزاهرة، تيمناً باسم فاطمة ابنة الرسول.

(٢) المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٧.

(٣) نفسه، ١ ص ٤٥٨ — ٤٦٠، ٢ ص ٣٤٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، طبعة القاهرة، ٤ ص ٢٢٢.

(٤) المقريزى الخطط، ١ ص ٣٩٠؛ انظر. Chrest, I, p 139. : De Sacy

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٣٩١ س ٨، ٢٦.

(٦) نفسه.

داعى الدعاة، والمؤمنون يتحلّقون حوله ، يتلو هذه المجالس وهو جالس على كرسى الدعوة[١] ، وهو أشبه بالمنبر .

ولم تكن هذه المجالس — وهى تعرض على الأخص لنواحى العقيدة الظاهرة أو السرية — مجرد تلاوة ، بل كان من الممكن خلالها ، إلقاء الأسئلة[٢] ، والمطالبة بإجابات عن المسائل العويصة .

وكان كبيرة الدعاة — فى هذه المجالس — يستعمل سحره وبيانه ، ويبذل قصارى جهده فى حض المستمعين على حب الأئمة ؛ حتى أن ناصر خسرو يسمح باستعمال المكر[٣] ، ولم يتردد فى مقارنة الدعوة بالحرب المقدسة. فإذا فرغ داعى الدعاة من كلامه تزاحم الناس عليه وقبلوا يديه ؛ فكان من ناحيته يمسح على رءوسهم ، بمكان العلامة ، حيث وضع الخليفة خطه[٤] .

وفى هذه المحاضرات الدينية ، كان داعى الدعاة يأخذ (العهد)[٥] ، على المستجيبين للدعوة ،وهو ميثاق الطاعة للمذهب الفاطمى ،ومؤداه: ستر المستجيب لكل ماسمعه، وألا يقدم أية مساعدة إلى أعداء الفاطميين، وألا يقول إلا الصدق على الدعوة ، وألا يتفق مع أعدائهم .

ونضيف إلى ذلك أنه كان من عمل داعى الدعاة ومساعديه أيضاً جمع مال الدعوة ؛ حقاً إن الدولة الفاطمية كانت تتكفل بنفقة الدعوة ، إلا أنها كانت تلجأ إلى مصادر إختيارية يدفعها المؤمنون ، كرمز على الطاعة للمذهب الشيعى ؛ فكانت هذه المصادر المالية تأتى بمبالغ طائلة ، يحملها داعى الدعاة

(١) نفسه ، ١ ص ٣٩١ س ١٠ .
(٢) الكتاب : Nasiri Khusrau, p. 93–94.
(٣) نفسه ، ص ١٤٦ .
(٤) الخطط ، ١ ص ٣٩١ س ١١ و ١٢ .
(٥) نفسه ، ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

للخليفة بيده ، بينه وبينه ، لوضعها أولاً بأول فى بيت المال[١].

وكانت هذه الأموال التى يدفعها جميع المؤمنين ، إناثاً وذكوراً ، تجمع من جميع البلاد ؛ فالمستنصر ، فى سجل وجهه إلى الداعى الصليحى ، يقترح أن تكون هذه الأموال بمثابة ضرائب إجبارية[٢] ، وأن تجبى من المؤمنين فى البلاد ، وأن يكون الداعى هو المسئول عن جبايتها .

ونستطيع أن نميّز نوعين من مال الدعوة : أولاً «النجوى» أو «النجاوى» ، التى ذكرت عدة مرات فى سجلات المستنصر[٣] ، وهى ضريبة مالية يدفعها على الأخص المنضمون للمذهب الشيعى من الرجال والنساء[٤] ؛ ويلوح أن كلمة «النجوى» تعنى «السر» ؛ كانت الدليل المادى على قبول الأتباع التستر على عقائد الفاطميين ، وهى تبلغ ثلاثة دراهم وثلث ، ولكن أغنياء الشيعة كانوا يدفعون ثلاثة وثلاثين درهماً[٥] ؛ فكان من يدفع هذا المبلغ الأخير ، يتميّز فى مجلس الداعى ، ويخرج له بخط الخليفة ورقة مكتوب عليها الجملة الآتية : «بارك الله فيك ، وفى مالك ، وولدك ، ودينك»[٦] . وكانت توجد ضريبة ثانية ، هى : «الفطرة»[٧] ، — وهى أيضاً من مال الدعوة — وسميت هكذا لأنها كانت تدفع فى مناسبة عيد الفطر .

مما سبق ، كان من الضرورى إذاً أن يكون داعى الدعاة بسبب دوره

---

(١) نفسه ، ١ ص ٣٩١ س ١٤ .
(٢) السجلات المستنصرية : (٢٣) ، (٣٦) ، (٥٧) .
(٣) نفسه : (٢٣) ، (٣٦) ، (٥٧) .
(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٩١ س ٢٥ .
(٥) نفسه ، ١ ص ٣٩١ س ٤ .
(٦) نفسه .
(٧) السجلات المستنصرية : (٢٣) ، (٥٧) .

الدينى ، عالماً بجميع مذاهب أهل بيت النبى ، وعارفاً بأسرار العقيدة[١] ؛ فكان لا يختار إلا من الرجال الماهرين ، أصحاب البلاغة ، المطبوعين على التفكير العالى ، ذوى الذكاء الحاد ، والعارفين لقواعد الدين والنظريات السياسية[٢] . فيقول ناصر خسرو[٣] ، عند الكلام على داعى الدعاة المؤيد : « هو الأستاذ ، هو الطبيب » ، ويقول أيضاً : « إنه الطبيب وأفلاطون خادمه » .

ولهذا كان منصب الدعوة يوكل غالباً إلى أشخاص يختارون من بين أسر معروفة ، نذكر على سبيل المثال : أسرة النعمان[٤] ، وأسرة بنى عبد القوى ، التى كانت تتولى الدعوة أباً عن جد[٥] .

---

(١) المقريزى . الخطط ، ١ ص ٣٩١ س ٥ ؛ النعمان ، كتاب الهمة ، ٢ ص ١٣٣ .

(٢) أنظر . De Coeje : Mém. sur les Qarmates, p. 2.

(٣) الخشاب : Nasiri Khusrau, p. 91—2 . جاء هبة الله بن موسى ، المعروف بالمؤيد (ت ٤٧٠ / ١٠٨٣) من شيراز إلى مصر فى عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤) ، وهو من نسل سلمان الفارسى . وقد أوردنا جدولا بمؤلفاته .

(٤) كان نفوذ هذه الأسرة كبيراً ، وأفرادها من المتبحرين فى العلوم الفاطمية . فكان النعمان بن حيون (ت ٣٦٣ / ٩٧٣) ، جد هذه الأسرة ، يعتبر من أكابر علماء الفقه الإسماعيلى فى عصره ، ومع ذلك لم يعرف إلا بلقب داعية فقط ، وهو يُعتبر من دون شك من أهم وجوه الدعوة الفاطمية (أنظر . ابن خلكان ، وفيات ، ٢ ص ٢١٩) . فنحن ندين له بأهم المؤلفات الفاطمية فى العقيدة والتشريع . أنظر . Ivanow : The Guide, p. 37—40 . وزيادة على ذلك ؛ وصل اثنان من سلالته إلى رتبة داعى الدعاة وهما : الحسين بن على ابن النعمان ، وكان أول من لقب بهذا اللقب (أنظر . ولاة ، ص ٥٩٧) ، والقاسم بن عبد العزيز (نفسه ، ص ٦١٣) . أنظر . Encyc de l' Islam, 3, p. 1019—1020 ; Fyzee : Qadi, Numan the fatimid Jurist and author. J.R.A.S. Jan 1934 ; ترجمة ، ١ ص ٣٧٠ ; Gottheil : A distinguished family. Die Renaissance of fatimid cadis, J.A.Q.S. 1906, p 217 sq.

(٥) قام أفراد كثيرون من أسرة بنى عبد القوى ، مثل أسرة النعمان ، بالدعوة الفاطمية . وكان أهمهم فى الدولة الفاطمية عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ، المعروف بابن الجليس . آخر الدعاة ؛ تولى القضاء مع الدعوة . وقد حاول ابن الجليس بالاتفاق مع الشاعر عمارة وغيره التآمر على الدولة الأيوبية وإعادة الفاطميين إلى الحكم ، ولكن واحداً من المدبرين أفشى سرهم . واستبقى ابن الجليس من الموت حتى يمكن أن تعرف منه أسرار القصر التى كان عليماً بها . أنظر . المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٩١ ؛ ابن حجر ، رفع ، ورقة ١٣٨ .

كذلك كان داعى الدعاة يحتل مكانة عالية بين أرباب الوظائف الكبار فى مصر وأرجاء الخلافة ؛ فقد كانت رتبته تلى مباشرة رتبة قاضى القضاة[١]؛ وكان يستلم مثله مرتباً قدره مائة دينار فى الشهر[٢] ، وكان يتلقب بألقاب فخمة، ويُخاطب على الأخص بهذه العبارة: «الشيخ الأجل»[٣]؛ وأخيراً كان من حقه الركوب فى المواكب بالطبل والبوق والبنود ، على شرط أن يلى فى نفس الوقت القضاء، الذى كثيراً ما كان يُضاف إليه بسبب علو كعبه فى أمور الدين.

فكان داعى الدعاة زعيماً دينياً وروحياً، له سلطة غير محدودة على جميع مسائل الدولة السياسية والدينية .

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٨٧: المقريزى ، الخطط ، ١ ص٣٩١؛ انظر Sefer Nameh trad, Schefer, p. 160

(٢) صبح ، ٣ ص ٥٢٦ .

(٣) السجلات المستنصرية : (٦١) ص ٢٠٢ .

الفصل الخامس

النظم الحربية

الجيش والأسطول

في هذا الفصل نعرض للنظام الحربي والبحري : وهما يتميزان عن النظم الديوانية والدينية ؛ تميزاً ذكره جميع مؤرخي الدولة الفاطمية في مصر .

الجيش : دواوينه — تكوينه — عدده — معسكراته — الجيش والحرب : قيادته — خروجه — أسلحته — خيامه — دوابه — سروجه — راياته — الخطط الحربية — عودته .

كان الجيش ، في أيام قوة الفاطميين ، من أقوى الجيوش التي وطئت مصر بعد جيش الإسكندر المقدوني[1] ؛ ففي عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ، عرفت مصر جيوشاً قوية وافرة العدد ، ولكن أمراء هاتين الدولتين كانوا شبه مستقلين ، ، فلم تكن جيوشهم في قوة الجيش الفاطمي ، الذي كان خلفاؤه الفاطميون مستقلين ؛ استقلالاً تاماً ، ومنافسين لخلفاء بغداد .

وقد كان الإبقاء على جيش قوي في وقت السلم كما في وقت الحرب يتطلب من الدولة الإنفاق عليه ؛ فكانت هناك دواوين خاصة تقوم بتنظيم النفقة

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ١ ص ٩٤ س ٢٧ — ٣٠ ؛ انظر Bouriant, p. 270.

وإعداد الجيش[١]، تشبه دواوين الجيش فى الدولة الإسلامية الأخرى . وقد جعل القلقشندى[٢] هذه الدواوين ضمن دواوين أرباب الأقلام: ديوانية ودينية؛ فكان يعمل فيها الموظفون من أرباب الأقلام، وليس من أرباب السيوف؛ وهى ثلاثة :

١ — « ديوان الجيش »، ويشرف على الجنود وأعدادهم، وتظهر أهميته من كثرة عدد الجيش الفاطمى، على الأخص فى أوائل عهد الدولة[٣].

٢ — « ديوان الرواتب »، ويختص بتسجيل « عطاءات » الجنود وجميع موظفى الدولة، حيث كان جزء كبير من الدخل ينفق على الجيش . فكان الديوان يشمل أسماء المرتزقين من الجنود ومن استجدمنهم أو من مات دون أن يشتمل على أسماء المتطوعة أو البدو وهى عناصر طارئة على الجيش . فيروى المقريزى[٤] أن عدة العساكر المدرجين فى الديوان، فى أواخر أيام الدولة؛ وصل إلى أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل . وهذا العطاء تغير عدة مرات فى عهد الدولة الفاطمية، وكان يتناسب مع درجة كل جندى[٥] . ويروى ناصر خسرو[٦] أن عطاء كل جندى فى عهد المستنصر، بلغ عشرين ديناراً فى كل شهر .

٣ — « ديوان الإقطاع »، ويختص عندهم بما هو مقطع للأجناد حيث كانت الدولة تقوم بمنح الإقطاعات التى تصحب عادة « بسجل » — وهى كلمة جارية الاستعمال فى ذلك العصر[٧] — إلى الأجناد لقاء قيامهم بالواجبات

---

(١) صبح، ٣ ص ٤٩٢ — ٣ .
(٢) نفسه .
(٣) المقريزى، الخطط، ١ ص ٩٤ س ٢٧ — ٣٠ .
(٤) نفسه، ١ ص ٨٦ س ١٣ ؛ انظر . Bouriant, p.246.14-15.
(٥) انظر . Sefer Nameh, p.119
(٦) نفسه، ص ٣٦٢ .
(٧) صبح، ١٣ ص ١٣٢ .

العسكرية. وهذه الإقطاعات — حسب قول المقريزى — لم تكن من الكثرة كما كانت فى عهد الدول التى تلت الفاطميين، وعلى الأخص المماليك[١].

ونظن أنه كان بجانب هذه الدواوين الثلاثة للجيش، دواوين أخرى عديدة فى الأماكن التى يجتمع فيها الأجناد، لتمكين الإدارة الحربية من أن تواجه ما يحتاج إليه الجيش فى طول الخلافة وعرضها.

وكان الجيش الفاطمى يماثل فى تكوينه جيوش الدول الأخرى، غير أنه كان له طابع خاص به، نقلته عنه جيوش الدول التى أتت بعد الفاطميين.

فكان قائد الجيش يسمى فى ذلك العصر: «أسْفَهسلار العسكر»، وترجمتها الحرفية: قائد الجيش، أو فقط: «أسْفَهسلار» أى قائد، كما تسمى وظيفته: «الأسْفَهسلارية»،[٢] أى قيادة العسكر. وينسب إليه القلقشندى سلطة غير محدودة على الجيش، ولكنا نظن أنه لم يكن له إلا القيادة الحربية، أما أمور الإدارة العسكرية فلم تكن من إختصاصه. وقد كان «الأسْفَهسلار» يحتل مركزاً هائلاً فى الدولة الفاطمية، فهو يأتى فى ترتيبه مباشرة بعد «صاحب الباب»[٣]، الذى يلى الوزير رأساً؛ فكان الخليفة بنفسه يوليه منصبه، ولكن منذ بدر أصبح وزراء السيف — بسبب سلطتهم العامة — يحملون لقب: «أمير الجيوش»، فكانوا يعينون قائد الجيش من قبلهم. وقد بلغت سلطة وزراء السيف على الجيش أقصاها، فى أواخر الدولة الفاطمية، فتلقب شيركوه بلقب:

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ٨٥ س ٣٥ — ٣٧؛ انظر .Bouriant, p.245.10.13

(٢) صبح، ٣ ص ٤٨٣؛ عمارة، النكت، تحقيق Derenbourg، ١ ص ٦٩.
هذه كلمة فارسية، مشتقة من سباه سالار.

(٣) صبح، ٣ ص ٤٨٣.

« سلطان الجيوش »[١]، وكان لقب سلطان وقتئذ وقفاً على السلطة العليا.

وكان للجيش قواد من الأمراء يتميز بعضهم عن بعض بعلامات[٢] يحملونها في الأعياد الرسمية، أما في ساحة القتال، فإنهم كانوا يختلفون على مايظهر، بحسب عدد الأجناد التي تحت قيادتهم، فتميز منهم :

١ — الأمراء الكبار، ويتحلون بأطواق في أعناقهم ويسمون: « الأمراء المطوقين »[٣]؛ وهم بمثابة الأمراء المقدمين في العصر المملوكي، ويقود كل منهم ألف جندي.

٢ — أصحاب القصب[٤]، وهم يركبون في مواكب الخليفة حاملين في أيديهم قضب الفضة، وهي رماح[٥] فضية يخرجها لهم الخليفة من « خزانة التجمل »؛ وهم بمثابة أمراء الطبلخانة في العصر المملوكي، ويقود كل منهم مائة جندي.

٣ — أدوان الأمراء[٦]، وليس لهم الحق في حمل هذه الرماح، ولكنهم ولا ريب، كانوا يحملون سلاحاً من نوع آخر أقل قيمة؛ وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات، في العصر المملوكي

وليس لدينا معلومات وافية عن جنود الجيش الفاطمي، وهم يسمون تارة: « أجناداً »[٧]؛ وتارة: « عسكراً »[٨]. ولقد كان المبدأ السائد في تنظيم الجيوش

---

(١) أبو الفداء (أنظر . Rec. des Hist. Croisaues) ٢ ص ٤١ .

(٢) صبح ٣ ص ٤٨٠ ؛ الخطط ١ ص ٤٠٣ .

(٣) نفسه ؛ نفسه

(٤) نفسه ؛ نفسه .

(٥) أنظر Schwarzlose, p. 178 ؛ Inostrantsev, p. 40 وبعده .

(٦) صبح ٣ ص ٤٨٠ .

(٧) صبح ٣ ص ٤٨٣ ؛ المقريزي ؛ الخطط ٢ ص ٢٠٢ س ١٧ — ١٨ ، ص ٢٠٤ س ٢٣ .

(٨) السجلات المستنصرية : (١٥) ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، (٢٢) ص ٧٥ ، (٣٠) ص ٩٤ ؛ المقريزي ؛ الخطط ١ ص ٩١ س ٣٤ ، ص ٤٥٠ س ٧ .

وقتذاك — كما يرى نظام الملك (ت ٤٨٥/١٠٩٢)، وهو وزير وكاتب شهير في عصره [1] — أنه من المخاطرة أن يعتمد الأمير في جيشه على رجال جميعهم من جنس واحد، فهؤلاء ينعدم التنافس من بينهم في خدمته، ولذلك كان من الأفضل أن يتكون جيشه من أجناد من جميع الأجناس والقبائل في مملكته. وقد سار الفاطميون على هذا المبدأ في تكوين جيشهم، فاستخدموا عناصر مختلفة وأجناساً متنوعة، غير معروفة في مصر حتى ذلك الوقت. كذلك صادف جيشهم تغييرات [illegible] خلال حكمهم، تقلب فيها خلفاء كثيرون، وحتى وزراء سيف.

في أوائل عهد الدولة في مصر، كان الخلفاء الفاطميون يستمدون قوتهم الحربية من عنصرين أساسيين: العنصر المغربي من ناحية، والعنصر الشرقي من ناحية أخرى [2].

«فالمغاربة» وهم من البربر، سموا باسم إقليمهم الذي أتوا منه، وهو: «المغرب»، لتمييزهم عن العنصر الشرقي، الذي اتخذ اسم: «المشارقة». وقد كان المعز، وهو الخليفة الذي غزا مصر، يقربهم على حساب عناصر الجيش الأخرى [3]؛ فكانوا يكونون غالبية عظمى في جيشه. وقد وصلتنا أسماء عدة قبائل مغربية، تميز من بينها على الأخص طوائف [4]: الكتامية [5]، والباطلية [6]، والمصامدة [7]؛

---

(١) أنظر Siasset Nameh, trad. Schefer. p.135.

(٢) السجلات المستنصرية: (٥٦) ص ١٨٣.

(٣) ابن إياس، بدائع، ٢ ص ٤٤٦؛ أنظر. علي مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ٦.

(٤) السجلات المستنصرية: (٥٦)؛ صبح، ٣ ص ٤٨٢، ٤٨١: ٤؛ المقريزي، الخطط، ٢ ص ٩١ ص ٣٤؛ ٤٥: ص ١ — ٧

(٥) وصل الكتاميون من القيروان مع المعز، وهم طائفة هامة من العسكر. أنظر. Sefer Nameh, trad. Schefer p. 138.

(٦) وهم من المغاربة، وصلوا مصر قبل مجيء المعز إليها، واسم الباطلية أطلق على طائفة العسكر التي جاءت، أثناء تأسيس القاهرة، تطلب أرضاً لإنشاء حارتها عليها، فقيل لهم إنها وزعت جميعاً، فقالوا: «رحنا بالباطل»؛ فعرفوا بهذا الاسم، وسميت به الحارة التي سكنوا فيها: أنظر. Sefer Nameh, p. 124 138؛ المقريزي، الخطط، ٢ ص ٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤ ص ٦ [illegible]؛ Ravisse. Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Maq, 1ère partie, M.M.A.F, tome 1. Paris, 1889, p.425.

(٧) [illegible] أصلهم من بلاد المغرب [illegible] الأطلسي. أنظر: Ency. de l'Islam, 3, p. 448-452; Colin; Sefer Nameh, p. 124; 138.

والجودرية[١]، وغيرها من القبائل[٢].

أما المشارقة[٣]، وهم عناصر من الترك والديلم، أدخلت فى جيش الخليفة العزيز[٤]، لموازنة نفوذ البربر، الذى لم ينقص حقاً إلا فى عهد الخليفة الحاكم، على يد وسيطه برجوان[٥]، عدو البربر الرهيب، الذى حرض الخليفة ضدهم.

وغير المغاربة والمشارقة طوائف أخرى فى الجيش الفاطمى، تحمل طابع الدولة؛ فقد شرع الخلفاء الفاطميون — من يوم مجيئهم مصر — فى تكوين طوائف من العسكر، تكون فى قبضة يدهم وفى غاية الإخلاص لهم. ولتكوين هذا

---

(١) سموا على اسم قائدهم جوذر الذى كان فى خدمة جميع الخلفاء الفاطميين بالمغرب، من المهدى حتى المعز. أنظر. Sefer Nameh, p 145؛ منصور الكاتب، سيرة جوذر، ورقة ٣؛ المقريزى، الخطط، ٢ ص ٥؛ انظر. Inostrantsev, p. 88

(٢) مثل قبيلة زويلة، التى جاءت من المغرب مع جوهر. (أنظر. المقريزى، الخطط ٢ ص ٤ و ٢١)؛ وقبيلة صنهاجة، التى جاءت أيضاً من المغرب (أنظر. نفسه، ٢ ص ٢١).

(٣) أنظر TheStory ofCairo,p.146:Lane-Poole:SeferNameh,p.138 لعل الطائفة المسماة: « الشرابية »؛ سميت على اسم القائد التركى افتكين الشرابى الذى عمل — فى الواقع — على إدخال عنصر المشارقة: (الترك والديلم)، فى الجيش الفاطمى فى عهد الخليفة العزيز؟ (أنظر. المقريزى، الخطط، ٢ ص ٨، ١٦، ٢١ ص ١٣)، أو لعلها سميت بهذا الاسم لأنها كانت تحمل مؤونة الماء (الشراب) إلى العسكر فى الحملات الحربية. (أنظر. Ravasse,, Essai, 1, p. 425, note 3).

(٤) يحيى الأنطاكى، ص ٣٩١؛ المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٥؛ انظر. مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ١٠.

(٥) يحيى الأنطاكى، ص ٤٠٣؛ المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٨٥. فى القاهرة حارة منسوبة إلى برجوان، كانت تسكنها طوائف من العسكر الفاطمى، لعلها من المشارقة، أنظر. الخطط، ٢ ص ٣.

الجيش الخاص، شرط المعز[١] على ولاة الأعمال، البحث عمن يظهرون مهارة حربية قبل أوانها من بين أولاد الناس، وأفرد المعز لهم «حُجراً» في قصره يعلمون فيها الفنون الحربية؛ وسماهم بسبب سكناهم في هذه الحجر باسم: «صبيان الحجر» أو «غلمان الحجر»[٢]؛ ويجعل المقريزي هذه الحجر في القاهرة، بجوار دار الوزارة[٣]، قريباً من باب النصر[٤]. فكانت هذه الطوائف من المجندين نواة النظام الحربي الأيوبي والمملوكي، وكانت البيوت التي يقال لها: «الطباق»[٥]، وهي معسكرات غلمان سلاطين المماليك، تشبه إلى حد كبير حجر هؤلاء الصبيان. ومن المحتمل أيضاً أن هذه الطائفة التي كان معظمها من بين أولاد

---

(١) نفسه، ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤؛ انظر. Chrest, 2, p. 96 : de Sacy

(٢) المقريزي، الخطط، ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤؛ انظر. Suppl, I, p. 252-253 : Dozy يستعمل القلقشندي لفظة «حجرية»، ولا يستعمل أبداً لفظة «صبيان الحجر»، فلعله أراد بهذا أن يبين أن «الحجرية» فرقة في الجيش على شاكلة «الآمرية» و «الحافظية»، على اسمي الآمر والحافظ، من خلفاء الفاطميين في مصر، والتي يطلق عليها جميعاً اسم: «طوائف العساكر». وعلى العكس، يسمي القلقشندي «المصامدة» وغيرها من فرق الجيش: «طوائف الرجال». فهل معنى ذلك أن «طوائف العساكر» كانت خاضعة لنظام حربي أكثر دقة من «طوائف الرجال»؟ (أنظر. صبح، ٣ ص ٥٠٨). ومن ناحية أخرى، كان يوجد في بغداد في الجيش العباسي، طوائف «الحجرية». أنظر. ابن مسكويه، تجارب الأمم، تحقيق Caetani، ٥، ص ٥٠٩؛ الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ترجمة Canard، ص ٤٩ وملاحظة ٣؛ حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ٣ ص ٤٦٨.

(٣) المقريزي، الخطط، ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤.

(٤) نفسه، ١ ص ٥٥٠؛ صبح، ٣ ص ٢ ص ٤٨٢، ٥٠٨.

(٥) المقريزي، الخطط، ١ ص ٤٤٣.

المصريين[١] تضم عناصر المماليك، الذين كانوا فى خدمة الخليفة، فكلمة مملوك[٢] استعملت عدة مرات فى العصر الفاطمى.

وكان هؤلاء المجندون يخضعون لنظام دقيق، فجعل لكل مائة قائد يسمى: «زمام»[٣]، وقسموا إلى قسمين: «الحجرية الكبار» و«الحجرية الصغار»[٤]. فلعل هذا التمييز راجع إلى سن المجندين[٥]، أو إلى التفوق والشجاعة فى التدريب على الحرب، وهى كانت داخلة فى التقدير عند الفاطميين[٦]. وقد كان على هؤلاء المجندين أن يتعلموا إمتطاء صهوة الجواد بمهارة، ولذلك أعد لهم اصطبل برسم دوابهم، يعرف باسم: «اصطبل الحجرية»[٧]. وعلى الجلة، كان يجب على هذه العناصر من المجندين أن تكون دائماً متجهزة للحرب، لتخرج عند أول إشارة.

ومن ناحية أخرى، كانت من طوائف الجيش فرق من الجند تنسب إلى الخلفاء أو إلى أولياء العهد أو إلى الوزراء أو حتى إلى بعض أفراد حاشية الخليفة؛ بقصد حراستهم والوقوف ببابهم.

فنذكر من طوائف الخلفاء طائفتين على اسمى الخليفة الآمر وخلفه الحافظ وهما: طائفتى: الآمرية والحافظية[٨]، ومن طوائف أولياء العهد: الطائفة المهدية[٩].

---

(١) نفسه.

(٢) السجلات المستنصرية: (٤٣) ص ١٤٧؛ المقريزى، الخطط، ٢ ص ٢٩ س ١٠؛ أنظر. Sauvaget: Une inscription de Badr al' Jamâli, extrait de Rev, Sy. Paris, 1929.

(٣) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٤٣.

(٤) نفسه، ١ ص ٥٥٠ س ٨؛ صبح، ٣ ص ٥٠٨ س ٧. كان هؤلاء المجندون يتميزون عن «صبيان الخاص»، وحتى عن «صبيان الركاب». فالأول يكونون حرس الخليفة الخاص (أنظر. ابن ميسر، ص ٩٠ س ٩ — ١١؛ صبح، ٣ ص ٤٨١). والثوانى يكونون حرس المواكب الخلافية. (أنظر. صبح، ٣ ص ٤٨٤). وسيأتى الكلام عليهما عند الكلام عن القصر الفاطمى.

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٤٣.

(٦) نفسه، ١ ص ٤٤٤.

(٧) نفسه، ١ ص ٤٦١.

(٨) نفسه، ١ ص ٥٥٠؛ صبح، ٣ ص ٤٨٢، ٥٠٨.

(٩) لدينا سجلا يتضمن إنشائها. صبح، ٩ ص ٣٧٧ — ٣٧٩.

نذكر من طوائف الوزراء طائفة الوزيرية[١]، وهى أول هذه الطوائف، ويرجع الفضل فى تكوينها إلى الخليفة العزيز، الذى سمح لوزيره ابن كلس بتكوين حرس خاص به، ينتسب إليه. وقد ازدادت طوائف جند الوزراء، على الأخص فى عهد وزراء السيف، لاعتمادهم عليها فى بسط نفوذهم، فنذكر منها: « الجيوشية »[٢]، على اسم بدر (أمير الجيوش)؛ و « الأفضلية[٣] »، على اسم ابنه الأفضل؛ و « البرقية[٤] »، التى أنشأها الوزير طلائع على اسم المكان، الذى أتت منه هذه الطائفة من إقليم برقة.

وأخيراً، وجدت طوائف تحمل أسماء أشخاص كانوا فى خدمة الخليفة، مثل: « اليانسية[٥] »، على اسم يانس وزير الحافظ، أو يانس الخادم الذى كان من خدام العزيز والحاكم؛ و « العطوفية[٦] »، على اسم عطوف، الذى كان فى خدمة ست الملك أخت الحاكم.

كذلك كانت عناصر من مختلف الأجناس، تدخل من جملة العسكر الفاطمى، كما هو الحال فى جميع جيوش الدول الإسلامية.

فنجد السود من عبيد الشراء على الأخص من السودان، الذين ازداد عددهم

---

(١) ابن الصيرفى، إشارة، ص ٣٣؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٥٠ س ٦، ٢ ص ٥؛ صبح، ٣ ص ٤٨٢ س ٦، ٥٠٨ س ٤.

(٢) صبح، ٣ ص ٤٨٢، ٥٠٨؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٦٠.

(٣) نفسه؛ نفسه.

(٤) ابن منقذ، الاعتبار، تحقيق حتى، ص ٢٣؛ المقريزى، الخطط، ٢ ص ١٢؛ ٢٥؛ انظر. Wiet : L'Egypte.4, p. 292

(٥) المقريزى، الخطط، ٢ ص ١٦ — ١٧، ص ٢١ س ١٤؛ انظر. Ravaisse: Essai,I, p.426, et note.3.

(٦) المقريزى، الخطط، ٢ ص ١٣؛ انظر. Ravaisse; Essai I, p.425

فى عهد الحاكم ، وتضاعفوا فى عهد المستنصر ، الذى كانت أمه سوداء[١]؛ فكان السود يكونون فرقاً هائلة فى الجيش الفاطمى ، بقيت حتى آخر عهد الدولة[٢] ؛ وقد كان ابن طولون أول من أدخل السودانيين فى جيش مصر . فنذكر من هذه الطوائف على الأخص : الفرحية ، والريحانية ، والميمونية ، والحسينية[٣] ، والمنصورية[٤] .

ونجد أيضاً فى الجيش الفاطمى عناصر غير نظامية ، فى وقت الحرب ، كما فى وقت السلم ، تؤلف طلائع الجيش ، كما كان الحال فى الجيش الطولونى والإخشيدى ، نذكر منها : شراذم « البدو »[٥] ، وقبيلة — « لواته »[٦] البربرية ، التى كان الخليفة المستنصر يشتكى منها علناً فى رسائله إلى صليحى اليمن ، لأنهم يثيرون الأضطراب بين المشارقة والمغاربة فى جيشه[٧] .

وكان فى الجيش أيضاً عناصر أجنبية أتت مع وزراء السيوف ، على الأخص شيركوه وصلاح الدين ، نميز منها : الأكراد ، والغز[٨] ، والأرمن[٩] ، والروم[١٠] ،

---

(١) ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ٤٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٣٥ س ٢٨ — ٣١ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢) ابن منقذ ، ص ٦ .

(٣) نفسه ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢ س ٨ ، ص ١٤ ، ص ٢١ س ١٥ ؛ أنظر . Ravaisse : Essai, I, p. 425 . وهى أسماء أربع طوائف من عبيد الشراء .

(٤) المنصورية اسم السودان الساكنين فى حارة المنصورة فى القاهرة . أنظر . الخطط ، ٢ ص ١٩ .

(٥) السجلات المستنصرية : (٥٦) ص ١٨٤ ؛ عمارة ، تحقيق Derencourg ، ١ ص ٧٨ . يقول Schefer : إن هؤلاء البدو أصلهم من الحجاز أنظر . Sefer Nameh, p. 138

(٦) السجلات المستنصرية (٥٦) ص ١٨٤ ، (٥٧) ص ١٨٧ .

(٧) نفسه .

(٨) صبح ، ٣ ص ٤٨٢ و ٥٠٨ .

(٩) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٢ س ١٥ ؛ ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ٧٠ .

(١٠) يسميهم المقريزى أيضاً « المرافقة الجوانية » . أنظر « الخطط ، ٢ ص ٢١ س ١٤ . وتدل « الجوانية » على حارة الروم العليا (نفسه ، ٢ ص ٨ و ١٤) ، وسميت كذلك لتفترق من حارة الروم السفلى ، التى كانوا يسكنونها أيضاً . (نفسه) .

والفرنج[١]، والجيل[٢]، والعرب، والعجم[٣]؛ أما العناصر الأوربية فإنها كانت تُذكر بصفة عامة فى الجيش الفاطمى تحت اسم: «الصقالبة»[٤]، وذلك لأن معظمها من العناصر السلافية البلقانية.

أما عن المصريين، فلم يذكر المؤرخون وجودهم فى فرق حربية إلا فى طوائف «صِبيان الحجر»، إلا أننا نظن بأنه فى آخر حكم الفاطميين[٥]، أصبح المصريون بالضرورة يكونون عناصر هامة فى الجيش الفاطمى؛ ففى الواقع، كانت بلادهم مهددة من جانب الصليبيين، فاضطر المصريون إلى القيام بالدفاع عنها؛ فكان الجيش الفاطمى — كما يظهر من النصوص — يتكون معظمه من جنود وأمراء من المصريين؛ فقد وجد خلفاء ذلك العصر فى المصريين، منبعاً لا ينضب من الرجال.

وليس لدينا للأسف أرقاماً دقيقة عن عدد قوات الجيش الفاطمى. ففى أوائل حكمهم فى مصر، كان لدى الفاطميين جيش كبير جاءوا به من إفريقية يتكون من مائة ألف رجل[٦]؛ فكان — كما ذكرنا سابقاً — أكبر جيش عرفته مصر منذ الإسكندر الأكبر[٧]. ولكن هذا العدد الكبير انخفض فى أواخر الحكم الفاطمى؛ فيروى المقريزى[٨] أن عدد من كانوا فى جداول الديوان،

---

(١) صبح، ٣ ص ٤٨٢.

(٢) الجيل سكان جيلان، وهى اسم بلاد كثيرة حول جنوب بحر قزوين. الصولى، أخبار الراضى والمتقى، القاهرة ١٩٣٥، ص ٦٢؛ انظر. أحمد أمين، ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٦، ص ٤٩.

(٣) يذكر المقريزى أيضاً كلمة العجم (أنظر. الخطط، ٢ ص ٢١ س ١٣)؛ وهى كلمة يفسرها Dozy على أنها تعنى الزنوج الوثنيين. أنظر. Suppl, 2, p. 98

(٤) المقريزى، الخطط، ١ ص ٩٤ س ٢٨.

(٥) نفسه، ٢ ص ٣ س ٤.

(٦) نفسه، ١ ص ٣٧٨. انظر. شرح اللمعة، ورقة ٢.

(٧) المقريزى، الخطط. ١ ص ٩٤ س ٢٧ و ٣٠؛ انظر. Bouriant, p.270.4-5.

(٨) نفسه، ١ ص ٩٤ س ٣٥ — ٣٦؛ نفسه، ص ٢٧٠ س ١٧.

فى عهد الوزير رزيك بن صالح (ت ٥٥٦/١١٦٠) ، يبلغ أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل .

ولكى يُسكن الفاطميون هذا الجيش الجرار فى معسكرات، عملوا — منذ وصولهم مصر — على توزيعه فى المناطق الحربية فى مصر والأمبراطورية . فحينما جاء جوهر مصر ، أنزل عساكر المعز من مختلف الأجناس، فى مواضع بالقاهرة — العاصمة الجديدة — عُرفت : « بالحارات » ؛ فكانت كل حارة تسكنها جماعة من جنس واحد تسمى به، وتتكون من معسكرات العسكر وأسرهم، ومن دكاكين وأسواق لحاجاتهم. وكان الغرض من إسكان العساكر فى أماكن معينة ، منعهم من مضايقة سكان البلاد ، بالنزول فى دورهم[1] . ويُعتبر عمرو أول حاكم مسلم لمصر، وزّع عساكر جيشه فى أماكن معروفة فى الفسطاط ، تُعرف : « بالخطط »[2] ؛ كذلك ابن طولون ، وهو حاكم شبه مستقل لمصر ، أنزل عساكره فى قطيعات مختلفة فى عاصمته : « القطائع »[3] .

فنذكر من أسماء الحارات فى القاهرة : حارة الريحانية[4] ، وحارة برجوان[5] ،

---

(١) أنظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 126

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٢٨٦ ، ٢٩٦ — ٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣١٣ .

(٤) الريحانية اسم لطائفة من السودان عبيد الشراء . أنظر . نفسه، ٢ ص ٢؛ Ravaisse: Essai, I, p. 425 ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .

(٥) كان يسكنها طائفة من العسكر تختص بالطواشى برجوان ، وسيط الحاكم ، الذى قتل بأمر الخليفة فى ٣٩٠/١٠٠٠ . المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣؛ شرح اللمعة ، ورقة ٦ ؛ انظر . Ravaisse: Essai, I.p.423.: Sefer Nameh, trad Schefer, p.144

وحارة زويلة[١]، وحارة المحمودية[٢]، وحارة الجودرية[٣]، وحارة الوزيرية[٤]، وحارة الباطلية[٥]، وحارة الروم[٦]، وحارة الديالمة[٧]، وحارة الأتراك[٨]، وحارة

---

(١) زويلة اسم ضاحية فى القيروان واسم بلدة بجوار مدينة المهدية اختطها عبيدالله المهدى (٢٩٧ — ٣٢٢/ ٩٠٩ — ٩٣٤) . ولما اختط موضع للعساكر الآتين من هذه الأماكن فى القاهرة تسمى هذا الموضع بهم. المقريزى، الخطط ، ٢ ص٤؛ شرح اللمعة، ورقة ٦؛ ابن دقاق، الانتصار، طبعة بولاق ١٨٩٧، ٥ ص٣٧؛ انظر. Sefer Nameh, trad,: Essai I, p.423 Schefer. p. 144 et note 2 ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ ؛ وقبله .

(٢) سبب تسمية هذه الطائفة غير معروف، وقد بقيت طائفة المحمودية من جملة طوائف عسكر الدولة الفاطمية، حتى أواخر حكمها. أنظر. الخطط ، ٢ص ٤_٥؛ Essai, I, p.424: Ravaisse

(٣) أنظر. Sefer Nameh, trad. Schefer. p 144 et note3؛ انظر. مبارك، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ ؛ وقبله .

(٤) الوزيرية اسم طائفة الوزير يعقوب بن كلس (ت ٣٨٠/ ٩٩٠)، وهى من جملة طوائف العسكر الفاطمى. الخطط، ٢ ص ٥ ؛ شرح اللمعة، ورقة ٥؛ Ravaisse : Essai, I, p.424؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ و ١١ .

(٥) أنظر . قبله ؛ الخطط ، ٢ ص ٨ ؛ شرح اللمعة ، ورقة ٦ ؛ ابن دقاق، الانتصار ، ٥ ص ٣٧ ؛ Ravaiss : Essai, I, p. 425 ; Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 145 et note I. ؛ انظر. مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص٦ .

(٦) سكن هذه الحارة عساكر الروم ؛ وكانت تنقسم إلى حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا . انظر . المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٨ ؛ شرح اللمعة ، ورقة ٦ ؛ ابن دقاق ، الانتصار ، ٥ ص٣٩؛ Ravaisse : Essai, I, p.424؛ Sefer Nameh ; trad. Schefer, p. 144 et note ؛ مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص٦.

(٧) عرفت الحارة بهذا الاسم لنزول الديلم الواصلين مع القائد أفتكين، الذى هزمه العزيز فى ٣٦٨ / ٩٨٧ . أنظر. المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٨ — ٩ ؛ شرح اللمعة ، ورقة ٤ ؛ Ravaisse : Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 144 et note. Essai, I, p.424 ؛ أنظر . الخطط الجديدة ، ١ ص ١٦ .

(٨) هذه الحارة على اسم الأتراك الذين قدموا مصر مع أفتكين بعد هزيمة العزيز لهم فى ٣٦٨/٩٧٨. أنظر. المقريزى، الخطط ، ٢ ص١٦؛ Ravaisse : Essai, I, p.424

كتامة[١] ، وحارة الصالحية[٢] ، وحارة البرقية[٣] ، وحارة العطوفية[٤] ، وحارة الأكراد[٥]، وحارة المرتاحية[٦]، وحارة الفرحية[٧]، وحارة الطوارق[٨]، وحارة الشرابية[٩]، وحارة اليانسية[١٠]، وحارة المنصورية [١١] ، وحارة المصامدة[١٢] ، وحارة الحسينية[١٣].

---

(١) هذه الحارة على اسم طائفة من عساكر البربر ،قدموا من القيروان مع المعز . أنظر. Sefer Nameh. trad, Schefer, p.138. ؛ شرح اللمعة ،ورقة ٦ ؛ مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ٩ . Essai, I,p.425 :Ravaisse.

(٢) اسم طائفة من عسكر الوزير الصالح طلائع بن رزيك (ت ٥٥٦/١١٦٠) أنظر . المقريزى . الخطط ، ٢ ص ١٢.

(٣) البرقية اسم طائفة فى الجيش قدمت من برقة . أنظر . نفسه ؛ Ravaisse: Essai, I p. 425 ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .

(٤) المقريزى ، الخطط . ١ ص ١٣ ؛ انظر . Ravaisse: Essai. I,p. 425 ؛ مبارك، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ وقبله .

(٥) كان يسكن هذه الحارة الأكراد ، ولها تسمية أخرى هى : « البستان » . أنظر . الخطط ، ٢ ص ١٤ ؛ Ravaisse: Essai,I, p.423 ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .

(٦) المرتاحية اسم طائفة فى الجيش الفاطمى . أنظر . الخطط ، ٢ ص ١٤؛ Ravaisse: Essai, I,p. 423 ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .

(٧) هذه الطائفة من عبيد الشراء كانت من جملة العسكر الفاطمى . أنظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 145 ؛ الخطط ، ٢ ص ١٤ ؛ Ravaisse 426 :Essai, I, p .

(٨) يسكن هذه الحارة الصبيان من جملة العسكر . الذين كانوا ممدين لحمل أسلحة تسمى: (طوارق) . أنظر. المقريزى ، الخطط، ٢ ص ١٦؛ Ravaisse : Essai, I,p. 425 ؛ Dozy: Suppl, 2, p. 41

(٩) الشرابية ربما جاءت مع أفتكين الشرابى فسميت على اسمه ،أو لأنها كانت مكلفة بحمل مؤونة الماء (الشراب) إلى الجيوش فى الحارات . أنظر . الخطط ، ٢ ص ٩ و ١٦ ؛ Ravaisse : Essai, I,p.425 et note 3 ؛ وقبله .

(١٠) هذه الحارة على اسم طائفة عساكر يانس الصقلى الذى كان فى خدمة العزيز؛ أو على اسم يانس (ت ٥٢٦/١١٣١) وزير الحافظ . أنظر . الخطط ، ٢ ص ١٦ — ١٧ : شرح اللمعة، ورقة ١٢ ؛ Ravaisse : Essai,I, p. 426.

(١١) سكن هذه الحارة السودان المعروفون باسم المنصورية. أنظر . الخطط ، ٢ ص١٩ .

(١٢) نفسه، ٢ص ٢٠ ؛ Sefer Nameh. trad,Schefer p.145 et note3 ؛ Ravaisse : Essai,I, p. 426 et note ؛ وقبله .

(١٣) هذه الحارة على اسم الحسينية ، طائفة من السودان . أنظر . المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٢٠ ؛ Ravaisse : Essai, I, p. 425.

فسكنت فى القاهرة حول القصر، العساكر النظامية[١]، مثل: الروم، والترك، والسودان، والكرد، والبربر؛ أما العساكر غير النظامية فإنها نزلت فى أطراف المدينة، سواء فى الجنوب مثل: السودانيين، أو فى الشمال مثل: عبيد الشراء.

ونحن لا نعرف عدد هذه الحارات، التى نزلها العساكر، لأن الجيش الفاطمى كان عدده فى ازدياد أو نقصان مستمر، إلا أننا نعرف أن المدينة قُسِّمت إلى خمس عشرة حارة فى عهد جوهر، وأنها قُسِّمت إلى عشر حارات[٢]، فى وقت زيارة ناصرِ خسرو، فى أوائل حكم الخليفة المستنصر.

أما عن حاميات العساكر فى داخل البلاد فى مصر، فليس لدينا إلا تفاصيل قليلة. فيروى المقريزى[٣]، أن الفاطميين كان من عادتهم إنزال العساكر فى مراكز الحدود (الثغور): فى دِمياط وتنّيس ورشيد وعَيذاب وأسوان والأسكندرية[٤]. وكذلك يلاحظ ناصرِ خسرو[٥]، وجود حامية مسلحة تسليحاً قوياً، فى تنّيس للسهر على حمايتها من هجمات العدو. وفى فقرة جديدة، يتكلم المقريزى أيضاً[٦]، عن وجود قوات على أهبة القتال فى الفرما بولاية الشرقية للدفاع عنها، وكانت بعض هذه القوات يطلق عليها: «المركزية» لأنها تقيم فى المدن، وبعضها الآخر يعرف: «بالمقطعين»، لأنها تعيش على الأخص على الإقطاعات[٧].

---

(١) الخطط، ٢ ص ١٤؛ Lane-Poole: History of Cairo, p. 166-7. Clerget: Le Caire, I, 128.

(٢) أنظر. Sefer Nameh, trad. Schefer, p. 144

(٣) المقريزى، الخطط، ١ ص ١٩٨، ٢١٢، ٢١٣ س ٨.

(٤) نفسه، ١ ص ١٠٩ س ١٥؛ ابن مماتى، قوانين، تحقيق القاهرة، ص ٢٢؛ انظر. Bouriant, p.314

(٥) أنظر. Sefer Nameh trad, Schefer, p. 122

(٦) المقريزى، الخطط، ١ ص ٢١٢ س ٩.

(٧) نفسه.

وقبل أن نعطى فكرة عن تنظيم الجيش الفاطمى فى أوان الحرب، نبين العلاقات التى كانت قائمة بين الدول الفاطمية وأعدائها خلال حكمها فى مصر؛ ففى القرن الأول، كان فاطميو مصر فى عداء مطلق مع بيزنطة والخلافة العباسية، فالعلاقة الطبيعية بينها وبينهم هى الحرب.

فبيزنطه، دولة مسيحية، وعلى ذلك فإن الحرب ضد هذه الدولة أمر ضرورى لأن العقيدة الإسلامية، بصفة عامة، تمنع العلاقات السلمية مع شعب لا يؤمن بها[1]، وكان هذا المبدأ مطلقاً بحيث أن الشريعة الإسلامية تميز بجلاء بين نوعين من البلاد: بلاد الأعداء وتسمى: «دار الحرب»؛ وبلاد المسلمين وتسمى: «دار الإسلام»[2]. وقد كان المعز نفسه، لما جاء إلى الإسكندرية، يلمح بالكلام عن الحرب المقدسة، مع جماعة من سكان الفسطاط أتت لاستقباله[3]. ولكن هذه العلاقة بين بيزنطة والفواطم لم تكن دائماً علاقة حرب، ذلك لأنه فى القرن الأول من الحكم الفاطمى فى مصر، كانت توجد دوله حاجزة تعوق الجهاد: أولاً دولة الحمدانيين، ثم دولة المرداسيين.

أما عن العباسيين، فإن الفاطميين كانوا راغبين حقاً فى محق سلطانهم، وقد حرموهم أمداً طويلاً من حقهم فى الخلافة، ومع أن الفاطميين حينما قاموا بفتح مصر، كانوا واضعين نصب أعينهم قتال العباسيين حتى بغداد، فإن العداوة الشديدة لم تظهر طيلة الحكم الفاطمى، بسبب العقبات الحربية الكثيرة؛ فقد كان الخلفاء العباسيون فى بغداد يحكمهم البويهيون الشيعة، الذين كانوا يعترفون بالسلطة الروحية لفاطميى مصر؛ ولذلك فإن العداوة ضد العباسيين ظهرت أولاً

---

(١) المحقق، شرح الاسلام، ترجمة Querry، ٢، ص ٢.

(٢) أنظر Van Berchem : La propriété territoriale, p. 8.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، طبعة القاهرة، ٤، ص ٣٢؛ انظر Canard : L'impérialisme des Fatimides et Leur propagande. Annales de l'Inst d'E. Or, 6. 1942—6, p. 180.

فى شكل صراع سياسى بالدعوة ضدهم ، أكثر مما ظهرت فى شكل قتال حربى ؛ ولكن بقيت نار الكراهية بين الفاطميين والعباسيين لا ينطفىء أوارها ؛ ويبين ناصر خسرو هذا المظهر من العلاقات ، بقوله : إن الخليفة عليه أن يقاتل الكفرة بحد السيف ، وأن يقاتل المنشقين من المسلمين بالدعوة[1].

ولكن فى القرن الثانى الفاطمى ، غلب الأتراك السلاجقة البويهيين على العباسيين ، وهم عنصر سنى جديد ، شديد التعصب ، وعلى ذلك ، فإن العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، اتجهت نحو صراع سياسى ، يختلط بالجهاد .

وفوق ذلك كان على الفاطميين القتال فى ذلك القرن ضد الصليبيين ، الذين غزوا الأراضى المقدسة ، فاتخذ الجهاد مظهراً صريحاً ، وأصبح جزءاً من عمل الجيش الفاطمى ، بل وجميع الجيوش الإسلامية فى ذلك الوقت . ولم يتردد الجيش الفاطمى فى قتال الصليبيين ، بالتعاون مع دول إسلامية أخرى سنية[2] ؛ فكانت الحملات فى أواخر الحكم الفاطمى ، ترسل كل ستة أشهر .

كذلك يجب أن نشير إلى أن جميع دول الإسلام[4] ، وبخاصة الدولة الفاطمية تعتقد بحق سيطرتها على العالم ، أو على الأقل على بلاد المسلمين ؛ فكان نشر العقيدة الفاطمية بالقتال جزءاً من الواجب الدينى ؛ فغرض الحرب هو تحويل الناس وقيادتهم نحو الدين الصحيح . ولكى يتحقق هذا المبدأ ، وكان بعض الرجال ذوى الصبغة الدينية يصحبون الجيش ، فقد كان النصر الحربى يحتاج إلى الحماس الدينى ؛ فكان الفاطميون يرسلون عادة مع الجيش قاض يسمى : «قاضى العسكر»[5] ، كما كان قاضى القضاة نفسه فى العاصمة ، يقوم — أحياناً —

---

(١) المشاب : Nasiri khusrau, p.145

(٢) القريزى ، الخطط ، ١ ص ٢١٢ ؛ انظر : Wiet. L Egypte, 4 p.287.

(٣) ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٣ ص ٧ ؛ انظر . Hurat Ency de L' Islam (arl Afdal), 1.p. 148

(٤) أنظر : Van den Derg. Droit musulman, p. 97

(٥) ولاة ، ص ٥٨٦ .

باختصاصات قاضى العسكر بالفصل فى قضايا العسكر فى الحملات أو فى المدن، وهو لم يكن فى الغالب غير أداة دينية للدعوة . بل فى عهد الخليفة المستنصر، أرسل داعى الدعاة المؤيد[١]، على رأس جيش للتعاون مع قائد فاطمى يدعى البساسيرى، كان يقاتل فى بغداد ضد الخليفة العباسى القائم .

وعلى كل حال ، كان الجيش الفاطمى حسن التنظيم فى أوان الحرب، وإن لم تصلنا المعلومات الوافية عنه .

ففى وقت الحرب ، كان الخلفاء يكلون قيادة الجيش إلى قائد يعينونه لذلك ، ولم يقوموا بقيادته إلا فى مرتين فقط: المرة الأولى[٢]، فى عهد العزيز، حين ذهابه فى حملة كبيرة لقتال التركى أفتكين ، الذى كان قد استولى على الشام ؛ والثانية[٣]، فى عهد الخليفة المستنصر ، فى أثناء الثورة التى هددت بقلب الخلافة الفاطمية ، فلم يتردد المستنصر فى أن يركب للحرب بنفسه على رأس الجند والناس ، لمقاتلة الثائرين .

كذلك ، كان وزير السيف ، بسبب سلطته العامة ، له قيادة الجيش ، كما كان الخليفة — أحياناً — يكل هذه القيادة إلى موظف من قبله ليس لوظيفته أى مظهر حربى ؛ وقد حدث هذا — كما بيّنا سابقاً — فى إرسال حملة حربية إلى العراق بقيادة المؤيد ، داعى الدعاة .

وكان الخلفاء الفاطميون يتمسكون بوداع الجيش رسمياً عند رحيله سواء فى العاصمة أو فى خارجها ؛ وهذا التقليد يُنسب — على ما يظهر — إلى الخليفة

---

(١) سيرة المؤيد ، ص ١٠٠ .

(٢) يحيى الأنطاكى ، ص ٣٩٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٠ .

(٣) ابن ميسر ، ص ١٩ .

المعزّ ؛ فقد ورد فى مناسبة غزو مصر ، أنه خرج من قصره فى القيروان ليودع الجيش وقواده[١].

ويقول لنا المقريزى[٢] ، خاصاً بوداع الجيش فى العاصمة — بوجود ميدان واسع فى القاهرة — يسمى : « بين القصرين » ، أى بين القصر الكبير فى الشرق والقصر الصغير فى الغرب ، يستخدم فى استعراض قوات الجيش الفاطمى ، ويتسع لعشرة آلاف من العسكر مابين فارس وراجل .

ومن ناحية أخرى ، يروى المقريزى[٣] أن الخليفة العزيز فى ٣٨٤/٩٧٨ ، عرض عساكره فى خارج القاهرة عند مكان يسمى : « سطح الجُبّ » ، فنصبت له خيمة فخمة ، وضرب لابنه المنصور خيمة أخرى ، ولم تزل العساكر تسير بين يديه ، من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب .

ونحن نجهل الرسوم الخاصة بالاحتفال بوداع الجيش فى العاصمة أو فى خارجها ، ومع ذلك ، فمن الوصف الذى وصلنا عن فتح مصر على يد جوهر[٤] ، يظهر لنا الخليفة متكئاً على فرسه ؛ وقد تقدم نحوه قائد الجيش ، جوهر ، ليقبّل يده ، وحافر فرسه ، وفى هذه المناسبة ، وزعت هدايا وخلع كثيرة ، على جوهر ، وعلى القواد .

أما عن سير العساكر فى الاستعراض أو عند رحيلها للقتال ؛ فإن الجيش يتقدم بطوائفه من الرجالة[٥] ، وهم فى زىّ الحرب ؛ فكانت كل « طائفة » تتكون من وحدة قائمة بذاتها[٦] . كما كان بجانب كتلة العساكر الرئيسية ،

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٣٧٨ س ٦ — ٧ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ٢٨ س ١٦ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ١٦٣ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات ، ١ ص ١٦٦ — ١٦٧ ؛ انظر . O'Leary : A short history of the Fatimid Khalifate, p. 100.

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٢ س ١١ .

(٦) أنظر . Sefer Nameh, trad. Schefer, p. 138

يشتمل الجيش على البدو الذين يكونون عادة طلائعه[١]، وعلى الحواشي[٢]، مثل: الخدم الذين يقومون بنقل أمتعته؛ وعلى الأطباء، والمؤذنين، والقرّاء[٣]، وقاضى العسكر[٤].

وكانت أمتعة الجيش الضرورية، مثل: الخيام، والأسلحة، والأدوات المختلفة، وصناديق المال تُحمّل على الجمال؛ فيروى المقريزى أن خزائن المال وأمتعة الجيش حملها عشرون ألف جمل، لما خرج جيش العزيز إلى الشام[٥].

وقد كان الجيش الفاطمى مزوداً بتسليح كامل للحرب، فزيارة لخزائن السلاح[٦]؛ تبيّن لنا مدى أهمية هذه الخزائن للجيش الفاطمى. فكانت هذه الخزائن تحتوى على خوذات فارسية « خود »[٧]، وعربية « بيض »؛ وسيوف حديدية؛ وسيوف على إختلاف أنواعها عربية وفارسية « قَلجُوريّات »[٨]؛

(١) المقريزى، الخطط، ١ص ٢١٢، س ١١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ١ ص ٤٨٢ س ١٢.

(٤) ولاة، ص ٥٨٦ س ١٧.

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٩٤ س ٣٢. يذكر ابن ميسر ٣٠ ألف جمل. أنظر تاريخ مصر، ص ٥٠.

(٦) تقع خزانة السلاح الفاطمية فى القاعة التى كان يطلق عليها اسم: «الايوان الكبير»، وهى القاعة ذات الأعمدة، التى كان يجلس بها الخلفاء فى استقبالاتهم الأسبوعية، كل اثنين وخميس. ولكن فيما بعد، فى أيام الخليفة الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤/١١٠١ — ١١٣٠)، نقل جلوس الخليفة إلى القاعة المعروفة: « بقاعة الذهب »، وتحول الايوان الكبير إلى مستودع للأسلحة وسمى: « خزائن السلاح ». أنظر. المقريزى، الخطط، ١، ص ٣٨٦، س ٨ ـ ٩؛ ٣٨٨ س ٢٢، ٣٠، ٤٠٧، س ٦ـ٨، ٤١٧ـ٤١٨؛ أنظر. Inostrantsev, p. 49; De Sacy: Chrest, I, Paris, 1826, p. 125-126.

(٧) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤١٧ س ٢٨؛ انظر. Inostrantsev, p. 48

(٨) ليس من السهل وصف هذا السيف بدقة. ولكن لما كانت كلمة « قلجوريات » تجاور « سيوف عربية »؛ فإنا نفهم أن هذه الكلمة من أصل فارسى، وتدل على سيف فارسى. أنظر. Inostrantsev, p 50. ويقول ابن هذيل: السيف تتخذه العرب كالسكين، وتطعن به كالرمح، وتضرب به كالعمود، وتقطع به كالسكين، وتحمله سوطاً ومقرعة، وتتخذه جمالاً فى الملأ، وسراجاً فى الظلمة. حلية الفرسان، ص ١٩٧.

والرماح الزان المسماة: «الخطّية»[١] ؛ والأسنّة الطويلة المسماة : « القنـا »[٢] ؛ والرماح الخشبية المسماة :« قُنطاريات »[٣] ؛ وجعاب السهام؛ والدروع؛ وسهام من خشب « الخَلنج » ؛ وسهام يُقال لها: « نُشّـاب» من الخشب أيضاً ،ذات نصول مثلثة الأركان ؛ وسهام يقال لها : « الجراد » طولها شبر وتبلغ الهدف بسرعة فائقة فتقضى على الفارس أو الراجـــل[٤] ؛ وسترات تسمى : « كَزْاغندِيات»[٥] ،مبطّنة بالقطن أو بالحرير « ديباج»، وتستعمل كدرع؛ والدروع العربية ؛ والدروع الفارسية المسماة : « زرد » أو « جواشن »[٦] ، وهذه الأخيرة ، هى درع عبارة عن صدر بغيرظهر؛ ونوع من الدروع يسمى : «زرديات سابلة»[٧] ،تغطى كل الجسم؛ودروع تغطى الخيل تسمى:« تجافيف»[٨] ، حيث يروى ناصرِ خسرو[٩] ،أن الخيل كانت محمية بدرع،وأنه كان يوضع

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤١٧ س ٢٩ ؛ انظر . Schwarzlose : ,Die waffen. Leipzig, 1886, p. 220 . كلمة «خطية» مأخوذة من «خط»،اسم لإحدى مدن بلاد عمان ، التى كانت تباع فيها الرماح المستوردة من الهند .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤١٧ س ٣٣ ؛ انظر . Dozy: Suppl, 2. p. 414

(٣) القنطاريات نوع من الخشب يستعمل فى صناعة الرماح . أنظر . Dozy: Suppl,2,p.413. ؛ Inostrantsev,p.50 ؛ Kremer: Cultergeschichte,2,p.285 ؛ Schwarzlose,p.219

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤١٧ س ٣٧ ؛ انظر . Inostranteev, p. 49

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤١٧ س ٣١ ؛ انظر. Dozy: Suppl,2,p.342 et 462 ؛ Schwarzlose, p. 334 ؛ زكى، كنوز، ص ٢٢ ؛ Cahen: Un traité d'armurerie, R.E.O. XII, 1947-8, texte, p. 116, trad, p.138 ؛ Inostranteev, p. 50

(٦) « دروع » كلمة عربية . أما « زرد » و « جواشن » فهما فارسيتان . أنظر . ابن هذيل ص ٢٢٧ ؛ Cahen: traité, texte, p.116; trad, p.138 ؛ Inostrantev, p.48

(٧) المقريزى ، الخطط ،١ ص ٤١٧ س ٣٢ ؛ انظر . Inostranteev, p.50 ؛ Schwarz-lose, p.341 . وترجم Quatremère (أنظر . Mamelouks, 1,2, 114, N.138) « الزرديات السابلة » بهذه العبارة : « Cuirasses Flottantes » ، أى دروع فضفاضة. كذلك يذكر المقريزى (الخطط ، ١ ص ٤٥٤ س ٥) نوعا آخر من الدروع يغطى كل الجسم « زرديات بالمغافر ملثمة » ، وهذه لا تبين من لابسها — على مايظهر — إلا الأحداق. أنظر . نفسه ، ١ ص ٤٥٠ س ٣ .

(٨) أنظر . Inostrantsev,p.48 ؛ Schwarslose. p.324 . هذه الكلمة عند Dozy (أنظر . Suppl, 1, p 200) ،تدل على قطع اللبود المصمتة ، التى تستخدم فى تبطين الدروع للفرسان والخيل .

(٩) أنظر . Sefer Nameh, trad. Schefer, p. 137

عند مؤخرة الحصان خوذة وأسلحة أخرى تثبّت على السرج. وكانت توجد أيضاً أنواع من الأقواس المختلفة، وهى تتألف عادة من عمود وقضيب ومفتاح والسهم يوضع فى القضيب، مثل: «قوس اليد» التى تشد باليد، فتخرج السهام التى تشبه الجراد لصغر حجمها، دفعة واحدة فى جهات متعددة[١]؛ وهى تُعرف بالعربية؛ و«قوس الرجل»[٢]، التى تشد بدفعها من الرجلين، وهى تُعرف بالإفرنجية؛ و«قوس الركاب»[٣]، التى تشد من ركاب الخيل؛ وأخيراً «قوس اللوالب»،[٤] التى تشد بواسطة لولب.

وفوق ذلك، يذكر الأبرقى[٥]، وهو معاصر لأواخر خلفاء الفاطميين، آلة حربية فيها عدة أقواس يشدها رجل واحد، وتتميز بأنها ترسل عدة سهام بشدة واحدة؛ كما يذكر قوساً لقذف قارورات النفط[٦]، التى كانت تُلقى أيضاً بالسهام والمنجنيقات[٧].

ومن ناحية أخرى استعمل الجيش أسلحة الحصار الثقيلة، مثل: «المنجنيقات»[٨]، و«الدبابات»، و«الأبراج»، و«الستائر»؛ وهى تستخدم فى نقب حوائط الأماكن المحصنة وتدميرها[٩].

كذلك استخدم الجيش أسلحة مدببة، تسمى: «مثلثة»[١٠]؛ لها أحجام مختلفة لنشرها على الأرض لتعوق تقدم العدو.

وفى الجملة، كان الفاطميون لا يدخرون وسعاً، فى تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من أسلحة.

---

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤١٧؛ Cahen: Traité, XII, 1947-8, texte, p. 110; trad, p. 132؛ انظر. Dozy: Suppl, 2, p. 418.؛ Inostrantsev, p. 49; 51.

(٢) نفس المصدر.

(٣) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤١٧ س ٣٦.

(٤) نفسه؛ انظر. Dozy: Suppl, 2, p. 418.

(٥) أنظر. Cahen: Traité. XII, 1947-8, texte p. 112. trad, p. 134

(٦) نفسه، النص، ص ١١١، والترجمة، ص ١٣٣.

(٧) نفسه. النص، ص ١٢٢ — ٣، والترجمة ص ١٤٥ — ١٤٦.

(٨) نفسه، النص، ص ١١٨، والترجمة، ص ١٤١.

(٩) نفسه، النص، ص ١٢٠، والترجمة، ص ١٤٣.

(١٠) نفسه، النص، ص ١٢١ - ١٢٢، والترجمة، ص ١٤٤.

وكان الجيش يُجهَّز أيضاً بالخيام[١]،فيصف لنا المقريزى بدقة[٢]، خزائن الخيام التى تميّز فيها أشكالاً مختلفةمن خيام الجيش،مثل:«الحصون»و«القصور» و « الفساطيط » و «الشُراعات » و « المسطَّحات ».

وكانت الخيام تخزّن لحاجة الجيش فى المواضع الحربية فى البلاد ، فتخرج إلى العسكر فى حالة تهديد مفاجىء ، كما حدث عند تهديد الصليبيين للفرما فى ولاية الشرقية[٣].

كذلك تزود الجيش الفاطمى بعدد وافر من الدواب ، وعلى الأخص الخيل التى كان لرجال السيف وحدهم والأشخاص العاملين فى الجيش حق ركوبها ؛ أما رجال القلم ، فإنهم لا يركبون إلا الحمير[٤]. ويذكر المقريزى أسماء بعض اصطبلات الخيل الفاطمية ، مثل : اصطبل « الحجرية »[٥] الخاص بصبيان الحجر ، واصطبلين آخرين للخليفة ، يسمى أحدهما : « طارمة » بمعنى رواق ، والآخر: «جُمَّيزة[٦]»، وهما يضاهيان اصطبل الحجرية فى الأهمية ؛ ولكننا نظن أنهما لا يحتويان إلا على خيول الأعياد والحفلات .

وقدأقام الفاطميون خزائن لصناعة السروج، التى تعد خصيصاً للدواب فى الحرب؛ فيروى المقريزى[٧]، أن الخليفة الآمر ، فكر فى الغارة على بغداد، ولذلك أعد

---

(١) صبح ، ١٠ ص ٤١٠ س ١٣ ومابعدها ؛ الخطط ، ١ ص ٤١٨ ومابعدها ، ٤٨٢ س ١٣ .

(٢) الخطط،١ص٤١٨ـ٤٢٠؛انظر. Kremer: Culturgeschichte,2,p.298 -300: Quatremère: Mém.géog et hist,2, p. 380-383. ; Inostrantsev, p. 99.

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٢١٢ س ١١ .

(٤) أنظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 154

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ص ٤٦١ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٤٤٤ .

(٧) نفسه ، ١ ص٤١٨ ؛ صبح، ٣ ص ٤٧٧ ؛ انظر Inostrantsev, p. 56.

سروجاً مجوفة وبطنها بصفائح من قصدير، ليجعل فيها الماء ، فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منها الفارس.

وكان استكثار الجيش من الرايات لا ينتهى عند حد فى الغالب؛ فقد كان عدد الرايات ، لما خرج العزيز إلى فتح الشام ، خمسمائة راية[1] ، وسترى فى فصل مقبل، أن الفاطميين اتخذوا الرايات البيضاء، التى سميت لهذا السبب: «مبيضة» مخالفة للعباسيين الذين سميت راياتهم: «مسودة»[2] ، أى سوداء . وقد جرت العادة عند الفاطميين أن يعقد الخليفة لقائده اللواء قبل خروج الجيش ، فيخرج القائد بعد ذلك من قصر الخليفة ، لكى يقوم بما أرسل من أجله[3] . وقد كانت الرايات الفاطمية تحمل عادة اسم الخليفة وألقابه مطرزة على أطرافها[4]

وكان للجيش الطبل والبوق ؛ فقد دخل جوهر الفسطاط وبين يديه تدق الطبول[5] ، كما اتخذ العزيز خمسمائة بوق لما خرج إلى فتح الشام[6] .

من هذا نرى أن الجيش الفاطمى ، كان حسن الإعداد ، مثل غيره من جيوش الدول الكبرى ، فى ذلك العصر .

أما عن معلوماتنا عن مسلك الجيش فى الحرب؛ فإنها توجد مبعثرة فى كتب عديدة ، وإن كان من الطبيعى أن يتبع الفاطميون نفس الخطط الحربية فى الدول الإسلامية الأخرى .

---

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٥ ؛ انظر De Sacy: Chrest, 2, p. 495.

(٢) نفسه ؛ نفسه .

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٤ .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم، تحقيق Popper ، ٢ ص ١٧١ .

(٥) العينى ، عقد ، ١٩ ورقة ٢٣٢ .

(٦) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٥ .

فنجد أن الفاطميين أحاطوا عاصمتهم — القاهرة — بأسوار ضخمة تشبه القلاع المنيعة ، لتقف صعبة المنال أمام العدو[١] . فبنى جوهر فى ٩٦٨/٣٥٨ ، أسواراً سميكة من الطوب من قطع كبيرة الحجم ، بحيث يستطيع فارسان أن يمرا عليها جنباً إلى جنب[٢] . ولما اتسعت العاصمة بعد ذلك ، أمر بدر بدوره فى ١٠٨٧/٤٨٠ ، ببناء سور جديد من قطع الطوب إلا الأبواب كانت من الحجارة ، وكان هذا السور سميك أيضاً ، يبلغ عرضه فى بعض الأماكن نحو عشرة أذرع[٣] .

وزيادة فى تحصين العاصمة ، حفر جوهر خندقين فى ٩٧٠/٣٦٠ ، عرض كل منهما عشرة أذرع فى عمق مثلها ، وذلك فى شرق العاصمة ، من ناحية الشام[٤] .

كذلك كانت القاهرة تستطيع أن تقاوم طويلاً ، فى حالة الحصار ؛ فحسب قول المقريزى[٥] ، كان يوجد فيها « أهراء » كثيرة لخزن القمح .

أما فى حالة هجوم مفاجىء ، على مكان غير محصن فى البلاد ، فإن القيادة قررت نظاماً دفاعياً عنه ؛ فيروى المقريزى[٦] بدقة الخطة التى اتبعت فى الدفاع عن الشرقية ضد هجوم الصليبيين عليها ؛ فقد أرسل الوالى بسرعة شراذم البدو لإنهاك جناحى جيش العدو أثناء الليل وشغله بحرب العصابات . ثم وجه — بعد ذلك — فيالق الجيش المعسكرة فى الولاية ، وكانت تتكون — كما ذكرنا سابقاً — من

---

(١) أنظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p.128—131

(٢) نفسه ، ص١٢٦ : الخطط ، ١ ص٣٧٧ : انظر . Ravaisse : Essai, I, p. 422 : مجلة المقتطف ١٩٣٤ : تأسيس القاهرة ، كتبها Creswell ، وترجها رجب ، ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣٧٩ : Ravaisse : Essai, I, p 421; n. I. بنى هذا السور للمرة الثالثة ، فى سنة ٥٦٦/ ١١٧٠ ، فى عهد صلاح الدين ، وكان يومئذ وزير العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين (أنظر . الخطط ، ١ ص ٣٧٧ و ٣٧٩) .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص١٣٦ — ١٣٨ : انظر .Ravaisse : Essai, I, p.422

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٦٤ و ٤٦٥ .

(٦) نفسه ، ١ ص٢١٢ : Bouriant, p. 626.7.

عسكر تُعرف: « بالمركزية » و « المقطعين »[١]؛ فكانت كل هذه القوات تعمل على شغل العدو وتأخير زحفه حتى وصول الجيش الرئيسى من العاصمة.

وفى القتال كان الجيش الفاطمى يستخدم كل أساليب الحرب المعروفة فى عصره. فلم يكن يتردد فى حرق الأرض أمام العدو لتعطيل تقدمه، كما فعل المصريون عند مهاجمة الصليبيين لبلادهم؛ فقد أمر الوزير شاور، فى سنة ٥٦٤/١١٦٨، بحرق الفسطاط[٢]، لوقف هجوم الصليبيين، وكان يلزم لذلك عشرون ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار. كذلك كان الجيش يلجأ إلى التحصن من عدوه وراء الترع التى تستخدم كخط للدفاع[٣]. كما كان يلجأ — فى بعض الأحيان — إلى طلب « الهدنة » من محاصريه، وإن كان هذا الطلب يتوقف بطبيعة الحال على مقدار ماتقدمه مصر من مال؛ فقد دفع العزيز عشرين ألف دينار لقاء الهدنة، التى وضعت حداً للنزاع بين المصريين والقرامطة[٤].

وكان الجيش الفاطمى إذا زحف للقتال، لزم الصفوف[٥]، ووزع نفسه فى ميمنة وميسرة وقلب، يكون فيه قائد الجيش بخيمته أو بمظلته، وكلاهما رمز القيادة[٦]. وحسب الخطط الحربية فى ذلك الوقت، كان الجناحان يجب نشرهما على نطاق واسع، لتحاشى الكمين[٧]، والفرسان يجب توزيعهم فى كواكب تتقدمها

---

(١) الأوائل يتسلمون أرزاقهم لقاء خدماتهم، فهم المرتزقة. أما الآخرون فإنهم يملكون إقطاعات، فهم المقطعون.

(٢) المقريزى، الخطط، ١ ص ٣٣٩ س ٤ و ٥، ص ٣٥٨ س ٢٦.

(٣) السجلات المستنصرية: (٣٥) ص ١١٤ و(٤٣) ص ١٤٩.

(٤) شرح اللمعة، ورقة ٥.

(٥) ابن خلكان، ٢ ص ١٥٣؛ النعمان، دعائم ١ ص ٤٣٦ وما بعدها.

(٦) السجلات المستنصرية: (٤٣) ص ١٤٩

(٧) أنظر Cahen.: Traité, XII, 1947-8, texte.p.125-6; trad p. 148-9.

الرجالة فى طوائف لتكون درعاً لها، مع مراعاة جعل العسكر كله جبهة واحدة، للقاء أى هجوم من جانب العدو بكل قوة ؛ فكان هذا التكتيك من شأنه أن يربك العدو ، الذى قد يوجه هجومه نحو إحدى الطوائف ، كما حدث عند مهاجمة الفرنجة فى مصر ، فوجدت نفسها محاطة بالعسكر ، من كل جانب .

وقد أثبت عساكر الجيش الفاطمى مهارة فائقة فى استعمال أسلحة الحرب؛ فكان الرجالة من « المصامدة » مثلاً ــ وهم من قبيلة مصمودة المعروفون بطول القامة وسواد اللون — لا يقاتلون إلا بالحراب أو بالسيوف ، ولا يجيدون استعمال أى سلاح آخر غيرها[١] .

كذلك كان العسكر الفاطمى يجيدون استخدام آلات الحرب الضخمة ، مثل : « المنجنيقات » العظيمة ، التى ترمى بالحجارة أو بالمواد الملتهبة[٢]؛ وأسلحة الحصار ، مثل : « الستائر » و « الأبراج » و « الدبابات » ، التى تقوم بنقب حوائط الأسوار[٣] .

أما عن استعمال النار الإغريقية (النفط) ، فنعرف أنه كانت توجد فى الجيش الفاطمى طائفة تسمى : « بالنفاطين »[٤]؛ مهيأة خصيصاً لرمى النفط فى القوارير[٥]، أو بآلات الحصار كالمنجنيقات ، أو بالنُشّاب ، أو فى قدور النفط[٦]، أو من على الجياد[٧] .

---

(١) أنظر . Sefer Nameh trad. Schefer, p. 124 . روى ناصر خسرو أنهم سود لأن أصلهم من بلاد مصمودة، التى تمتد جنوب افريقية حتى المحيط الأطلسى . أنظر قبله .

(٢) السجلات المستنصرية: (٣٥) ص ١١٥ ، (٤٣) ص ١٤٩ .

(٣) أنظر . قبله ؛ صبح ، ٢ ص ١٣٨ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ٣ س ١٤ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ٣ س ١٥ .

(٦) صبح ، ٢ ص ١٣٨ .

(٧) أنظر Cahen : Traité, texte, p. 122-3 ; trad. p. 145-6.

ومهما يكن من أمر؛ فإن الجيش الفاطمى كان يسيطر دائماً على ميدان القتال، ويشن الهجوم على الأعداء، ويعرف حقاً كيف يخيف، فبفضل قوة شكيمته امتدت رقعة الخلافة الفاطمية من المحيط الأطلسى حتى بغداد.

وكان الجيش المظفر عند عودته، تسير طوائفه المختلفة فى حارات العاصمة، بين جمهور الشعب المتحمس، وبين مظاهر السرور.

وفى أثناء هذه الاحتفالات ـ التى قد تستمر عدة أيام ـ يستعرض الخليفة الأسرى والغنائم. فكان الأسرى الأشداء يوضعون فى أقفاص من حديد؛ وذلك كما حدث عندما أسر الخليفة الحاكم عدوه أبا ركوة، فقد شُهِّر هذا الأخير على جمل فى العاصمة، بعد أن غُطيت رأسه بطُرطُور ضخم عمل من الخرق المصبوغة، وجُعل خلفه قرد معلّم بيده دِرّة يضرب بها بدون توقف الأسير المسكين[1]؛ فقد كان حماس المنتصر يغريه أحياناً نحو مسلك غير إنسانى.

الأسطول: قوته — دواوينه — دور الصناعة — عدده — أنواع السفن — رجال الأسطول — أسلحته — خروجه — الحرب البحرية — الغنائم.

قبل وصول الفاطميين مصر، لم يقم «أسطول»[2] الطولونيين والإخشيديين

(١) ابن القلانسى، ص ٦٥؛ ابن تغرى بردى، تحقيق Popper، ٢ ص ٩٩.

(٢) كلمة «أسطول» أصلها يونانى، وهى تطلق على مجموع السفن الحربية وعلى السفينة الواحدة. أنظر المسعودى، التنبيه، ١٤١؛ عبادة، سفن الأسطول الإسلامى، ص ١٠؛ الشاذلى، الأسطول فى اللغة والأدب والتاريخ، ص ٣٥ (مجلة الثريا، السنة الثانية، عدد ٣، مارس ١٩٤٥).

إلا بدور ضئيل[١]، وذلك على عكس الأسطول الفاطمى فى إفريقية، الذى كان قد أثبت شدة بأسه عدة مرات فى البحر الأبيض بغزواته المظفرة ضد بيزنطة وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا[٢].

وعند مجيئهم مصر، زاد من سطوة أسطولهم، اعتماده على قواعد بحرية كثيرة، فى البلاد التى استولى عليها الفاطميون من الإخشيديين؛ وبذلك سيطروا على السواحل الشامية حتى بيزنطة، وعلى شواطىء البحر الأحمر، وعلى ساحل إفريقية، الذى كان فى حوزتهم من قبل.

ولم يكن من المستطاع الاحتفاظ بهذه السواحل الطويلة أو الاستيلاء على مرافىء جديدة — حتى يتمكنوا من الاستمرار فى أمور الجهاد البحرى بحماس ونجاح — بدون أسطول ضخم، شديد البأس. فيروى القلقشندى بدقة[٣]، أن وحدات الأسطول الفاطمى كانت مرتبة بجميع الشواطىء الساحلية، مثل: الإسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها من مرافىء الشام. ولكن هذه السيادة البحرية على سواحل الشام لم تبق لهم طول عهدهم، فقد غلبهم عليها الصليبيون، فى القرن الأخير من حكمهم[٤].

وقد خصصت الدولة الفاطمية جزءاً كبيراً من ميزانيتها للنفقة على إعداد أسطول قوى، وتجهيزه بما يحتاج إليه من أدوات الحرب أو من الرجال.

وكما وجدت دواوين للجيش، وجد ديوان واحد للأسطول هو: «ديوان

---

(١) أنظر. Zaki : Les Tûlunides, p. 173

(٢) النعمان، المجالس، ١ ورقة ٢٢٨ — ٢٣٠؛ انظر. Amari : Bibliotéca Arabo — Sicula, p. 254.

(٣) صبح، ٣ ص ٥٢٣.

(٤) نفسه.

الجهاد»[١]، كان يقوم بالإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها ودفع النفقة للرجال العاملين فيها .

وقد كانت أهم مراكز إنشاء المراكب المسماة : «دور الصناعات»[٢]، فى العصر الفاطمى ، توجد فى العاصمة ؛ فكانت المقس ، التى أنشأها الخليفة المعز[٣]، فى شمال القاهرة على ساحل النيل، تقوم ببناء ستمائة قطعة[٤]؛ كما كانت جزيرة الروضة ، التى عُرفت فى العهد الفاطمى باسم : « جزيرة مصر » ، تقوم أيضاً بإنشاء المراكب البحرية .

وقد وجدت أماكن أخرى متعددة فى مصر وفى أرجاء الخلافة لبناء المراكب؛ فيروى المقريزى أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بنشاط بمدينة الإسكندرية ودمياط[٥].

وكانت الدولة الفاطمية تبذل جهدها للحصول على الخشب الضرورى لإنشاء المراكب سواء من مصر أو من الخارج . ففى مصر كانت تقيم الحراس لحماية أشجار لا تحصى من السنط، فى البهنساوية والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية[٦]، وهى ذات أعواد قوية تصلح فى عمل المراكب . ولم تتردد مصر أيضاً فى الحصول على الخشب اللازم لأسطولها من البندقية ، مما دعا بيزنطة إلى

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٩٦ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٨٩ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ١٩٥ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ؛ ابن مماتى ، قوانين ، ص ١٦ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ١٠١ ، ص ٣٦ و٣٩ ؛ Bouriant, p. 318 ؛ انظر : Les Forêts M. I. E. 1901, p. 141 et suiv. : 'Ali Bahgat

الاحتجاج عند الدوج (Doge) أو حاكم البندقية ، الذى أضطر أمام هذا الاحتجاج إلى وقف إرسال الخشب إلى مصر[١] .

وليس فى الإمكان أن نؤكد أن الأرقام التى لدينا عن عدد مراكب الأسطول الفاطمى فى غاية الصحة ؛ فيروى المقريزى أن عددها فى أوائل الدولة يزيد على ستمائة قطعة[٢] ، ولكن هذا العدد انخفض بالتدريج حتى صار عبارة عن مائة قطعة فى آخر الدولة[٣] .

فيأتى فى طليعة مراكب الفاطميين فى مصر أسطول تجارى يملكه الخليفة ، فى غاية النشاط . فقد عرف خلفاء الفاطميين الانتفاع بمزايا الموقع الجغرافى لمصر ، فى مفترق سير المراكب الآتية من آسيا والشرق الأقصى ، فنشأوا أسطولا تجارياً كبيراً ، بقصد التجارة العالمية ، وعلى الأخص مع الهند . ويروى ناصر خسرو ، فى رحلته[٤] ، بعض الفقرات الطريفة عن أسطول الخليفة : فقد كان من بين ألف مركب راسية فى تنيس ، ما هو ملك للتجار ، عدد كبير ملكاً للخليفة . ولا ريب ، أن مراكب الخليفة التجارية كانت تبنى فى دور صناعة الدولة ، وإن لم تصلنا أية معلومات دقيقة عن طريقة صنعها أو تجهيزها .

أما عن الأسطول الحربى ، فلدينا أسماء بعض وحداته ، مثل : « الشوانى » ،

---

(١) أنظر : Mez : Die Renaissance ، ترجمة أبى ريدة ، ٢ ص ٣١٥ — ٣١٦

(٢) المقريزى : الخطط ، ٢ ص ١٩٣ س ١٢ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٢ ص ١٩٣ س ١٢ — ١٣

(٤) أنظر : Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 112 ; 115.

جمع «شينى» أو «شُونة»[١]، وهى من أهم قطع الأسطول الفاطمى وأطولها، وتجدّف بثلاثة وأربعين ومائة مجذافاً، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع وللهجوم، وتحتوى على أهراء لخزن القمح، وصهاريج لخزن الماء الحلو. و«الحراريق» جمع «حَراقة»[٢]، وهى من أكبر المراكب أيضاً، وإن كانت أقل من الشونة حجماً، وتُستعمل على الأخص فى حرق سفن العدو؛ ولذلك كانت مزودة بالنفط، الذى يُرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو فى القوارير[٣]. و«البُطّس» جمع «بُطْسة»، وهى من السفن الحربية العظيمة، التى تشتمل على عدة طبقات، وعلى قلوع كثيرة تقدّر بأكثر من أربعين قلعاً[٤]، وهى تستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة وعلى الأخص الرجال؛ فيروى المقريزى أن إحدى «البطّس»، كانت تحمل خمسمائة وألف شخص[٥]. والمراكب المسماة «أغربة» جمع «غُراب»[٦]، وهى من المراكب الحربية شديدة البأس، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل

---

(١) صبح، ٣ ص ٥٢٣ س ١٣؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٨٢ س ١٠، ٤٨٣ س ٧ و ١٤، ٢ ص ١٩٣ س ٤ و ١٢؛ ابن مماتى، قوانين، ص ١٦؛ انظر. Arab,:Syed Sulaimân Navigation, "Isl.Cult". VolXV, October. 1941, p.440; Vol.XVI, January 1942, p82.؛ عبادة، سفن، ص ٤ — ٥؛ Kindermann: 53, Schiff, p.3: Amari, p.280: 300: 324: Dozy, Suppl, I, p. 812. هذا المركب يسمى أيضاً: «حمامة». أنظر، المقدسى، تحقيق De Goeje، ص ٣٢.

(٢) المقريزى، الخطط، ١ ص ١٩٤؛ ابن مماتى، ص ١٦؛ Rosen: Basile le, Uber arabisches Schiffwesen, p. 438: Gildmeister: Bulgaroctone, p.285 Kindermann, p. 22: Dozy: Suppl, I, p. 274؛ عبادة، ص ٥. توجد مراكب تحمل نفس الاسم للنزهة والرياضة والتنقل عند الخلفاء. أنظر، عبادة، ص ٥.

(٣) أنظر. Caben: Un traité, texte, p. 122-3; trad, p. 145—6.

(٤) أنظر. Amari, p.321: Kindermann, p. 7؛ عبادة، ص ١٠؛ Syed: Arab, navigation. Isl. Cult. XV, no 4, Oct 1941, 440: Dozy: Suppl, I, p. 94.

(٥) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٨٠ س ٣٤ — ٣٥. يسميها المقريزى: «بطشة».

(٦) عبادة، ص ٧؛ انظر. Kindermann, p. 7; 68: Dozy: Suppl, 2, p. 204-5.

مقدمة هيكلها ، التى على شكل رأس غراب . و « المُسطّحات » جمع « مُسطّحة » أو « مُسطّح »[١] ، وهى نوع منى كبار سفن الحرب المسطوحة. و « الطرائد » جمع « طريدة » ، وكانت تُستخدم فى نقل الخيل[٢] . و « الشلنديّات » جمع « شَلندى »[٣] ، وكانت من كبار المراكب المسطحة، وتُستخدم فى نقل البضائع . و« القراقير »جمع « قرقُورة »، وكانت من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للأسطول[٤] . و «الحمالات»جمع « حَمّالة »، وكانت تحمل الذخيرة للأسطول[٥] .

وبالإضافة إلى هذه القطع الحربية الرئيسية يشتمل الأسطول على قطع أخرى، مثل: «الطرّادات»، جمع «طرّاد» أو «طرّادة»، وهى سفن حربية صغيرة، على هيئة البرميل بدون سطح ، وتستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها[٦] . والشبابيك ، جمع « شَبك» أو« شُبّاك » ، وهى من سفن الأسطول الصغيرة[٧] ، ذات ثلاثة قلاع،

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٣ س ١٥ ، ٢ ص ١٩٣ س ٤ و ١٣ ؛ صبح ٣ ص ٥٢٣ ؛ انظر . عبادة ، ص ١١ ؛ Dozy: Suppl, I, p. 652 .

(٢) ابن مماتى ، ص ١٦ ؛ Amari, p. 3.0 ؛ انظر . عبادة ، ص ٥ ؛ Dozy : Suppl, 1, p. 34 ؛ Kindermann, p.13-14.

(٣) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٢ س ٣٦ ، ص٤٨٣ س ٨ ، ٢ ص١٩٣ — ٤ ؛ ابن مماتى ، ص ١٦ ؛ يحيى الأنطاكى ، ص ٤٢٩ ؛ أنظر . عبادة ، ص ٥ — ٦ ؛ Dozy : Suppl, I, p. 783 ؛ Kindermann, p. 51.
يقول المقدسى إن « الشلندى » هو « البارجه » . انظر . أحسن التقاسيم ، ص ٣٢ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٧٦ س ٣٩ ؛ انظر . عبادة ، ص ٥ ؛ Dozy : Suppl, 2, p. 335 ؛ Kindermann, p. 4 ; 9
يقول المقريزى بوجود « قراقير » تسير فى النيل ، لنقل الناس فى الأعياد .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٣ س ١٥ ، ٣ ص ١٩٣ س١٣ ؛ صبح ، ٣ ص٥٢٣ ؛ ابن مماتى، ص١٦ ، أنظر. Amari, p. 333 ؛ عبادة، ص١٢ ؛ Kindermann, p.23-34 ؛ Dozy : Suppl, 1, p. 327

(٦) عبادة ، ص ٦ .

(٧) يكتب المقدسى (ص ٣٢) « شبك » بدلاً من « شباك » أنظر . عبادة ، ص ٧ ؛ Dozy : Suppl, I, p. 723

وقد تسير بالمجاذيف . و « الفلايك » جمع « فلوكة » ، وهى مراكب صغيرة سريعة ، تتحرك بالمجاذيف[١] . وكانت « القوارب » جمع « قارب » [٢]، و « الزوارق » جمع « زورق »[٣] ، ضمن قطع الأسطول أيضاً ، وهى مراكب من غير شراع ، وتستعمل — فى العادة — لنقل الأشخاص .

وكانت الدولة تملك أسطولاً نهرياً يسير فى النيل مثل المراكب التى يقال لها : «عُشاريات» جمع «عُشارى»، وكانت تسمى فى العصر المملوكى «حرّاقة»[٤]، وتستخدم فى حمل غلات الدولة وغيرها[٥] . ويقول ابن الطوير[٦] ، بوجود عشرين مركباً من نفس النوع تسمى : « دماميس » جمع « ديماس » أو «ديماس» ، برسم الخليفة وبعض الموظفين الكبار فى الدولة. وكانت «الشذوات» جمع « شذات »[٧]، و«السميريات» جمع «سميرية»[٨]، تستعمل فى نقل المؤن والعساكر فى الأنهار. أما المراكب المسافرة «علابيّات» و«حمائم» و«سنابك»؛ فكانت معروفة من قبل فى عهد ابن طولون وتسير فى النيل .

ويشير القلقشندى[١٠] ، عند كلامه عن الأسطول الفاطمى ، إلى وجود

---

(١) عبادة ، ص ٧ ؛ Dozy : Suppl, 2, p. 381 ؛ Kindermann, p. 74.

(٢) المقدسى ، ص ٣٢ ؛ عبادة ، ص ١٢ ؛ Dozy : Suppl, 2, p. 323 ؛ Kindermann, p. 20.

(٣) المقدسى ، ص ٣١ ؛ Kindermann, p. 37—8

(٤) عبد اللطيف، الإفادة والإعتبار ، ترجمة de Sacy، باريس ١٨١ ، ص ٢٩٩ــ٣٠٠ ؛ انظر . زكى ، كنوز ، ص ١١٤ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٢ س ٣٩ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٤٦٩ س ٣٥ ، ٤٨٢ س ٣ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٢٠ ، أنظر . عبادة ، ص ٧ ؛ Dozy : Suppl, 2, p.135 ؛ زكى ، كنوز ، ص ١١٢ ؛ Kindermann, p.62

(٧) المقدسى ، ص ٣٢ ؛ انظر . عبادة ، ص ١٠ .

(٨) Dozy : Suppl, 1, p. 682 ؛ Kindermann, p. 38, 42-3

(٦) المقريزى ، الخطط ، ٢ ص ١٨٠ س ٧ ؛ انظر . عبادة ، ص ١٢ .

(١٠) صبح ، ٣ ص ٥٢٤ س ٢٣ .

أسطول صغير، قليل العدد يتكون من ثلاثة أو خمسة مراكب فى مرفأ عيذاب، كان يقوم بأعمال الحراسة فى البحر الأحمر وتنظيفه من القرصان.

ويصف لنا ابن جبير[1]، الذى زار مصر فى عهد صلاح الدين، كيفية صنع المراكب، التى كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى: «جِلاب» جمع «جَلَبَة»؛ فهى كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً، لا يستعمل فيها مسمار البتة، وإنما خشبها يخيط بحبال مصنوعة من قشر الجوز المفتول، وتتخللها عيدان النخل، ثم تسقى المراكب بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش وهو أحسنها، وذلك لتليين الأعواد؛ فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير وتجعلها غير صالحة، وكانت هذه المراكب لخفتها تُحمل على ظهر الجمال، وتسير بالمجاذيف أو بالشراع.

أما عن رجال الأسطول، فلم تصلنا عنهم أية معلومات ذات قيمة، وإن كانت كل مركب تحمل عدداً مناسباً من البحارة والمجدّفين، والمقاتلة، الذين يختارون بعناية؛ ففى أيام الوزير طلائع بن رزيك، نسمع عن مركب فيها ألف مقاتل[2].

ومع ذلك فتدلنا بعض المعلومات بصفة عامة، على طبقات رجال الأسطول: فكان قائد الأسطول يحمل لقب: «رئيس الأسطول» أو «مقدّم»، وهو يختار من بين أعيان القواد البحريين البالغ عددهم عشرة[3]. وحسب قول القلقشندى[4]، كان عدد قواد الأسطول المدرجين فى ديوان الجهاد، فى آخر عهد الدولة، يزيد على خمسة آلاف؛ وهذا العدد لا يدل بطبيعة الحال على عدد المقاتلة أو البحارة، الذين كان عددهم ولا بد كبيراً جداً.

---

(١) رحلة، ص ٦٩ ؛ المقريزى، الخطط، ١ ص ٢٠٣.

(٢) المقريزى، الخطط، ١ ص ٩٤ س ٣٦ ؛ انظر Bouriant, p. 270.17,18

(٣) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٨٣ س ٩، ٢ ص ١٩٣ س ٥ — ٦.

(٤) صبح، ٣ ص ٥٢٣.

وفى حالة خروج الأسطول، كان «النُقَباء»، وهم أشخاص معروفون من ديوان الجهاد، مسئولين عن جمع المقاتلة للأسطول من بين الذين يعرفون الحرب البحرية[١]؛ فكانوا يجمعونهم من جميع أركان البلاد. ويلاحظ المقريزى[٢]، أنه لم يكن أحد يجبرهم على العمل فى الأسطول، وكان الناس يقدّرون جهادهم ويسمونهم: «المجاهدين فى سبيل الله»، ويتبركون بهم.

وكانت المراكب تزود بأنواع السلاح البحرى المختلفة، ولكننا نجهل التفاصيل الدقيقة عن الأسلحة البحرية، وربما كانت تشبه أسلحة الجيش. فيروى القلقشندى[٣] أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية، كانت عبارة عن القسىّ، التى تشد بواسطة اليد أو الرجل، أما عن أسلحة المراكب الكبرى، فإنها كانت تزود على الأخص: «بالمنجنيقات»[٤]، و«العرادات»[٥]، لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة؛ و«بالكلاليب»[٦]، وفائدتها، أنها تلقى على مراكب العدو فيوقفونه، ثم يشدونه، ويرمون عليه الألواح كالجسر، ويدخلون إليه، ويقاتلون من فيه. وكان الأسطول الفاطمى — مثل أساطيل الدول فى ذلك العصر — يستخدم النفط أو النار الإغريقية[٧]، التى تكلمنا عنها فيما سبق؛

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٨٣ س ١٦ — ١٧، ٢ ص ١٩٣ س ١٣.

(٢) نفسه، ٢ ص ١٩٣ س ١٥ — ١٦.

(٣) صبح، ٣ ص ٥٠٨ س ٢ — ٣.

(٤) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٨٠ س ٢٠.

(٥) صبح، ١٠، ص ٤١٣ س ١٢. العرادة أصغر من المنجنيق.

(٦) ابن الأثير، ١٠ ص ٣٤٣؛ انظر Dozy: Suppl, 2, p. 481؛ عبادة، ص ٨

(٧) صبح، ١٠ ص ٤١٣ س ١٢؛ ابن الأثير، ١٠ ص ٣٤٣.
يتكلم ابن هانىء عن النار التى يستعملها الأسطول الفاطمى فى غاراته البحرية، فيقول:

عليها غمام مكفهر صبيره ... له بارقات جمة ورعود.
إذا زفرت غيظاً، ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود.
فأفواههن الحاميات صواعق ... وأنفاسهن الزافرات حديد.

أنظر. ديوان، تحقيق زاهد على، بيروت ١٣٨٦هـ، ص ٢٦.

فكان يستعمل نوعاً من النفط يسير على الماء دون أن ينطفىء؛ فكان هذا النفط يحرق مراكب العدو [١]. وعلى العكس، كانت المراكب الفاطمية، تحتمى من نار العدو وقذائفه، بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى: «لُبُوس» [٢]، عليه غطاء يسمى: «لبود» [٣]، من جلود البقر الطرية، أو من البسط [٤]؛ أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان [٥]. وليس من شك، فى أن القطع البحرية الفاطمية، كانت مزودة أيضاً بكل ماهو ضرورى للحرب فى البر [٦]؛ فكانت المراكب تحمل الأسلحة التى تستخدم فى نقب أسوار الموانىء المعادية [٧]، مثل: «الأبراج»، و«الدبابات»، و«السلالم»، وحتى «الحبال» [٨].

ومن الطريف أن نذكر وجود قفص فيه حمام [٩]، ضمن معدات أسطول صقلّيّة، فكان هذا الحمام — على ما يظهر — يستعمل فى إبقاء الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول، أو بينه وبين القيادة العامة فى البر. أضف إلى أن مركب «رئيس الأسطول» كان يزود بفانوس خاص، لتهتدى به المراكب الأخرى، فيقلعون بإقلاعه ويرسون برسوه [١٠].

---

(١) أنظر. Cohen : Un traite, texte, p. 122—3, trad, p.145—6
(٢) المقريزى، الخطط، ١، ص ٤٨٠ س ٢٠؛ انظر. Dozy : Suppl, 2, p. 512
(٣) نفسه، ٢ ص ١٩٣ س ٣٥؛ انظر. Ibid, 110. 510
(٤) ابن القلانسى، ص ١٧١.
(٥) صبح، ١٠ ص ٤١٣.
(٦) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٨٠ س ١١ و١٥.
(٧) أنظر. Amari, p 333., 366
(٨) صبح، ١٠ ص ٤١٣.
(٩) أنظر. Amari, p.293
(١٠) المقريزى، الخطط، ١ ص ٤٨٣ س ١٢؛ انظر.

وقبل أن يبحر الأسطول جرت العادة بتوزيع «النفقة» فى المقاتلة ، بحضور الخليفة والوزير وصاحب ديوان الجيش، فيجتمع المقاتلة مائة مائة، مصحوبين بنقبائهم فى قاعة التوزيع ، وكان المال يوزع بالوزن وليس بالعد .

وقد جرت عادة الفاطميين أن يقيموا احتفالاً رسمياً يوم سفر الأسطول يسمى: «الموادعة»[١]؛ فكان الخليفة يحضر بصحبة الوزير والأعيان إلى ساحل «المقس»، وهو ميناء يقع على ساحل النيل خارج القاهرة ، حيث تجتمع المراكب؛ فتقوم هذه المراكب — أمام الخليفة — بالحركة ، كما يفعل تماماً فى حالة القتال؛ فكان الخليفة فى هذه المناسبة يدعو للأسطول بالنصرة والسلامة ، ويمنح بعض الهدايا والخلع[٢] ، إلى رئيس الأسطول والقواد .

ولم يترك لنا المؤرخون معلومات وافية عن خطط الفاطميين فى الحرب البحرية ، ولكن يمكننا أن نعرف مما ورد فى كتب التاريخ أو فى دواوين الشعر ؛ أن هذا الأسطول كان شديد البأس فى الحرب البحرية ؛ فهو لم يرجع أبداً من القتال بدون غنيمة أو أسرى .

ولكن فى آخر عهد الدولة ، ضعف الأسطول وقصر نشاطه على تموين المرافىء الساحلية فى الشام ،التى كانت لاتزال فى أيديهم ؛ فيروى أبو الفداء[٣] أن خلفاء مصر ووزراءهم كانوا يرسلون كل عام المؤن والسلاح لأسطولهم المحاصر لعسقلان .

أما عن نظام الدفاع البحرى عن الموانىء الفاطمية ضد غارات الأعداء ، وبخاصة الصليبيين ، فكانت تشبه النظام الذى أتبع فى عصور متأخرة . ففى مدخل

---

(١) صبح، ٣ ص ٥٢٣ ؛ الخطط، ١ ص ٤٨٠ س ١٩ ؛ ابن ميسر ، ص ٤٤ ؛ انظر عبادة ، ص ١٧ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ١ ص ٤٨٠ س ٢١ و ٢٢ ، ٢ ص ١٩٣ س ٣٣ .

(٣) أبو الفداء: أنظر . (Rec. des Hist des Crois) ١، ص ٣٢ .

الميناء يوجد برجان تشد بينهما سلسلة من الحديد ثقيلة، حتى لا تستطيع المراكب الدخول من غير إذن[١] .

وعند عودة أسطول الفاطميين المظفر ، يقام إحتفال رسمى يشبه الاحتفال الذى أقيم عند رحيله ؛ فيحضر الخليفة بصحبة أعيان الدولة ، ليشاهد بغبطة أسطوله المنتصر . وقد جرت العادة أن يستولى الخليفة على الأسرى والسلاح[٢] ، وأن يترك الباقى من الغنائم مثل المال والملابس لرجال الأسطول . فكان الخليفة يأخذ الأسرى من النساء ويأمر بإدخالهن فى حريمه ؛ أو يهدى بعضهن إلى كبار رجال الدولة ؛ كما كان يلحق الصبيان من الأسرى فى حرسه الخاص : « صبيان الخاص »[٣] ، حيث يربون ويتعلمون الخط والرماية ؛ أما من أستريب به من بقية الأسرى أو الشيوخ الذين لا ينتفع بهم ؛ فإنه كان لا يتردد فى إمضاء حكم السيف فيهم .

وقد بقى الأسطول الفاطمى نموذجاً للأسطولين : الأيوبى والمملوكى .

* * *

(١) المقريزى، الخطط، ١ ص ٢١٥ س ١٥.

(٢) نفسه ، ١ ص ٤٨٠ س ٢٦ ، ٢ ص ١٩٣ س ٣٧ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٤٨٠ س ٢٦ — ٣٢ ، ٢ ص ١٩٣ س ٣٦ .

انظر

(الجزء الثانى)

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد — القاهرة